تم الطالب بتصحيح ما طلب منه

د. فاروق أحمد دسوقي

المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا - قسم العقيدة

الإمام أبو بكر الباقلاني
وآراؤه الاعتقادية
في ضوء عقيدة السلف

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة الإسلامية

إعداد الطالب
جودي صلاح الدين النتشة

إشراف الدكتور
فاروق أحمد الدسوقي

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ،وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فبلغ الرسالة ، وأدى الامانة ، ونصح الامة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد : تحظى العقيدة في كل مراحل الحياة باهتمام المدركين لأهميتها وأثرها في الحياة بأسرها ، كما حظيت العقيدة الاسلامية بالذات بتميز خاص وهو عرضها مفصلة بالكتاب والسنة .

ان العقيدة الاسلامية هي الركيزة الاولى في حياة المسلمين فمنذ أن سطع نور الهداية المحمدية والعقيدة الاسلامية واضحة كل الوضوح ، فقد كان مما يميزها أنها واضحة صريحة لا غموض فيها ، وكان المسلمون في الصدر الأول يأخذون عقيدتهم من الكتاب والسنة ويرون فيهما الكفاية .

فقد فهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم العقيدة نقية كما جاء بها الوحي ، فضربوا أروع الأمثلة في الدفاع عنها وحمايتها والعمل المتواصل على نشرها ، حيث كانت حية صافية في قلوبهم لم تتسرب اليها الشبهات .

وهكذا مضى عصر الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم بهذه الصورة الايمانية المشرقة وبهذه الوحدة القوية المترابطة .

الا أن مسيرة التاريخ حدث فيها أمور زعزعت تلك الوحدة وذلك الصفاء والوضوح .

فبعد عصر الفتوح الاسلامية ، واتساع رقعة البلاد الاسلامية ود خول كثير من أهل الديانات الاخرى في الاسلام ، واختلاط المسلمين بهم وبغيرهم ممن بقي على دينه .

سهل هذا على المسلمين الوقوف على ما عند غيرهم من مذاهب وأفكار مختلفة ، أخذ بعض المسلمين يفسرون بها دينهم ويردون على ما تعارض منها مع عقائدهم .

ومن العوامل التي أدت الى تعكير صفاء العقيدة ونقائها ما أحدثته حركة الترجمة لكتب الفلسفة والمنطق التي ادخلت مفاهيما غريبة على دراسة العقيدة الاسلامية وما واكب ذلك من جدل وزعزعة في الافكار الاسلامية الثابتة .

وتحت ستار احترام الاسلام للعقل انتشر بين كثير من المطلمين تحكيم العقل في أمور العقيدة ، واعطاؤه الصدارة في الحكم ، فكان لذلك الاثر الكبير في اخضاع المسائل العقديه للبحث والمناظرة ، مما نتج عنه كثرة الجدال في أمور العقيدة ، وانتشار البدع والاقوال الضالة لاختلاف عقول الناس فما يعرفه عقل قد ينكره آخر ، وما يتصوره عقل قد يجهله آخر . فأي عقل اذا هو الذي يؤخذ حكمه ويجعل ميزانا لمعرفة الحقائق الشرعية ؟ ؟

وكان لظهور الغرق الكثيرة في المجتمع الاسلامي كالخوارج والشيعة والجهمية والمرجئة والمعتزلة ونحوهم الاثر الكبير في تباين الآراء وظهور الاقوال الغريبة والمنكرة في المجتمع الاسلامي .

وقد انضوت هذه الغرق تحت رايات مختلفة ، كالتعطيل والتأويل والتشبيه والقول بالجبر ونفي القدر وغير ذلك من البدع ، بسبب أصول أصّلوها وأمور أحدثوها ما أنزل الله بها من سلطان .

ولكن الله سبحانه وتعالى الذي تكفل بحفظ دينه على مدى الزمان قد قيض لهذه الامة في كل عصر وحين رجالا أوفياء مخلصين كرسوا حياتهم في الدعوة الى الله وبيان عقيدة الاسلام النقية ، والوقوف أمام التيارات المنحرفة والغرق الضالة ، وبيان منهج السلف الصافي والواضح .

وقد وجدت أن الامام الباقلاني - رحمه الله وغفر له - من هؤلاء الاعلام الذين انبروا للدفاع عن العقيدة ، ونضحوا عن كتاب الله ورموا من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة ، وكشفوا للناس ما يلبس أصحاب الغرق الضالة وما عملوه من شبهات .

ويتناول هذا البحث آراء الباقلاني الاعتقادية في ضوء عقيدة السلف بقصد معرفة قربه أو بعده عن منهج السلف .

والمقصود بالسلف : الصحابة والتابعون وأتباعهم من أهل القرون الثلاثة الاولى ، الذين كان معتقدهم موافقا لما جاء في الكتاب والسنة ،والذين

شهد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالخيرية في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :((خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته))(١)

فكل من سلك طريق السلف الصالح ومنهجهم فهو سلفي نسبه اليهم .

ولا شك أن لهذا الموضوع أهميته التي تنبع من قيمة الامام الباقلاني التاريخية باعتباره أحد الذين تصدوا بقوة لأصحاب الرأي من المعتزلة وغيرهم الذين انحرفوا بمفاهيم العقيدة عن منهج السلف .

فهو من أشهر العلماء الذين كان لهم الاثر في حفظ تراث هذه الأمة ، خاصة وأنه من المشهود لهم بتميزهم في شتى العلوم الاسلامية حيث خلف كتبا قيمة وآثاراً نافعة في مختلف العلوم التي أصبحت فيما بعد مصادر يرجع اليها العلماء حتى عصرنا هذا .

ومن ثم يعتبر كثير من النقاد والمؤرخين الامام الباقلاني أحد العلماء البارزين الذين كان لهم الأثر البارز الواضح في تاريخ تدوين العقيدة الاسلامية ، حتى انه اذا اطلقت كلمة (القاضي) في كتب الاشاعرة وكتب أصول الفقه الشافعية فانها تنصرف الى الباقلاني لاغير ، وقد بلغ من اعجاب العلماء به في جهوده في الدفاع عن العقيدة أن عدوه " مجدد المائة الرابعة للهجرة" ولقبوه بألقاب كثيرة منها " سيف السنة ولسان الأمة " " وامام متكلمي أهل الحق " وغير ذلك من الالقاب التي تظهر مكانته العلمية البارزة .

ولما كانت مساهمات هذا الامام في الرد على المنحرفين من الاهمية بمكان آثرت أن يكون فكره وآراؤه وجهوده في الدفاع عن العقيدة الاسلامية هي موضوع بحثي لرسالة الماجستير .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب فضائل الصحابة ١٨٩/٤

ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ١٩٦٣/٤

وكان جل اعتمادي في هذا البحث على مصنفات الامام الباقلاني في العقيدة وكذلك آراءه المبثوثة في كتب العلماء من المتكلمين وغيرهم .

وأما الصعوبات التي واجهتني في البحث فهي قلة المصادر الخاصة بالباقلاني ، لأنّ معظم مؤلفاته مفقودة مع الاسف ،لكني تغلبت بعون الله تعالى على هذه الصعوبة بالرجوع الى كتب الكلام والفرق واستقاء ما غاب من آرائه من ردود السلف عليه وخاصة كتب الامامين ابن تيمية وابن القيم .

وأما المنهج الذي سرت عليه في هذا البحث فيمكن تلخيصه فيما يلي :-

أولا : عرضت آراء الفرق والخلاف بينها باختصار في بداية كل مسألة ، وتناولت بعدها رأي الباقلاني تفصيلا وأدلته في ذلك ، ثم أعقب على رأيه اذا كان موافقا فيه للسلف بالنصوص والأدلة من المصادر الاصلية ، واذا كان مخالفا لهم في المسألة أبين الردود على مذهبه ، ثم أوضح المذهب السليم في ذلك ، ثم أتناول بعد ذلك جهوده في الرد على المذاهب المخالفة مع التعقيب على ذلك بموافقته أو مخالفته لمذهب السلف .

ثانيا : نسبت الآراء الى أصحابها ، أو الفرق التي تمثلها بقدر الامكان من المصادر الأصلية وكتب الفرق .

ثالثا : عرضت آراء الامام الباقلاني من مؤلفاته ومؤلفات العلماء الثقات الذين نقلوا آراءه .

رابعا : ترجمت للاعلام الواردة في البحث ، ما عدا بعضهم نظرا لشهرتهم كالأئمة الاربعة أصحاب المذاهب الفقهية ونحوهم .

خامسا : خرجت الاحاديث النبوية والآثار الواردة في البحث .

وقد جاءت الرسالة في مقدمة واحد عشر فصلا :-

الفصل الأول : تحدثت فيه عن عصر الامام الباقلاني وقسمت هذا الفصل الى ثلاثة مباحث :-

- المبحث الاول : تكلمت فيه عن عصر الامام الباقلاني من الناحية السياسية .

- المبحث الثاني : تحدثت فيه عن عصر الامام الباقلاني من الناحية الاجتماعية .

- المبحث الثالث : تناولت فيه عصر الباقلاني من الناحية العلمية وبينت مدى ازدهار العلم في هذا العصر وتأثر وتأثير الباقلاني فيه .

وأما الفصل الثاني : فقد عقدته للتعريف بالامام الباقلاني وقسمت هذا الفصل الى خمسة مباحث :

- المبحث الاول : تحدثت فيه عن اسم الباقلاني وكنيته ، ونسبه ونسبته ، ووفاته .

- المبحث الثاني : تحدثت فيه عن شيوخ الباقلاني وتلاميذه ، وترجمت لهم ، وذكرت شيئا من أخبارهم ومصنفاتهم .

- المبحث الثالث : تناولت فيه الحديث عن شخصية الامام الباقلاني وعن سعة ثقافته ومكانته العلمية ، وذكرت آراء العلماء فيه سواء من ذكره بمدح أم بذم وبينت وجه الحق في ذلك قدر الامكان ، كما أبرزت جهوده في المناظرات ورحلاته العلمية ، كما تحدثت عن أحرفه وثناء الناس عليه .

- المبحث الرابع : تحدثت فيه عن أهم وظائف الباقلاني وتوليه القضاء وحققت القول في مذهبه في الفروع الفقهية .

- المبحث الخامس : تناولت فيه مصنفات الامام الباقلاني المطبوعة والمخطوطة .

وأما الفصل الثالث : فقد عقدته للحديث عن منهج الباقلاني في الاستدلال على العقائد .

وأما الفصل الرابع : فقد تناولت فيه الحديث عن التوحيد عند الباقلاني وقسمته الى ثلاثة مباحث :-

- المبحث الأول : تحدثت فيه عن اثبات وجود الله عند الباقلاني وعرضت أدلته في ذلك ، والمقدمات العقلية التي قدمها للاستدلال على وجود الله كالمعلوم والشيء ، وأقسام الموجودات كالجواهر ، والاجسام، والاعراض ، وبينت صفات الجوهر وأحكام العرض عنده وعند المتكلمين وناقشته فيما خالف فيه منهج السلف ، ثم عرضت أدلة السلف على وجود الله تعالى .

- المبحث الثاني : تناولت في هذا المبحث مفهوم الوحدانية عند الباقلاني وأنواعها وأدلته على اثباتها ، وبينت وجه الحق فيها وعقبت على ذلك بذكر مذهب السلف وأدلتهم على اثبات الوحدانية وأنواع التوحيد عندهم .

- المبحث الثالث : تكلمت فيه على تنزيه الله تعالى عند الباقلاني وأدلته ثم نقد ذلك ، وبيان مذهب السلف .

وأما الفصل الخامس : فقد تناولت فيه رأي الامام الباقلاني في مسائل الايمان والاسلام وأسماء الله عز وجل وقسمته الى ستة مباحث :

- المبحث الاول : تحدثت فيه عن رأي الامام الباقلاني في حقيقة الايمان وأدلته على ذلك ، وبينت النقد الموجه اليه فيما ذهب اليه ، وبينت حقيقة الايمان عند السلف وأدلتهم على ذلك .

- المبحث الثاني : تحدثت فيه عن العلاقة بين الاسلام والايمان عند الباقلاني وبينت المذهب الراجح في ذلك .

- المبحث الثالث : عرضت فيه رأي الباقلاني في زيادة الايمان ونقصانه وأدلته في ذلك مع النقد والترجيح .

- المبحث الرابع : عرضت فيه رأي الباقلاني في جواز الاستثناء في الايمان وأدلته .

- المبحث الخامس : تحدثت فيه عن طريق ثبوت اسماء الله تعالى عند الباقلاني وأدلته في ذلك .

- المبحث السادس : بينت فيه رأي الامام الباقلاني في حقيقة الاسم والمسمى مع عرض أدلته على ذلك وبيان المذهب الراجح في ذلك .

أما الفصل السادس : فقد فصلت فيه القول في رأي الامام الباقلاني في الصفات العقلية الثبوتية الذاتية والفعلية وقسمته الى أربعة مباحث :-

- المبحث الاول : تناولت فيه تقسيم الصفات عند الباقلاني .

- المبحث الثاني : تحدثت فيه عن علاقة الصفات بالذات عند الامام الباقلاني وتناولت فيه رأي الباقلاني في زيادة الصفات على الذات وأدلته ورأيه في قدم الصفات وحدوثها ، كما تناولت فيه مسألة الاحوال عند الباقلاني بشيء من التفصيل .

- المبحث الثالث : عرضت فيه رأيه في الصفات العقلية الذاتية والفعلية وأدلته على اثباتها .

- المبحث الرابع : تناولت فيه مسألة كلام الله تعالى عند الباقلاني وقد أفردتها في مبحث مستقل نظرا لأهميتها وخطورتها ، وبينت رأي الباقلاني في كلام الله تعالى حيث يعتبر أن حقيقة الكلام هو الكلام النفسي ، وعرضت أدلته في ذلك ، وتناولت مسألة الحرف والصوت عنده وقدم الكلام الالهي ،وبينت

مذهبه في القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو وختمت هذا المبحث بموقف الباقلاني من المعتزلة في مسألة خلق القرآن •

وأما الفصل السابع : فقد عرضت فيه رأي الامام الباقلاني في الصفات الخبرية وقسمته الى ثلاثة مباحث :

- المبحث الاول : تحدثت فيه عن رأي الباقلاني في صفات الذات الخبرية
- المبحث الثاني : تحدثت فيه عن رأي الباقلاني في صفات الفعل الخبرية
- المبحث الثالث : تناولت فيه ردودا على مفتريات على الباقلاني وابن تيمية وابن القيم •

وأما الفصل الثامن : فقد تحدثت فيه عن رؤية الله تعالى عند الباقلاني وقسمته الى مبحثين :

- المبحث الاول :عرضت فيه رأي الباقلاني في رؤية الله تعالى في الآخرة وأدلته العقلية على جوازها ، وأدلته النقلية على وقوعها •
- المبحث الثاني : تناولت فيه جهود الامام الباقلاني في نقض شبهات المعتزلة السمعية والعقلية في انكارهم لرؤية الله تعالى •

وأما الفصل التاسع : فقد تناولت فيه رأي الباقلاني في القضاء والقدر وخلق أفعال العباد وقسمته الى خمسة مباحث :

- المبحث الاول: تحدثت فيه عن رأي الباقلاني في مفهوم القضاء والقدر
- المبحث الثاني : تناولت فيه عموم ارادة الله تعالى عند الباقلاني وأدلته على ذلك •
- المبحث الثالث : فصلت القول فيه في مفهوم الرضا بالقضاء عند الباقلاني وعلاقته بالارادة •
- المبحث الرابع : تحدثت فيه بالتفصيل عن رأي الامام الباقلاني في مسألة خلق الله لأفعال العباد وعرضت أدلته في ذلك وعقبت عليها بمذهب السلف وبينت أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، والعباد فاعلون حقيقة لأفعالهم وتحدثت عن الاستطاعة عند الباقلاني والسلف •
- المبحث الخامس : تناولت فيه مسائل هامة تابعة لموضوع القضاء والقدر كالارزاق والاسعار، والآجال ، والهدى والضلال ، والتعديل والتجوير •

وأما <u>الفصل العاشر</u> : فقد تحدثت فيه عن رأي الامام الباقلاني في النبوات وقسمته الى ثلاثة مباحث :-

- المبحث الاول : افردته للحديث عن اثبات النبوات عند الباقلاني ورده على المنكرين .

- المبحث الثاني : تناولت فيه معنى المعجزة وشروطها عند الباقلاني والفرق بينها وبين السحر .

- المبحث الثالث : تحدثت فيه عن اثبات الامام الباقلاني لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما <u>الفصل الحادي عشر</u> : فقد تناولت فيه رأي الباقلاني في السمعيات .

ثم جاءت <u>الخاتمة</u> : وتحدثت فيها عن أهم النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث .

وبعد هذا العرض الموجز لفصول ومباحث الرسالة ، فانني أحمد الله سبحانه وتعالى على ما أمدني به من عون وتوفيق في انجاز هذا البحث وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم فله الحمد والمنة وله الشكر والثناء الحسن .

ثم أتوجه بخالص شكري وتقديري وعظيم امتناني لفضيلة استاذي الدكتور فاروق أحمدالدسوقي الذي تفضل بالاشراف على هذه الرسالة ، وكان لتوجيهاته السديدة ، وآرائه القيمة والمفيدة أكبر الأثر في انجاز هذا البحث واخراجه الى حيز الوجود ، فقد منحني حقا من علمه وتوجيهه ووقته وصبره الشيء الكثير فجزاه الله عني خير الجزاء وبارك في وقته ونفع به .

كما أتقدم بالشكر الجزيل الى القائمين على جامعة أم القرى أخص بالذكر منهم معالي مدير الجامعة الدكتور راشد الراجح وعميد كلية الدعوة وأصول الدين الدكتور علي بن نفيع العلياني ووكيله الدكتور أحمد الزهراني ورئيس قسم العقيدة الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي لما يبذلونه في خدمة العلم وطلابه .

كما لا أنسى أن أقدم شكري الى جميع الاخوة والزملاء الذين ساعدوني بفائدة علمية أفادتني في طريق البحث ، أو اعارة مرجع يتعلق بالبحث ، الى كل هؤلاء أقدم شكري وتقديري .

وأسأل الله تعالى أن يجزيهم عني أحسن الجزاء .

المبحث الاول

عصر الامام الباقلاني من الناحية السياسية .

تمهيد :-

لقد جرت عادة الباحثين في شخصية من الشخصيات أن يقدم بين يدى البحث بمقدمة موجزة عن الحياة التي كان يعيشها، والبيئة التي نشأ بها ، والظروف التي أحاطت به ، سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو علمية لما في ذلك من الاثر في فهم هذه الشخصية ، والكشف عن جوانبها وأفكارها ، وفهم المؤثرات التي أثرت فيها ، لان الانسان كما يقولون ابن بيئته فهو يتأثر بما يجرى حوله من مؤثرات علمية أو فكرية أو سياسية ، فهذه الدراسة للباحث والقارئ تبين مدى نبوغ تلك الشخصية ، واتجاهها الذى سلكته ، وأفكارها التي نشرتها لما في ذلك من كشف عن أهمية تلك الشخصية

لذلك كان لزاما عليّ وأنا أبحث في شخصية هامة من شخصيات الفكر الاسلامي - كان لها دور بارز في حفظ تراث الاسلام - ألا وهو الامام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. أن أقدم في بداية هذا البحث بمقدمة موجزة تبين عصر هذا الامام من ثلاث نواح :-

١- الناحية السياسية .

٢- الناحية الاجتماعية .

٣- الناحية العلمية .

١- الناحية السياسية :-

سنعرض في هذا المبحث الحالة السياسية في القرن الرابع الهجرى وبالاخص الفترة التي عاشها الامام الباقلاني ، وهي ما بين سنة (٣٣٨هـ - ٤٠٣هـ) حتي نتبين مدى تأثير الحياة السياسية والاوضاع الامنية في شخصية هذا الامام .

أهم ما تميز به عصر الامام الباقلاني من الناحية السياسية هو ضعف الخلافة بشكل عام ، وسقوط هيبة الخلفاء ، حتى أن الخليفة لا يأمن على نفسه ، ومن ذلك (ما تناقله المؤرخون المعاصرون .... من عدوان على أشخاص الخلفاء بالسجن أو القتل أو العزل أو السلب) (١)

---

(١) العالم الاسلامي في العصر العباسي د/ حسن ود/ محمد ط - دار الفكر العربي . ص ٣١١

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وقد فقد منصب الخلافة هيبته من نفوس الناس .

وبدأت في هذا القرن الحركات الإنفصالية والثورات الداخلية فظهرت الدولة الاخشيدية بمصر ، ثم انتزعها بعد ذلك الفاطميون ، وكذلك ظهرت دولة بني بويه في العراق ، وهي التي تهمنا ، وسنركز الحديث عنها لان صاحبنا عاش في العراق في أثناء سيطرت بني بويه الذين أصبحو أصحاب الامر والنهي في بغداد لضعف الخلفاء العباسيين ، الذين لم يبق لهم من الخلافة الا اسمها كما ظهرت في أفغانستان الدولة الغزنوية ، وفي الشام الدولة الحمدانية .

وقد كان لهذا التعدد والانقسام أثر كبير في زيادة ضعف الخلافة وسقوط هيبتها ، وأصبح هذا التعدد مظهر الضعف السياسي في الخلافة الاسلامية .

هذا موجز عن الحالة السياسية في العصر العباسي بشكل عام وكان من بين الدويلات التي انفصلت - كما بينا ذلك - دولة بني بويه ، حيث كانت الاحوال في بغداد في حالة من الفوضى ، وفي هذه الظروف أعلن البويهيون دولتهم ، تلك الدولة التي اتصل بها الامام الباقلاني وأدى لها في عهد عضد الدولة وابنه صمصام الدولة ما أدى من خدمات جليلة .

ولعلّ سائلا يسأل من هم البويهيون ؟ ومن أين أتو ؟ وكيف سيطروا على الخلافة في بغداد ؟

فالبويهيون نسبة الى بويه الذى نشأ في اقليم مازندارن وهم أسرة فقيرة كما يقول بعض المؤرخون كانوا ببلاد الديلم وكان أبوهم بويه رجلا من عامة الناس (وهم ثلاثة رجال ظهر أمرهم علي والحسن ، وأحمد ابناء بويه) (١)

(لكن هذه الاسرة الفقيرة عظم أمرها حتى سمي باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية وقد اشتركوا في حكم العراق الى حدود الجزيرة العربية) (٢)

---

(١) العالم الاسلامي في العصر العباسي د/ حسن و د/ محمد ص٤٩٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٩٦ .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

فقد أصبح بويه فيما بعد قائداً لقبيلة تركية دخلت في خدمة السامانيين ، وفي خدمة الاسماعليين ،وبعد أن تخلى بني بويه من تبعية هؤلاء واولئك ، ساروا نحو الجنوب ،واحتلوا فارس مستغلين في ذلك ضعف الخلافة واضطراب امورها (١)

اما كيف سيطر البويهيون على الخلافة العباسية فلا بد للاجابة عن هذا السؤال من متابعة الاحداث وتسلسلها حسب الترتيب الزمني لها ، وباختصار شديد :-

كانت الدولة الاموية دولة عربية ،وكانت السيطرة والحكم والجيش وسائر الامور بيد العرب ،وكان الجيش عربيا ،ولا مجال لغير العرب من الدخول فيه الا بشكل يسير ،ثم بعد ذلك قامت الدولة العباسية سنة (١٣٢)ه وقد استخدموا في ثورتهم أهل خراسان وجندوهم وغلبوا بهم الجيوش العربية مع أن العباسين كانوا عربا الا أنهم ومن اول لحظة كان اعتمادهم على العنصر غير العربي ،فكان الفرس أصحاب الامر منهم الوزراء وقادة الجيوش فأصبحت الجيوش الخراسانية هي الجيوش الاولى في الدولة وأصبحت الجيوش العربية لا حول لها ولا قوة ،فكان نتيجة لذلك أن انتقل الحكم من يد العرب الى يد الخراسانين ،ثم دعت الظروف بعد ذلك في الاعتماد على جيش اخر غير الخراسانين أكثر قوة وخشونة ،فان الخليفة المعتصم (٢١٨ه ـ٢٢٧ه) لما أحس بأن سلطان الفرس بدأ يزداد ويسيطر أراد أن يوجد لنفسه قوة تحفظ هيبته ،فمن أجل ذلك توجه الى العنصر التركي ،وأرسل الدعاة يدعون الاتراك الى الاسلام ،والى الدخول في الجيش ،فعظم أمرهم واصبحوا خطرا يهدد الدولة أكثر من الفرس ،ولما أحس المعتصم بهم وبخطرهم على الدولة بنى لهم مدينة سامراء ،واستمر الحال على هذا في تقوية العنصر التركي على العنصر العربي ،(وفي العصر العباسي الثاني ظهرت قوميات في العالم الاسلامي فكان كل شعب من الشعوب المنضوية تحت لواء الحكومة الاسلامية

---

(١) انظر الباقلاني وكتابه اعجاز القران د/ مخلوف ص ٦٠

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

يتلمس شخصيته القومية ،ويحاول أن ينميها وأن يرتفع الي مستوى الاستقلال) (١) وفعلا تم لها ذلك ،فقد بدأت في هذا العصر الحركات الانفصالية عن مركز الخلافة ،وتميز هذا العصر بكثرت الدويلات داخل الخلافة العباسية .

وكان من بين الدويلات التي انفصلت دولة بني بويه ،وكانت حالة الخلافة-كما مرّمعنا- في غاية الفوضي والاضطراب ،وكان الخلفاء آن ذاك مجرد العوبة في ايدى المتنافسين على السلطة ،وفي أثناء ذلك تمكن البويهيون من السيطرة على الخلافة في بغداد نتيجة لضعفها ولسقوط هيبة الخلفاء ، ولازدياد نفوذ العناصر الاجنبية الفرس اولا ثمّ الاتراك ثانيا .

تلك هي الحالة السياسية في بغداد ،في عصر الامام الباقلاني حيث الفتن والحروب والاضطرابات وسيطرة بني بويه على الخلافة ،وتنازع الاطراف للسيطرة على الخلافة .

وبعد هذا العرض السريع للحالة السياسية في القرن الرابع الهجرى تبين لنا أن القوةوالسيطرة الفعلية كانت في يد البويهيين ومع ذلك كان هناك خليفة عباسي ،ومركزا للخلافة وان كان ذلك صوريا ،وبناءا على هذا سنتحدث بايجازعن الخلفاء الذين عاصرهم الامام الباقلاني ،وكذلك اعطاء نبذة يسيرة عن ملوك دولة بني بويه ،الذين عاصرهم هذا الامام الجليل .

× خلفاء بني العباس الذين عاصرهم الامام الباقلاني :-

(١) المطيع لله ،وقد حكم (٢٩سنة) من (٣٣٤هـ - ٣٦٣هـ) .

وهو المطيع لله الفضل بن جعفر بن أحمد وهو ابن المقتدر ،قال ابن كثير عن يوم تولية الخلافة: (لما كان اليوم الثاني والعشرين من جمادي الآخرة حضر معز الدولة الى الحضرة فجلس على سرير بين يدى الخليفة ،وجاء رجلان من الديلم فمدا ايديهما الى الخليفة فأنزلاه عن كرسيه وسحباه .....وسيق الخليفة ماشيا الى دار معز الدولة فأعتقل بها و أحضر أبو القاسم بن المقتدر -المطيع لله- فبويع بالخلافة وسملت عينا المستكفي وأودع السجن، فلم يزل به مسجونا حتى كانت وفاته في ... (٢)

---

(١) العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٤٩٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٦/١١ .

وانظر الكامل لابن الاثير ٤٥٢/٨ .

ولم يكن للمطيع من امر الدولة شئ ،فقد تسلط بني بويه على الدولة ،وكان معز الدولة هو الحاكم الحقيقي ،لان دولة بني بويه قد بدأت نشاطها في أيام القاهر ،ثمّ توسعت وعظمت حتى استولت على الامور في زمن المطيع لله ، وهكذا يتبين لنا أن المطيع لله الخليفة العباسي لم يكن بيده شئ من السلطة وكانت السلطة الفعلية بيد معز الدولة بن بويه .

(٢) الطائع لله وقد حكم (١٨ سنة) من (٣٦٣هـ - ٣٨١هـ) .

والطائع لله هو ابن المطيع لله واسمه أبو بكر عبد الكريم بن المطيع . ،قال عنه ابن الاثير في أحداث سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (وفي هذه السنة ،منتصف ذى القعدة ،خلع المطيع لله ،وكان به مرض الفالج وقد ثقل لسانه ،وتعذرت الحركة عليه ،وهو يستر ذلك فانكشف حاله لسبكتكين ....فدعاه الى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها الى ولده الطائع لله ....ففعل ذلك وأشهد على نفسه بالخلع ثالث عشر ذى القعدة .... وبويع للطائع لله بالخلافة واستقر أمره) (١) .

ولم يكن حال الطائع لله بأحسن من حال أبيه ،فقد كان ايضا العوبة في ايدى البويهيين ليس له من الامر شئ ،وكان بعد ذلك أن حمل (الطائع الى دار بهاء الدولة وأشهد عليه بالخلع ،وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية شهور وستة أيام ،وحمل الى القادر بالله لما ولي الخلافة ،فبقي عنده الى أن توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة ليلة الفطر وصلى عليه القادر بالله) (٢) .

هذا ما كان من أمر الطائع لله وبعدها تولى الخلافة القادر بالله

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ٦٣٧/٨ .

وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٤/١١

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الاثير ٨٠/٩

وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٥٥/١١

(٣) القادر بالله وقد حكم (٤١ سنة) من (٣٨١هـ - ٤٢٢هـ)

وهو أبو العباس أحمد بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد قال ابـــن الاثير : (لما قبض على الطائع لله ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة فاتفقوا على القادر بالله ..... ، فأرسل اليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضـــروه الى بغداد ليتولى الخلافة)(١)

وكان قد هرب الى أرض البطيحة من الطائع حين كان يطلبه (ولمـا رجع الى بغداد منعته الديلم من الدخول اليها حتى يعطيهم رسم البيعة)(٢) [illegible] الامر بعد خطوب طويلة ، ورضي الله عنه بعد ذلك (ولما دخل بغـداد جلس في اليوم الثاني جلوسا عاما الى التهنئة وسماع المدائح والقصائد فيـــه .... ثم خلع على بهاء الدولة وفوض اليه ما وراء بابه وكان الخليفـــة القادر بالله من خيار الخلفاء وسادات العلماء في ذلك الزمان) (٣)

وفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (كانت وفاة القادر بالله وخلافة ابنه القائم بأمر الله) (٤)

ولكن مع الاسف ففي عهد القادر بالله لم يتغير من الحال شيء بـــل بقي الامر على ما هو عليه وازداد نفوذ وسيطرة البويهيين على الخليفة والخلافة وازداد أمر الخلافة ضعفا وفسادا .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ٨٠/٩ـ٨١

(٢) البداية النهاية لابن كثير ٣٣٠/١١

(٣) نفس المصدر ٣٣٠/١١

(٤) نفس المصدر ٣٣/١٢

* ملوك بني بويه الذين عاصرهم الامام الباقلاني :

لقد عاصر الامام الباقلاني دولة بني بويه منذ ولادته حتى وفاته وعاصر معظم ملوكهم تلك الدولة التى بدأت سنة ٣٣٤هـ - وانتهت سنة ٤٤٧هـ .

١- معز الدولة بن بويه وقد حكم (٣٣٤هـ - ٣٥٦هـ)

وهو معز الدولة أحمد بن الحسن بن بويه وقد (أقبل معز الدولة في جحافل عظيمة من الجيوش قاصدا بغداد فلما اقترب منها بعث اليه الخليفة المستكفي بالله الهدايا والانزالات وقال للرسول أخبره أنني مسرور به ..... ودخل معز الدولة بغداد في جمادي الاول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ودخل من الغد الى الخليفة فبايعه ودخل عليه المستكفي ولقبه بمعز الدولة) (١)

واستلم الحكم وسيطر عليه سنة ٣٣٤هـ وسيطر معز الدولة بني بويه على حكم العراق واستبد بتصريف الامور فيها ،ولم يكن للخليفة العباسي اى كيان وكان الحاكم الحقيقي هو معز الدولة البويهي (ولما كان ثالث عشر ربيع الاول منها - اى سنة ست وخمسين وثلاثمائة-توفي أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي بعلة الذرب (٢) فصار لا يثبت في معدته شئ بالكلية ،فلما احس بالموت أظهر التوبة وأناب الى الله عزّوجل) (٣)

ولما مات (دفن بباب التبن في مقابر قريش وجلس ابنه للعزاء)(٤)

٢- عضد الدولة بن بويه وقد حكم (٣٦٧هـ - ٣٧٢هـ)

هو أبو شجاع ركن الدولة أبو علي الحسين بن بويه الديلمي قال عنه ابن كثير (صاحب ملك بغداد وغيرها وهو أول من تسمى شاهنشاه ،ومعناه ملك الملوك ..... وهو أول من ضربت له الدبادب (٥) ببغداد وأول من خطب له مع الخليفة) (٦)

وبهذا فقد تولى مهام السلطة سنة ٣٦٨هـ وأستقر بذلك الامر لعضد الدولة الذي سيطر على الحكم وكان يدير الخليفة بين يديه كيف شاء ففي سنة ٣٦٨هـ أمر الطائع أن تضرب الدبادب على باب عضد الدولة في وقت الصبح

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٥/١١

(٢) الذرب : علة تصيب المعدة ويصحبها امساك شديد .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٩/١١

(٤) نفس المصدر ٢٧٩/١١

(٥) الطبول

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٩/١١

والمغرب والعشاء وأن يخطب له على منابر الحضرة وفي مقابل هذا دخل عضد الدولة على الطائع وقبّل الارض بين يديه وأعلن الطائع اسناد الامور كلها الى عضد الدولة فقال له : (قد رأيت أن أفوض اليك ما وكّل الله اليّ من أمور الرعية في شرق الارض وغربها ،وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي و اسبابي فقال عضد الدولة : يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته) (١)

وبعد أن تمكن عضد الدولة من ذلك واستقر في بغداد وأصبحت عاصمة الخلافة ايضا عاصمة لبني بويه أدركت المنية عضد الدولة فكانت وفاته سنة ٣٧٢هـ ثم آل الامر من بعده الي أولاده الثلاثة :-

١- صمصام الدولة

٢- شرف الدولة

٣- بهاء الدولة

٣- صمصام الدولة : وقد حكم من سنة (٣٧٢هـ - ٣٧٦هـ)

كان أول من تولى بعد عضد الدولة من ابنائه ابنه صمصام الدولة وهو أبو الكاليجار المرزبان الذى بايعه الامراء والقواد ولقبوه صمصام الدولة ولقبه الخليفة الطائع شمس الملة .

(وعقد له لواءان وحمل على فرس بمركب ذهب وقيد بين يديه مثله وقرئ عهد بتقليده الامور فيما بلغت الدولة العباسية من جميع الممالك ، وجددت له البيعة وأطلق رسومها وأقيمت الدعوة وغيرت السكة) (٢)

ويظهر أن العلاقة بين الخليفة الطائع وصمصام الدولة كانت تنطوى على شئ من المودة والصفاء على أن النزاع لم يلبث أن قام بين صمصام الدولة اكبر اخوته وشرف الدولة .

وانتهى هذا الخلاف بعد أن تمكن شرف الدولة من السيطرة على الديلم والتوحيد بينهم وبين الاتراك وتمّ اعتقال صمام الدولة وأرسل به أخاه الى فارس فاعتقل في احدى قلاعها بعد أن حكم في العراق أربع سنين تقريبا (٣) وتم بذلك السيطرة للاخ الاصغر شرف الدولة .

---

(١) ظهر الاسلام أحمد أمين ٥٢/١

(٢) تاريخ الاسلام السياسي د/ حسن ابراهيم حسن ٤٩/٣

(٣)أنظر تاريخ الاسلام السياسي د/ حسن ابراهيم حسن ٣ / ٤٩،٥٠

٤ ـ شرف الدولة : وقد حكم من سنة (٣٧٦هـ ـ ٣٧٩هـ)

وهو ابن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه الديلمي وهو ألاخ ألاصغر من صمصام الدولة تمكن من السيطرة على الحكم بعد طرد أخيه الى فارس ،(ولما أستقرت امارة شرف الدولة بن عضد الدولة في العراق قدم بغداد فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر ،وطوقه وسوره وكتب له عهدا وولاه ما وراء بابه ،وعقد له لوائين ولقبه شاهنشاه) (١)

ولكن حكمه لم يدم طويلا فقد (كانت وفاته ليلة الجمعة الثاني من جمادى الاخرة عن ثمان وعشرين سنة وخمسة أشهر) (٢)

٥ ـ بهاء الدولة وقد حكم من سنة (٣٧٩هـ ـ ٤٠٣هـ)

وهو ابن عضد الدولة الثالث الذي استولى على الامور بعد موت أخيه شرف الدولة وكان ذلك (بعد خمسة ايام من وفاة شرف الدولة ،ركب أبو نصر الى دار الخلافة ،فخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة ،وقرئ العهد بين يديه) (٣)

وقد كانت فترة حكمه أطول من أخويه صمصام الدولة الذي لم يحكم الا بضع سنين ،وشرف الدولة الذي لم يحكم سوى سنتين وبضع شهور ،ولكن الحال بقي على ما هو عليه من السيطرة على الخلفاء والاستبداد بالحكم .

توفي بهاء الدولة في الخامس من شهر جمادى الاخرة من سنة ٤٠٣هـ ـ في السنة التي توفي بها الامام الباقلاني عليه رحمة الله ـ (بعد ان حكم أربعا وعشرين سنة وتسعة أشهر وأيام وكان في الثانية والاربعين من عمره)(٤)

هذه لمحة موجزة عن خلفاء بني العباس الذين عاصرهم الامام الباقلاني وكذلك لمحة موجزة عن ملوك بني بويه الذين حكموا البلاد وأستبدوا بالسلطة في عصر هذا الامام .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي د/حسن ابراهيم حسن ٥٠/٣

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٨/١١

(٣) تاريخ الاسلام السياسي د/حسن ابراهيم حسن ٥١/٣

(٤) نفس المرجع ٥٦/٣

ومن خلال ما سبق ،يتبين لنا أن الامام الباقلاني قد عاش في عصر ضعف الخلافة الاسلامية حيث لم يعد لها سوى الاسم فقط منذ تولى المطيع لله و حتى نهاية خلافة القادر بالله وكان المسيطر والحاكم الحقيقي هو دولة بني بويه .

وقصارى القول:أن عصر الامام الباقلاني تميز بكثرة الدويلات الاسلامية المتناحرة ،وانعدام السلطة الفعلية للخلفاء وتفشي الفساد السياسي ،وكثرة القتل والنهب والسلب والفساد الامر الذى أقض مضاجع العلماء في ذلك العصر ومنهم الامام الباقلاني رحمه الله .

تلك هي الحالة السياسية في الفترة التي عاش فيها الباقلاني وقبيلها احداث وفتن واضطرابات وقلق ونهب وسلب ،وهذا يشكل اثرا كبيرا في حياة الامام الباقلاني رحمه الله .

المبحث الثاني

عصر الامام الباقلاني من الناحية الاجتماعية .

٢ - عصر الامام الباقلاني من الناحية الاجتماعية :-

لقد تبين لنا فيما سبق سوء وضعف الحالة السياسية فلم يكن للخلفاء سلطان ولا نفوذ بل كانوا صورة فقط وليس لهم من السلطة الا الاسم ومن هذا المنطلق نستطيع القول ان هذه الحالة السياسية السيئه قد انعكست على الحياة الاجتماعية ،فقد سيطر علي قلوب الناس الفزع والرعب ،وعاشوا حياة ملؤها الفوضى والفساد .

والحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجرى يمكن تصورها اذا تصورنا بيئة تلاقت فيها ثقافات شعوب مختلفة ،ذات حضارات وعادات وتقاليد متباينة ،ودخلت في حكم العرب كرها الامر الذى جعلها تثور وتبتز السلطة من ايدي أصحابها حتى صار للعرب الاسم ولغيرهم من الشعوب النفوذ والسلطان

اذا فقد تبين لنا ان هناك مجتمعا خليطا من جنسيات مختلفة تحكمها عادات وتقاليد متنوعة وليس الامر يقف عند هذا الحد بل نفس الجيش الذي يقوم بحراسة الثغور في الدولة ويتولى مهمة الدفاع عنها كان ايضا خليطا متفرق الكلمة متناحرا فيما بينه لانه لما انتقلت السلطة الى بني بويه بدأت المنافسة بين الاتراك والديلم الذين ينتسب البويهيون اليهم وبدأ البويهيون يستعينون بهؤلاء تارة وبأولئك تارة اخرى ،ومهما يكن من شئ فقد كان الجيش في عصر بني بويه خليطا يتألف من الديلم والترك والعرب والاكراد والمصريين وغيرهم من المرتزقة (١) .

هذا عن حالة الجيش ،اما عن حالة بقية المجتمع فلم يقف الحد على انهم خليط من اجناس وثقافات وعادات مختلفة ،ولكن كان بينهم انقسام آخر وهو الانقسام المذهبي لان المجتمع في القرن الرابع الهجري كان ينقسم الى مذاهب وأفكار شتى ،فقد كان التشيع هو المذهب القومي للديلم ومن ثمّ حاول بني بويه صبغ دولتهم بالطابع الشيعي ،وكان من جراء ذلك أن زاد نفوذ الشيعة مما أدى الى احتدام الصراع بينهم وبين أهل السنة ،فالمجتمع كان

---

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي د/ حسن ابراهيم حسن ٤٢٢/٣ ، ٤٢٣

منقسما الى أهل السنة والجماعة وفي المقابل الى شيعة ومعتزلة ...... الخ هذا كله أثّر كثيرا في الحياة الاجتماعية وكان له أسوء الاثر على الحياة العامة . وكان من آثار ذلك أن تعرض المجتمع الاسلامي الى التفكك والتنازع .

اما بالنسبة لطبقات المجتمع في معيشتهم فقد انقسم المجتمع ايضا الى طبقات ـ طبقة الخلفاء والامراء وأصحاب المناصب

ـ والطبقة الثانية طبقة عامة الشعب وهي الطبقة الفقيرة البائسة ،وكان نتيجة ذلك ترف لا حدّله في بيوت الخلفاء والامراء وذوي المناصب وفقر لا وصف له في طبقة عامة الشعب .

وهذا كله يعود لفساد النظام المالي في الدولة ،فعلى الرغم من الدخل الكبير الذى كان يدخل على الدولة من الخراج والضرائب التي كانت تجبى من الاقطار الشاسعة الا أن هناك فقرا لا يتصور وفي نفس الوقت ترفا فاحشا في قصور الامراء ،فقد كان النظام المالي فاسدا (وكان نظاما سيئا فنفقات البلاط قد بلغت حدا لا يطاق من الاسراف والبذخ وصنوف الترف) (١)

(والقضاء قد اختل بتدخل الحكام وانتشار الرشوة ،والجيش قد انقسم ـ كما مرّمعنا ـ الى شعب مختلفة من ترك وديلم ومغاربة وغيرهم وكل فرقة تتعصب لجيشها ،وتضمر العداء لغيرها) (٢)

وقد بدأ ايضا نظام الاقطاع لان البويهيين وعلى رأسهم معز الدولة بن بويه الذي أخذ يقطع قواده الاراضي والقرى عوضا عن المرتبات النقدية ، فقد كان لهذا النظام مساوئه الكثيرة ،وقد عجز عمال الخراج أن يحصلوا من القواد نظرا لنفوذهم وسطوتهم .

اذا فان انتشار الترف والبذخ في قصور الامراء وانتشار الفقر الشديد في باقي المجتمع كان نتيجة لفساد النظام المالي وسوء التوزيع .

ولنا مثال على ذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدي (٣) في كتاب

---

(١) ظهر الاسلام لاحمد أمين ١٢٠/١

(٢) نفس المصدر ١٢٠/١

(٣) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي أبو حيان فيلسوف متصوّف معتزلي ولد في شيراز ،اشتهر بالزندقة ،توفي في الري نحو سنة ٤٠٠هـ ،اشهر مصنفاته الامتاع والمؤانسة ،والبصائر والذخائر

أنظر الاعلام للزركلي ٣٢٦/٤

الامتاع والمؤانسة عن البذخ والترف الذي عاشت فيه قصور الخلفاء في ذلك العصر حيث يقول (ولو ذكرت هذا الاطراب من المستمعين ،والاغاني من الرجال والصبيان والحرائر ،لطال وأمل ،وزاحمت كل من صنف كتابا في الاغاني والالحان وعهدي بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة وقد احصينا - ونحن جماعة في الكرخ - أربعمائة وستين جارية في الجانبين ومائة وعشرون حرة ،وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ،هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه) (١)

ويصف بعضهم قصور الخلفاء في ذلك العصر فيقول : (وكانت قصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة أتساعها يشتمل على دور وبساتين ومسطحات تظللها الاشجار كما كانت تشمل على قاعات ذات قباب واروقة ويزيد في جمال هذه القصور البرك والانهار الجارية ،وقد رأينا أن الخليفة القادر كان يجلس في قصره المعروف ببيت الرصاص بين يديه نهر يجري الماء فيه الى دجلة) (٢)

وهكذا فقد كان تيار الترف شديدا جارفا (وقد أنشأ عضد الدولة البويهي بستانا بلغت النفقت عليه وعلى سوق الماء اليه خمسة آلاف الف درهم) (٣)

على أنه كان الى جانب هذا الترف والبذخ بؤس وفقر شديدين في طبقة المجتمع الكادحة وهي تكون السواد الاعظم من أبناء المجتمع في ذلك الوقت ويمكن أن نأخذ مثلا من ذلك ما وصل اليه حال أحد العلماء وهو شيخ أبي حيان التوحيدي الذي كان بحاجة ماسة الى رغيف (وحوله وقوته قد عجزا عن اجرة مسكنه ،وعن وجد غذائه وعشائه) (٤)

وليس هذا حال شيخ التوحيدي بل أمثاله كثيرون .

---

(١) الامتاع والمؤنسة للتوحيدي ١٨٣/٢

(٢) تاريخ الاسلام السياسي د/ حسن ابراهيم ٤٣٥/٣

(٣) ظهر الاسلام لأحمد أمين ١٠٣/١

(٤) الامتاع والمؤنسة للتوحيدي ٣١/١

وكل هذا عائد الى فساد النظام المالي كما بينا ذلك وقد أدى هذا الى اضطراب الشعب وكثرة ثوراته وكثرة السلب والنهب ٠

وبالجملة فالحياة المالية كانت مضطربة أشد الاضطراب مع سوء التوزيع والاختلاف الشديد بين درجتي الغنى والفقر ،فنتج عن ذلك عدم الطمأنينة وانتشار الفوضى والسرقة وكثرة اللصوص وعدم استتباب الامن فقد كان (التوازن الاجتماعي في هذا العصر مختلا في الناحية المالية فلا تقارب ،وما نجده من وصف الامعان في الحضارة والاسراف في الترف والتفنن في النعيم ،انما هو وصف فئة قليلة العدد وهي قد أسرفت في الترف على حساب امعان السواد الاعظم في البؤس) (١)

وأدى هذا أيضا الى انتشار الفساد والفوضى والانحلال الخلقي وانتشار الخمر ،قال المرحوم أحمد أمين يصف ذلك (وفي الناحية الخلقية انحلال بين الاغنياء ،وتكبر وتجبر من الساسة وأولي الامر ،وذلة وضعة في الفقراء البائسين) (٢)

فظهرت موجة من الانحلال الخلقي وانتشرت مجالس الشراب ووضعت لها القواعد والقوانين واعتاد الخلفاء والوزراء والامراء مجالس الشراب وبالغوا في الاسراف فيها (٣)

هذا عن الحالة الاجتماعية وقد تبين مدى الفساد الذي كانت فيه ،وهو نتيجة حتمية لسوء الحالة السياسية كما سبق ٠

---

(١) ظهر الاسلام لأحمد أمين ١٢٤/١

(٢) نفس المصدر ١٢٤/١

(٣) انظر نفس المصدر ١٠٤/١ ،١٠٥

المبحث الثالث

عصر الامام الباقلاني من الناحية العلمية .

٣ - عصر الامام الباقلاني من الناحية العلمية :-

ان من يطلع على الاحوال السياسية والاجتماعية في هذا العصر يبدو له ولاول نظره ان الاضطراب السياسي والاجتماعي الذى منيت به الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري يحمل معه اضطرابا في الحياة العلمية ،لكن الواقع كان غير ذلك ،فان استقلال الاطراف ،وقيام الدويلات قد خلق بيئات علمية جديدة بعد أن كانت بغداد تكاد تكون البيئة الوحيدة للحياة العلمية و الفكرية .

ومجمل القول أن القرن الرابع الهجري من القرون المليئة بالعلم والعلماء والتأليف والمؤلفين في شتى الفنون ،واذا كان ما وصل الينا مطبوعا أو مخطوطا من الثروة العلمية في هذا القرن قليلا فان ذلك لا يقدح فيما ذكرنا من ثرائه .

يقول أحمد أمين رحمه الله:(أرى أن العلم والادب رقيا عما كانا عليه قبل وأنه لم يؤثر فيهما ضعف خلفاء بغداد ،وذلك أن حركة الترجمة التي نقلت ذخائر الامم المختلفة وخصوصا الامة اليونانية وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللسان العربي فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه اليها الافكار العربية تفهمها وتشرحها وتهضمها وتبتكر فيها وتزيد عليها) (١)

فاننا نستطيع أن نقول أنه لم يعرف المسلمين عصرا كالقرن الرابع الهجري تناقضت فيه حياتهم أشد التناقض ،فسدت فيه الحياة السياسية والاجتماعية ولكن نهضت فيه الحياة العلمية والفكرية فكانت من أزهى عصور الثقافة ، ففيها عاش أئمة المحدثين وكبار المفسرين وأساطين الادباء ،ومشاهير الفلاسفة وأرباب الكلام .

وقد يسأل سائل فيقول كيف فسدت الحياة السياسية والاجتماعية وبالرغم من ذلك رقيت الحياة العلمية رقيا كبيرا ؟

أقول أنه لا ترابط بين سوء الحالة السياسية ورقي الحالة العلمية

---

(١) ظهر الاسلام لأحمد أمين ٩٤/١

(فقد تسوء الحالة السياسية الى حد ما وتزهر بجانبها الحياة العلمية ذلك لان الحياة السياسية انما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس ، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيرا من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحه أن يفروا من العمل السياسي الى العمل العلمي) (١)

وهذه الحالة تنطبق تماما على عصر الامام الباقلاني فان تردي الحالة السياسية الى الهاوية لم يؤثر على رقي ونهضة الحالة العلمية .

وفي هذا العصر بدأت ظاهرة جيدة وهي أن سلطان المعتزلة بدأ يخبوا في هذا العصر وبدأ يظهر سلطان أهل السنة والمحدثين .

وهذا ظهر حيث بدأ المتوكل ينهي الناس عن القول بخلق القرآن مخالفا في ذلك المأمون والمعتصم والواثق ،وبدأ انتصار مذهب أهل السنة وتوّج بظهور أبي الحسن الاشعري ،ذلك أنه لم يكد يمضي اثنا عشر عاما على موت المتوكل حتى ولد سنة (٢٦٠ هـ) ذلك الرجل الذى تربى في أحضان مذهب المعتزلة ،ثم رفض تعاليمهم في الاربعين من عمره بعد أن تعلم وتسلح بالاسلحة المنطقية وحاربهم بها ما بقي من عمره ،وحمل عليهم وعلى مصنفاتهم حملة كتب لها التوفيق والسداد (٢)

وكما خمدت أنفاس المعتزلة في هذا العصر فقد خمدت أنفاس الشيعه (فان المتوكل أمر عام ٢٢٦هـ بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل والدور ،وأن يبذر ويسقى موضع قبره ،وأن يمنع الناس من اتيانه) (٣)

ولا ريب أن كل ما تقدم من هذه الفرق والمذاهب نتج عنها الجدل بين أصحاب هذه المذاهب المختلفة ،فقد تبع ذلك أن كثرة المناظرات والمجادلات في مجالس الولاه والحكام ،وانتشر الجدل في هذا العصر انتشارا كبيرا .

وبعد هذا العرض فاننا نستطيع القول بأن عصر الامام الباقلاني من الناحية العلمية كان من أزهى عصور الاسلام ثقافة وعلما في شتى الفنون والمعارف .

---

(١) ظهر الاسلام لأحمد أمين ٩٦/١

(٢) أنظر تاريخ الاسلام السياسي د/ حسن ابراهيم حسن ٢١٨/٣

(٣) ظهر الاسلام لأحمد أمين ٤١/١

الفصل الثاني :- حياة الامام الباقلاني

وفيه مباحث :-

المبحث الاول :

١ - اسمه وكنيته

٢ - نسبه ونسبته

٣ - مولده ونشأته

٤ - وفاته

المبحث الثاني :

١ - شيوخه

٢ - تلاميذه

المبحث الثالث :

١- ثقافته ومكانته العلمية

٢ - اراء العلماء فيه

٣ - رحلاته ومناظراته

٤ - شخصيته وأخلاقه

المبحث الرابع :

١ - وظائفه وتوليه القضاء

٢ - مذهبه في الفروع الفقهية

المبحث الخامس :

١- مؤلفات الامام الباقلاني المطبوعة

٢- مؤلفات الامام الباقلاني المخطوطة

المبحث الاول

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
xxxxxxxxxxxxxxxxxx

١- اسمه وكنيته .

٢- نسبه ونسبته .

٣- مولده ونشأته .

٤- وفاته .

لم يحظ الامام الباقلاني بنصيب وافر عن حياته ونشأته وأسرته بين كتب المترجمين والمؤرخين بل كان حظه وحظ أسرته من هذه المصادر قليلا جدا .

ذلك أن أكثر كتب التاريخ والتراجم لم تذكر عنه الا نزرا يسيرا لاتيسر معرفة أسرته ونشأته - ولكنا مع ذلك - ان شاء الله سنحاول معرفة ذلك من خلال هذا النزر اليسير .

١ - اسمه وكنيته :-

هو محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم البصري ثم البغدادي القاضي وكنيته أبو بكر والمعروف بالباقلاني أو بابن الباقلاني (١)

فهو أبن الباقلاني ،ولكن جرت العادة من عهد بعيد باطلاق الباقلاني عليه واسقاط ابن ،والمشهور به هذه الايام بين أهل العلم بالباقلاني ،وليس بابن الباقلاني

---

(١) انظر تاريخ بغداد ١٤٤/٢
والديباج المذهب ص ٢٦٧
والانساب للسمعاني ٥١/٢
والمنتظم لابن الجوزى ٢٦٥/٧
والبداية والنهاية لابن كثير ٣٧٣/١٢
وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٩٠/١٧
ودول الاسلام للذهبي ١٨٨/١
والعبر في خبر من غبر للذهبي ٢٠٧/٢
وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٧٩/٣
والوافي بالوفيات ١٧٧/٣
وشجرة النور الزكية ص ٩٢
والفتح المبين في طبقات الاصوليين ٢٢١/١
وروضات الجنان ٣٤٣/٧
وغيرها مما وقفت عليه
والاعلام للزركلي ١٧٦/٦
وكنوز الاجداد ص ١٩٦
وترتيب المدارك ٤٤/٧
وهداية العارفين ٥٩/٦
وتبين كذب المفترى ص ٢١٧
ووفيات الاعيان ٢٦٩/٤
والنجوم الزاهرة ٢٣٤/٤
وشذرات الذهب ١٦٨/٣
ومرآة الجنان ٦/٣
والكامل لابن الاثير ٢٤٢/٩
واللباب لابن الاثير ١١٢/١
ومعجم المؤلفين ١٠٩/١٠
والمختصر في أخبار البشر ١٤٤/٢

٢ - نسبه ونسبته :-

لم يحدثنا أحد ممن ترجم للامام الباقلاني عن نسبه ،فالكل متفق على اسمه محمد واسم ابيه الطيب (ويبدو أنه كان من عامة الشعب فلم يذكر عنه الا أنه الطيب الباقلاني) (١) واسم جده محمد بن جعفر والقليل من المؤرخين يذكر جعفر بن القاسم .

كما لقب بالبصري لانه ولد بالبصرة على اصح الاقوال ثم رحل منها وأقام ببغداد ،ولم يحدثنا أحد ممن ترجم له متى انتقل الى بغداد ومتى اتخذها دارا لاقامته .

أما نسبته : فالمتفق عليه عند أكثر المؤرخين أنه الباقلاني أو ابن الباقلاني (بفتح الباء الموحدة وبعد الالف قاف مكسورة ثم لام الف وبعدها نون وهذه النسبة الى الباقلي (٢) وبيعه) (٣)
والمشهور بهذه النسبة القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني (والباقلى فيه لغتان :-

- من شدد اللام قصر الالف ،ومن خففها مد الالف فقال باقلاء وهذه النسبة شاذة لاجل زيادة النون فيها وهو نظير قولهم في النسبة الى صنعاء (٤) صنعاني وبهراء (٥) بهراني) (٦)

---

(١) الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن الدكتور عبد الرؤوف مخلوف ص ٧٣ - ٧٤

(٢) الباقلى : ويخفف والباقلاء : مخففة ممدودة الفول الواحدة بهاء أو الواحد والجميع سواء انظر القاموس المحيط ج ٣/٣٣٦

(٣) الانساب للسمعاني ٥١/٢

وانظر اللباب في تهذيب الانساب لابن الاثير ١١٢/١

ووفيات الاعيان للصفدى ٢٧٠/٤

وروضات الجنان ٣٤٤/٧

(٤) صنعاء :- مدينة باليمن معروفة أنظر معجم ما أستعجم ٨٤٣/٢

(٥) بهراء :- لم أجدها في معجم البلدان لياقوت الحموى باب الباء والها ٥١٤/١ ولا في معجم ما أستعجم للبكرى ٢٨١/١

(٦) وفيات الاعيان ٢٧٠/٤ وانظر روضات الجنان ٣٤٤/٧

وقد أنكر أبو محمد الحريرى (١) هذه النسبة حيث قال : (فأما المنسوب الى الباقلى - فمن قصره قال في النسب اليه باقلى لان المقصور اذا تجاوز الرباعي حذفت الفه في النسب .

- ومن مد الباقلاء جاز في النسب اليه باقلاوى وباقلائي كما ينسب الى حرباء حرباوى وحربائي ،وأما قولهم في النسب الى صنعاء وبهراء ودستواء صنعاني وبهراني ودستواني ،فهو من شواذ النسب والشاذ لا يعاج اليه ولا تحمل نظائره عليه) (٢)

وقد رأيت أن معظم المؤرخين قد أخذ باللغة الاولى وهي القصر فقالوا : الباقلاني نسبة الى الباقلى ،غير أن ابن الجوزى (٣) قال في المنتظم عند ترجمته للامام الباقلاني (محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر الباقلاوى) (٤)

وبهذا يكون قد أخذ باللغة الثانية وهي المد .

---

(١) هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريرى نسبة الى عمل الحرير وبيعه البصري صاحب المقامات ،كان اماما في البلاغة والفصاحة و رشاقة الالفاظ ،ولد سنة ٤٠٦ هـ وكانت وفاته سنة ٥١٥ هـ
من أشهر مصنفاته المقامات وشرحها ،ودرة الغواص في أوهام الخواص
انظر ترجمته في الاعلام للزركلي ١٧٧/٥
واشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين ص ٢٦٣
وشذرات الذهب ٥٠/٤ -٥٣
وكنوز الاجداد ٢٦٩ - ٢٧٠

(٢) درة الغواص في أوهام الخواص لابي محمد الحريرى ص ٨٤

(٣) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج محدث ومؤرخ ومفسر ،متضلع في الفنون،كثير التصانيف ،برز في علوم كثيرة توفي ببغداد سنة ٥٩٧ هـ
من مصنفاته زاد المسير في علم التفسير ،والمنتظم في تاريخ الملوك والامم وغريب الحديث وغير ذلك
انظر البداية والنهاية لابن كثير ٣١/١٣ والاعلام للزركلي ٣١٦/٣

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والامم لابن الفرج بن الجوزى ٢٦٥/٧

ومن النوادر الطريفة حول نسبة الباقلاني ما نقله القاضي عياض (١) في ترتيب المدارك حيث قال : (وسمعت بعض الشيوخ يحكي أن أبن المعلم (٢) تكلم معه يوما فلما احتد الكلام بينهما ، رماه ابن المعلم بباقلاء أعده له - يعرض له بما نسب اليه ليخجله بذلك ويحصره - فرد القاضي للحين يده الى كمه ، ورماه بدرة أعدها له فعجب من فطنته واعداده للامور أشباههـا قبل وقتها) (٣)

وفي هذا دلالة واضحة على فطنة الامام الباقلاني وذكائه .

أما أولاده : فتذكر المراجع منهم الحسن ، ففي تاريخ بغداد أنه لما مات أبو بكر (صلى عليه ابنه الحسن) (٤) ولم نقف على ابناء لابي بكر غير هذا .

---

(١) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي أبو الفضل عالم المغرب، وامام أهل الحديث في وقته ، عالم بكلام العرب وانسابهم ، ولي القضاء في غرناطة وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ

من أشهر مصنفاته الشفا بتعريف حقوق المصطفى،وترتيب المدارك ،ومشارق الانوار

انظر مفتاح السعادة لطاش كبرى ١٤٩/٢ والاعلام للزركلي ٩٩/٥

(٢) هو محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام العكبري أبو عبد اللـه المفيد ، يعرف بابن المعلم ، محقق أمامي انتهت اليه رئاسة الشيعة في وقته ، توفي ببغداد سنة ٤١٣ هـ

من مصنفاته نقض فضيلة المعتزلة ، والارشاد ، والزهراء ، والائمة

انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٣٠/٤ وشذرات الذهب ١٩٩/٣

والاعلام للزركلي ٢١/٧ والعبر للذهبي ٢٢٥/٢

(٣) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٥١/٧

(٤) تاريخ بغداد ٣٨٢/٥

٣ ـ مولده ونشأته :ـ

لم يتفق المؤرخون على تاريخ مولد الامام الباقلاني ، ولا مكان ولادته ، الا ثمة بعض الكتاب المحدثين من عين تاريخ مولده .

وقد عين الزركلي (١) تاريخ مولده (بسنة ٣٣٨ هـ ـ ٩٥٠ م) (٢)

ولا أعلم على أى دليل استند في ذلك ، على أن معظم المؤرخين قريبي العهد بالامام الباقلاني كالخطيب البغدادي (٣) في تاريخ بغداد والقاضي عياض في ترتيب المدارك لم يذكروا سنة ولادته .

ويرجح الاستاذ فؤاد سزكين أنه ولد (في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى) (٤)

ومن المعلوم أن عضد الدولة قد أستقدم الباقلاني الى شيراز في سن الشباب فاذا قدرنا أن الشباب يكون بين العشرين والثلاثين وعضد الدولة قد حكم من (٣٦٥ ـ ٣٧٢ هـ) أمكن أن نقدر أن ولادة أبي بكر كانت في العقد

---

(١) هو خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي ولد ليلة ٩ ذي الحجة ١٣١٠ هـ في بيروت ونشأ بدمشق ،مؤلف وأديب معاصر ،كثير الرحلات والتنقل ،وتقلد عدة مناصب توفي في الثالث من ذي الحجة سنة ١٣٩٦هـ من أهم مصنفاته كتاب الاعلام ، وشبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز
انظر ترجمته في نهاية كتاب الاعلام له ٢٦٧/٨ ـ ٢٧٠

(٢) الاعلام للزركلي ١٧٦/٦ وقد تابعه في ذلك عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ١٠٩/١٠

(٣) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادى المعروف بالخطيب ، أحد الحفاظ المؤرخين ، كان فصيح اللهجة عارفا بالادب كثير الرحلات ،من مؤلفاته تاريخ بغداد ، والكفاية في علم الرواية ، والجامع لاداب الراوى وأخلاق السامع
انظر طبقات الشافعية للسبكي ٢٩/٤
والاعلام للزركلي ١٧٢/١
والنجوم الزاهرة ٨٧/٥

(٤) تاريخ التراث العربي فؤاد سزكين ٣٨٤/٢

الرابع من القرن الرابع الهجري على أساس أنه استدعي في حوالي منتصف عمر الشباب (٢٥) سنة) (١)

ولعلّ هذا هو الذي جعل محققي التمهيد يقولان : (لم يذكر أحد ممن ترجم له متى ولد ، ولا أين ولد ، غير أن نسبته للبصرة عند الجميع ترجح أنه بصري المولد والاسرة والنشأة الاولى ، ولعله قد ولد في الربع الثاني من القرن الرابع الهجري كما يمكن أن يأخذ من الحكايات التي سيأتي ذكرها عن علاقة الباقلاني بالسلطان عضد الدولة) (٢)

وهذا هو الراجح لثبوت علاقته بعضد الدولة البويهي الذي كان يعيش في هذه الفترة فيمكن لنا القول بأنه ولد في الربع الثاني من القرن الرابع الهجري والله تعالى أعلم (٣)

وأما بالنسبة لمكان مولده فالراجح على أصح الاقوال أنه بصري المولد والنشأة الاولى ثم رحل بعدها ونزل بغداد ، يقول الخطيب البغدادي بعد ذكر اسمه وكنيته (من أهل البصرة وسكن بغداد وسمع بها الحديث من أبي بكر بن مالك القطيعي) (٤)

ولا يكون من أهل البصرة الا وفيها ميلاده وأسرته ، أما انه سكن بغداد فالمراد به والله أعلم أنه سكنها أثناء تلقي العلم والتحصيل .

وهكذا يكون الباقلاني ولد ونشأ في البصرة فلما بلغ التلقي والتحصيل رحل ونزل بغداد ، وبعدها رجع الى البصرة ومنها استدعاه عضد الدولة الى شيراز ،فتكون البصرة وبغداد وشيراز محط رحاله على مدى عمره باستثناء بعض الرحلات .

---

(١) الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن الدكتور عبد الرؤوف مخلوف ص ٧٣

(٢) التمهيد تحقيق د/ الخضيري ود/ أبو ريدة ص ٢

(٣) ومن المعلوم أنه بالنسبة للتراجم من الصعب معرفة تاريخ الولادة بخلاف تاريخ الوفاة .

(٤) تاريخ بغداد ٣٧٩/٥

٤ ـ وفاته :ـ

يكاد يتفق كل من ترجم للامام الباقلاني على سنة وفاته ،فقد ذهب معظم المؤرخين الى أن وفاته (كانت سنة ثلاث وأربعمائة) (١) من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام الموافق ٦ يونية ١٠١٣ م .

غير أن القاضي عياض قال بعد أن نقل ما حكاه الخطيب :ـ (ووجدت عن غيره سنة أربع ، أيام بهاء الدوله ، والخليفة القادر بالله وهذا خطأ والاول هو الصحيح) (٢)

يتبين لنا بعد هذا أن وفاة الامام الباقلاني باتفاق المؤرخين كانت سنة ثلاث وأربعمائة .

واتفقوا أيضا على أنه توفي في شهر ذي القعدة مع خلاف بسيط في تاريخ اليوم الذي توفي فيه فقال الخطيب : (مات القاضي أبو بكر محمد بن الطيب في يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة) (٣)وقال القاضي عياض : (توفي أبو بكر يوم السبت لتسع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة) (٤)

قال ابن خلكان (٥) : (توفي القاضي أبو بكر يوم السبت ودفن يوم الاحد لسبع

---

(١) انظر تاريخ بغداد ٣٨٢/٥
والكامل لابن الاثير ٢٤٢/٩
والبداية والنهاية ٣٧٤/١٢
ووفيات الاعيان ٢٦٩/٤ـ٢٧٠
والمنتظم لابن الجوزي ٢٦٥/٧
وترتيب المدارك ٤٩/٧
وسير أعلام النبلاء ١٩٣/١٧
والنجوم الزاهرة ٢٣٤/٤
ومرآة الجنان ٨/٣
واللباب في تهذيب الانساب ١١٢/١

(٢) ترتيب المدارك ٤٩/٧

(٣) تاريخ بغداد ٣٨٢/٥

(٤) ترتيب المدارك ٤٩/٧

(٥) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي قاضي قضاة دمشق ، المؤرخ الحجة تولى التدريس ومهمات كثيرة ،ولد سنة ٦٠٨ هـ وتوفي في دمشق سنة ٦٨١هـ ، من أشهر مصنفاته وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان

انظر النجوم الزاهرة ٣٥٣/٧
والاعلام للزركلي ٢٢٠/١

بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد) (٢)

وهكذا نرى الخلاف واضحا في تعيين تاريخ اليوم الذي توفي فيه مع اتفاقهم على الشهر وهو ذو القعدة والسنة وهي ثلاث وأربعمائة هجرية والله أعلم بالصواب .

وقد صلى عليه ابنه الحسن ، واخترمته المنية بعد أبيه (ودفن القاضي في داره بدرب المجوس من نهر طابق ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب) (٢) (وهي مقبرة خارج مدينة بغداد وراء الخندق مما يلي قطربل معروفة بأهل الصلاح والخير وفيها قبر الامام أحمد بن حنبل) (٣)

قال الخطيب : (وينسب باب حرب الى حرب بن عبد الله أحد أصحاب أبي جعفر المنصور ، واليه تنسب المحلة المعروفة بالحربية) (٤)

وحكى ابن عساكر (٥) (أنه دفن بقرب قبر الامام ابي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه ونقش على علم عند رأس تربته .... هذا قبر الامام السعيد فخر الامة ولسان الملة وسيف السنة عماد الدين ناصر الاسلام أبي بكر محمد بن الطيب البصري قدس الله روحه وألحقه بنبيه

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٦٩/٤ _ ٢٧٠

(٢) تاريخ بغداد ٣٨٢/٥

(٣) الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن د/ عبد الرؤوف مخلوف ص ١١٠

(٤) تاريخ بغداد ١٢١/١

(٥) هو الحافظ أبو قاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر الدمشقي الملقب بثقة الدين ، محدث الشام في وقته ، غلب عليه علم الحديث واشتهر به ورحل فيه الى بلاد كثيرة ، ولد في محرم سنة ٤٩٩ هـ وتوفي بدمشق في رجب سنة ٥٧١ هـ ، من أشهر مصنفاته التاريخ الكبير لدمشق ،وتبيين كذب المفتري وغير ذلك

انظر التاج المكلل لصديق خان ٨٤_٨٥

والعبر للذهبي ٦٠/٣

وشذرات الذهب ٢٣٩/٤

محمد صلوات الله عليه وسلامه) (١)

قال الامام الذهبي (٢) يصف جنازته (وكانت جنازته مشهورة وكان سيفا على المعتزلة والرافضة والمشبهة وغالب قواعده على السنة) (٣)

وما سر أهل البدع بشيء مثل سرورهم بموته - رحمه الله - (ولما توفي حضر شيخ الحنابلة أبو الفضل التميمي (٤) حافيا مع اخوته وأصحابه وأمر أن ينادى بين يدي جنازته هذا ناصر السنة والدين هذا امام المسلمين هذا الذي كان يذب عن الشريعة السنة المخالفين هذا الذي صنف سبعين ألف ورقة ردا على الملحدين ، وقعد للعزاء مع أصحابه ثلاثة أيام فلم يبرح ، وكان يزور تربته كل يوم جمعة في الدار) (٥)

---

(١) تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٢٣

(٢) الامام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان التركماني الذهبي محدث العصر ، ومؤرخ الاسلام ولد في سنة ٦٧٣ هـ له التصانيف الكثيرة المشتهرة التي سار بذكرها الركبان ، واختصر كثيرا من تواليف المتقدمين والمتأخرين ، توفي سنة ٧٤٨ هـ ، من مصنفاته التاريخ الكبير ، والاوسط وهو العبر،والصغير المسمى دول الاسلام ، وسير أعلام النبلاء ، والكاشف ، وطبقات الحفاظ ، والميزان في الضعفاء ، والمغني في الضعفاء

انظر طبقات الشافعية للسبكي ١٠٠/٩

وذيل العبر ١٤٨/٤

والبداية والنهاية ٢٣٦/١٤

وشذرات الذهب ١٥٣/٦

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩٣/١٧

(٤) عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد ، أبو الفضل التميمي أملى الحديث بجامع المنصور ، وحدث عن أبي بكر النجار وأحمد بن كامل وآخرين ، وكانت له حلقة في جامع المدينة للوعظ والفتوى توفي سنة ٤١٠ هـ ودفن بين قبر الامام أحمد وقبر أبيه

انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي ١٧٩/٢

والمنهج الأحمد في تراجم أحمد للعليمي ١٠٢/٢

(٥) تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٢١

ولما توفي رثاه بعضهم في هذين البيتين :-

انظر الى جبل تمشي الرجال به ×××× وانظر الى القبر ما يحوي من الطلف

وانظر الى صارم الاسلام منغمدا ×××× وانظر الى درة الاسلام في الصدف (١)

قال اليافعي (٢) (لقد ضمن هذين البيتين مدحا عظيما يليق بالامام المذكور ويناسب حاله المشهور ، لكن لو أبدل لفظتين من بيته كان أحسن وأنسب فيما أرى :

أحداهما : قوله ما يحوى من الطلف لو قال من الشرف

والثانية : قوله درة الاسلام لو قال درة التوحيد

لتغاير بين اللفظتين فانه قد قال في هذا البيت صارم الاسلام والتوحيد وان كان الاسلام داخلا فيه ، فالمغايرة بين الالفاظ وان اتحد معانيها أحسن وأبعد من كراهة التكرير) (٣)

---

(١) يذكر جميع من ترجم للامام الباقلاني هذين البيتين في رثائه ولم أعثر على قائلهما

(٢) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي صوفي ، شاعر ، له باع في الفقه والعربية والاصلين واللغة والفرائض ،توفي سنة ٧٦٨ هـ بمكة وهو مجاور بها ، من أهم مصنفاته مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، ونزهة العيون النواظر ، والارشاد والتطريز

انظر النجوم الزاهرة ٩٣/١١

وشذرات الذهب ٢٢٠/٦

ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٤/٦

(٣) مرآة الجنان لليافعي ٩/٣

xxxx المبحث الثاني xxxx

أولا : شيوخه

ثانيا : تلاميذه

أولا : شيوخه :-

كان القرن الرابع الهجري - كما ذكرنا - عصر نهضة علمية واسعة في شتى الفنون والمجالات ، في اللغة والفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام ، مما فسح المجال للامام الباقلاني أن يتتلمذ على عدد كبير من علماء ذلك العصر ، نذكر منهم على سبيل المثال :-

١- ابن مجاهد : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي المتكلم ، صاحب أبي الحسن الاشعري ، الفقيه الاصولي العالم النظار ، وهو من أهل البصرة ، وسكن بغداد ، وعليه درّس القاضي محمد بن الطيب الباقلاني ، قال عنه السبكي : (شيخ القاضي أبي بكر الباقلاني) (١)

وله كتب حسان في الاصول منها كتاب أصول الفقه على مذهب الامام مالك ، ورسالته المشهورة في الاعتقادات على مذهب أهل السنة والجماعة ، وكتاب هداية المستبصر وغير ذلك ، وكان دينا خيرا ، توفي سنة ٣٧٠هـ (٢) .

قال ابن العماد : (وقد كانت له بجامع المنصور حلقة عظيمة)(٣) وقد أخذ عنه الامام الباقلاني الاصول والكلام .

٢- أبو بكر الابهري : أبوبكر محمد بن عبد الله بن محمد التميمي الابهري شيخ المالكية العراقيين ، الفقيه المقرئ ، الصالح ، الحافظ اليه انتهت الرئاسة ببغداد ، سمع من ابن أبي عمروية والباغندي وأبي بكر بن أبي داود وغيرهم ، وحدث عنه جماعة منهم ابراهيم ابن مخلد وأبوالقاسم الوهراني والدارقطني وأبو بكر الباقلاني .

وخرج عنه جماعة من الائمة كأبي جعفر الابهري وابن الجلاب والقاضي ابن القصار وغيرهم ، وسئل أن يلي القضاء فامتنع .

وله التصانيف المهمة منها : شرح المختصر الكبير والصغير لابن عبد الحكيم وكتاب الاصول ، وكتاب اجماع أهل المدينة ، وكتاب الامالي وغير ذلك .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣٦٨/٣

(٢) انظر تاريخ بغداد ٣٤٣/١ والعبر للذهبي ١٣٦/٢ وشذرات الذهب ٧٤/٣ وشجرة النور الزكية ص ٩٢

(٣) شذرات الذهب ١٦٩/٣

وكان مولده قبل التسعين ومئتين هجرية أي حوالي ٢٨٩هـ ، وتوفي في شوال سنة ٣٧٥هـ أونحوها (١)

ومما يروى عنه أنه أخرج في آخر حياته ثلاث الاف مثقال وفرقها على تلامذته وكانو جماعة وافرة ، وآثر الباقلاني فأعطاه منها مائة مثقال (٢) ، وأخذ عنه الامام الباقلاني الفقه .

٣ـ القطيعي : أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك بن شبيب بن عبد الله أبو بكر القطيعي ، كان يسكن قطيعة الدقيق واليها نسب ، ولقبه البغدادي بالناقد ، وكان ثقة كثير الحديث ، روى عن عبد الله بن أحمد المسند ، والزهد والتاريخ والمسائل وغير ذلك ، وحدث عنه الدارقطني وابن شاهين ، والبرقاني وأبو نعيم والحاكم ، والبزار وجماعة كثيرة .

ولد يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة ٢٧٤ هـ ، وتوفي في سنة ٣٦٨هـ ودفن في مقبرة باب حرب قرب قبر الامام أحمد بن حنبل ، وعمره خمس وتسعون سنة (٣) ، وقد أخذ عنه الامام الباقلاني الحديث (٤)

٤ـ أبو الحسن الباهلي : البصري صاحب أبي الحسن الاشعري ، وهو

---

(١) انظر تاريخ بغداد ٤٦٢/٥ـ٤٦٣
والبداية والنهاية ٣٢٥/١١
والعبر للذهبي ١٤٦/٢
وشجرة النور الزكية ص ٩١
والفتح المبين في طبقات الاصوليين للمراغي ٢٢١/١

(٢) انظر تاريخ بغداد ٤٦٢/٥ـ٤٦٣
وشجرة النور الزكية ص ٩١

(٣) انظر تاريخ بغداد للخطيب ٧٣/٤ـ٧٤
والبداية والنهاية ٣١٢/١١
والعبر للذهبي ١٢٨/٢
وشذرات الذهب ٦٥/٣

(٤) انظر تاريخ بغداد ٣٧٩/٥
وسير أعلام النبلاء ١٩٠/١٧
والمنتظم لابن الجوزي ٢٦٥/٧
وشذرات الذهب ١٦٨/٣

الرجل الصالح أستاذ أبي اسحاق الاسفرايينى (١)، وابن فورك (٢) ،والباقلاني أيضا ، قال عنه القاضي أبو بكر الباقلاني : (كنت أنا والاستاذ أبو اسحاق الاسفرايينى والاستاذ ابن فورك معا في درس الشيخ الباهلي ، وكان يدرس لنا في كل جمعة مرة واحدة ، وكان منا في حجاب يرخي الستر بيننا وبينه كي لا نراه ، وكان من شدة اشتغاله بالله تعالى مثل واله أو مجنون لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره ذلك) (٣)

وكان رحمه الله يحتجب عن جميع الناس ، وقد سئل عن ذلك فقال : انكم ترون السوقة ، وهم أهل الغفلة ، فتروني بالعين التي ترون اولئك بها (٤)

هـ- ابن ماسي : أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن أيوب بن ماسي البزار ، قال عنه البرقاني وغيره ثقة ثبت ، روى عن أبي مسلم الكجي وطائفة ، توفي في بغداد شهر رجب سنة ٣٦٩ هـ وعمره خمسا وتسعين سنة (٥)

---

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران الاسفرايينى الاصولي المتكلم الشافعي أحد الاعلام وصاحب التصانيف ، وكان شيخ خراسان في زمانه توفي يوم عاشوراء وقد نيف على الثمانين سنة ٤١٨ هـ ، من مصنفاته كتاب الجامع في أصول الدين ورسالة في أصول الفقه وغير ذلك .

انظر العبر للذهبي ٢٣٤/٢ وشذرات الذهب ٢٠٩/٣

ومرآة الجنان ٣٠/٣ والاعلام للزركلي ٦١/١

(٢) الامام المتكلم ، أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الاصبهاني ، صاحب التصانيف في الاصول ، توسع في الادب والكلام والوعظ والنحو مصنفاته قريب من مائة مصنف منها مشكل الحديث ، والمجرد في مقالات أبي الحسن الاشعري وغير ذلك ، توفي في نيسابور ودفن بها سنة ٤٠٦ هـ

انظر العبر للذهبي ٢١٣/٢ وطبقات الشافعية للسبكي ١٢٧/٤ وشذرات الذهب ١٨١/٣

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي تحقيق الطناحي والحلو ٣٦٩/٣

وانظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٧٨

(٤) انظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٧٨

(٥) انظر البداية والنهاية ٣١٦/١١ والعبر للذهبي ١٣١/٢ وشذرات الذهب ٦٨/٣

وأخذ عنه الباقلاني الحديث (١)

٦- أبو عبد الله الشيرازي : محمد بن خفيف الزاهد أحد مشاهير الصوفية ، وشيخ اقليم فارس ، وصاحب الاحوال والمقامات ، روى عن حماد بن مدرك وجماعة ، وكان متمسكاً بالكتاب والسنة ، وفقيه على مذهب الشافعي، وكان ذا جنب لا يعرف القرار ، ونفس لا تعرف المأوى الا البيداء ولا سكن الا القفار ، وكان من أولاد الامراء فتزهد حتى قال : كنت أذهب وأجمع الخرق من المزابل وأغسلها وأصلح منها ما ألبسه ، روى عنه القاضي أبو بكر الباقلاني وغيره ، وكان قد رحل الى الشيخ أبي الحسن الاشعري ، وأخذ عنه وهو من أعيان تلامذته ، وصنف من الكتب ما لم يصنفه أحد (٢)

وقد أخذ عنه الامام الباقلاني علم الاصول (٣)

٧- أبو أحمد النيسابوري : الحسين بن علي بن محمد بن يحيى التميمي النيسابوري المعروف بحسنيك ، روى عن ابن خزيمة والسراج ، وعمر بن أبي غيلان والكبار ومنهم الحاكم ، والبرقاني ، وكان ثقة حجة ، محتشما قال الحاكم : صحبته حضرا وسفرا نحو ثلاثين سنة ، فما رأيته ترك قيام الليل وكان من أكثر الناس عبادة وقراءة للقرآن ، وأخذ عنه الامام الباقلاني الحديث (٤)

٨- الحسن العسكري : أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري نسبة الى عسكر مدينة من كور الاهواز ، أديب وهو أحد الائمة في اللغة والأدب والنحو والنوادر ، روى عن عبدان الاهوازي وأبي القسم البغوي وطبقتهما ، له التصانيف المفيدة منها كتاب التصحيف وكتاب المختلف والمؤتلف وكتاب علم المنطق ، وكتاب الحكم والامثال ، وكتاب الزواجر وغير ذلك توفي فيها وله تسعون سنة ، سنة ٣٨٢هـ ، وقد أخذ عنه الباقلاني مسائل في النقد والبلاغة (٥)

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩٠/١٧ والمنتظم لابن الجوزي ٢٦٥/٧

(٢) انظر البداية والنهاية ٣١٩/١١ والعبر للذهبي ١٣٨/٢ وشذرات الذهب ٧٦/٣

(٣) انظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٩٠

(٤) انظر البداية والنهاية ٣٢٤/١١ والعبر للذهبي ١٤٤/٢ وشذرات الذهب ٨٤/٣

(٥) انظر البداية والنهاية ٣٣٢/١١ والعبر للذهبي ١٦١/٢ وشذرات الذهب ١٠٢/٣

٩ـ أبو الحسين بن سمعون : محمد بن أحمد بن اسماعيل البغدادي أبو الحسين ، الامام القدوة الناطق بالحكمة ، الواعظ ، أحد الصلحاء والعلماء ، روى عن أبي بكر بن أبي داود وطبقته ، وكان له يد طولى في الوعظ ، ولد سنة ٣٠٠ هـ وتوفي يوم الخميس رابع عشر ذي القعدة سنة ٣٨٧هـ ودفن بداره في شارع العباس ثم نقل ودفن في مقبرة باب حرب (١)

يروي ابن عساكر أن الباقلاني والاسفراييني كانا يأتيانه فيقبلان يده وكان الباقلاني يقول : ربما خفي عليّ من كلامه شيء لدقته (٢)

١٠ـ ابن بهته : محمد بن عمر البزاز المتوفي سنة ٣٧٤هـ (٣)

١١ـ أبو محمد القيرواني : عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفري القيرواني أبو محمد الفقيه المنظار الحافظ الحجة ، امام المالكية في وقته ، حاز رياسة الدين والدنيا ، ورحل اليه من الاقطار ، وكثر الآخذون عنه ، وهو الذي لخص المذهب ، وكان يسمى مالكا الصغير ، وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية كتبه تشهد له بذلك ، فصيح يقول الشعر ويجيده مع صلاح وورع وعفة ، تفقه على ابن اللباد وأبي الفضل المميسي ، من مصنفاته مختصر المدونة ، وكتاب الذب عن مذهب مالك ، وكتاب الرسالة مشهور بين أهل العلم وغير ذلك ، وكل تآليفه مفيدة بديعة ، توفي سنة ٣٨٦هـ ودفن بداره في القيروان (٤) ، وأخذ عنه الامام الباقلاني الفقه (٥)

وغير هؤلاء كثير من علماء المسلمين في ذلك العصر .

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣٤٥/١١ والعبر للذهبي ١٧٢/٢ وشذرات الذهب ١٢٤/٣

(٢) انظر تبيين كذب المفتري ص ٢٠٠ـ٢٠١

(٣) انظر مقدمة اعجاز القرآن للسيد أحمد صقر ص ١٨

(٤) انظر العبر للذهبي ١٧٧/٢ وشذرات الذهب ١٣١/٣
وشجرة النور الزكية مخلوف ص ٩٦

(٥) انظر شجرة النور الزكية ص ٩٢

ثانيا : تـلاميـذه :-

وقد تتلمذ على الامام الباقلاني كثيرون بحيث لا يمكن حصرهم والوقوف عليهم وانتشر أكثرهم في الافاق ، وأكثرهم بالعراق وخراسان ونذكر منهم :

١- أبو ذر الهروي :عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الانصاري ،الحافظ الثقة ، الفقيه المالكي ، سمع الكثير ورحل الى الاقاليم وسكن مكة وكان يحج كل سنة ويقيم بمكة أيام المواسم ويسمع الناس ، وعنه أخذ المغاربة مذهب الاشعري ، وعاش ثمانيا وسبعين سنة وكان ثقة متقنا دينا عابدا ورعا بصيرا بالفقه والاصول ، أخذ علم الكلام عن ابن الباقلاني وصنف مستخرجا على الصحيحين ، وكان شيخ الحرم في عصره (١)

وقد قيل له : (من أين تمذهبت بمذهب مالك ورأي الاشعري مع انك هروي فقال : قدمت بغداد وكنت ماشيا مع الدارقطني فلقينا أبا بكر بن الطيب فلزمه الدارقطني بعد ما قبل وجهه وعينه ، فلما افترقا قلت من هذا قال: هذا امام المسلمين والذاب عن الدين القاضي أبو بكر الطيب ، فمن ذلك الوقت ترددت عليه وتمذهبت بمذهبه) (٢)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية (٣) بعد أن نقل كلام شيخ الاسلام أبي اسماعيل الانصاري(٤)

---

(١) انظر البداية والنهاية ٥٤/١٢ والعبر للذهبي ٢٦٩/٢ وشذرات الذهب ٢٥٤/٣

(٢) شجرة النور الزكية لمخلوف ص ٩٢-٩٣

(٣) شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني الدمشقي ، ولد سنة ٦٦١هـ بحران وبرع في التفسير والحديث والاطين أصول الدين وأصول الفقه ، كان يتوقد ذكاءً ، ومصنفاته أكثر من مائتي مجلد وكان رأسا في الكرم والشجاعة ، توفي بدمشق سنة ٧٢٨هـ

انظر البداية والنهاية ١٤١/١٤ والعبر للذهبي ٨٤/٤ وشذرات الذهب ٨٠/٦

(٤) شيخ الاسلام الحافظ الامام الزاهد أبو اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن مت الانصاري الهروي . من ذرية أبي أيوب الانصاري ،ولد سنة ٣٩٦هـ،وكان شيخ خراسان في زمانه ،حافظا للحديث،له من المصنفات ذم الكلام ،ومنازل السائرين،والاربعين وغير ذلك،وكان اماما متقنا قائما بنصر السنة ورد المبتدعة توفي سنة ٤٨١هـ

انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١١٨٣/٣-١١٩١، والعبر للذهبي ٣٤٣/٢، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٤٠ .

وقوله : سمعت الحسين ابن أبي أمامة المالكي يقول سمعت أبي يقول : لعن الله أبا ذر الهروي ، فانه أول من حمل الكلام الى الحرم وأول من بثه في المغاربة (أبو ذر فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتطابه لرواية البخاري عن شيوخه الثلاث وغير ذلك من المحاسن والغضائل ما هو معروف به ، وكان قد قدم الى بغداد من هراة ، فأخذ طريقة ابن الباقلاني وحملها الى الحرم فتكلم فيه وفي طريقته من تكلم ....) (١)

ومن الذين أخذوا عن الامام الباقلاني ورحلوا الى المغرب :

٢- أبو عبد الله الازدي : الحسين بن حاتم الازدي ، وبه انتفع أهل القيروان ، وكان رجلا ذا علم وأدب ، وترك بالقيروان من تلاميذه مبرزين مشاهير ، وهو أحد الذين رووا عن الباقلاني وأخذ عنه الأصول الفقه والدين(٢)

٣- أبو طاهر : محمد بن على المعروف بابن الانباري ، قال عنه ابن عساكر : (البغدادي الناسك الواعظ ، كان رجلا صالحا شيخا كبيرا منقطعا في طرف البلد ، أدركته بالقيروان لا يدرس لكبره وكنا نقصده في الجامع لفضله ودعائه ، وكا ن يذكر لنا بعض المسائل وشيئا من أخبار القاضي رحمه الله) (٣)

ودرس على الباقلاني أيضا الفقه وأصوله ، وأصول الدين .

٤- السكري : علي بن عيسى بن سليمان بن محمد بن أبان ، أبو الحسن الفارسي المعروف بالسكري الشاعر ، وكان يحفظ القرآن ويعرف القراءات صحب أبا بكر الباقلاني ، وأكثر شعره في مديح الصحابة وذم الرافضة ،توفي في شوال سنة ٤١٣ هـ (٤)

قال عنه ابن الاثير في أحداث سنة ثلاث عشرة وأربعمائة : (وفيها توفي أبو الحسن علي بن عيسى السكري شاعر السنة، ومولده ببغداد في صفر سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، وكان قد قرأ الكلام على القاضي أبي بكر

---

(١) درء التعارض لابن تيمية ١٠١/٢

(٢) انظر تبيين كذب المفتري ص ١٢٠-١٢١

(٣) تبيين كذب المفتري ص ١٢١

(٤) انظر البداية والنهاية ١٦/١٢

الباقلاني وانما سمي شاعر السنة لانه أكثر من مدح الصحابة ، ومناقضات شعراء الشيعة) (١)

وقد مدح الامام الباقلاني بقصيدة طويلة هذه أبيات منها قال فيها :

(اليعربي فصاحة وبلاغة xxxx والاشعري اذا اعتزى للمذهب
قاض اذا التبس القضاء على الحجى xxxx كشفت له الاراء كل مغيب
واذا الكلام تطاردت فرسانه xxxx وتحامت الاقران كل مجرب
ألفيته من لبسه وجنانه xxxx ولسانه وبيانه في مقنب) (٢)

٥- القاضي أبو محمد البغدادي : عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسن بن هارون ، أبو محمد البغدادي أحد الائمة المالكية ومصنفيهم ، قال الذهبي : قال أبو اسحاق الشيرازي سمعت كلامه في النظر وكان فقيها متأدبا وشاعرا ، له كتب كثيرة في كل فن ، وعاش ستين سنة، له كتاب التلقين يحفظه الطلبة ، وله غيره في الفروع والاصول ، وقد أقام ببغداد دهرا ، وولي قضاء داريا ، ثم خرج من بغداد لضيق حاله ، فدخل مصر فأكرمه أهلها ، وأعطوه مالا كثيرا ، فصار ينشد الابيات متشوقا الى بغداد قال عنه الخطيب : لم ألق في المالكية أحداً أفقه منه ، وكانت ولادته ببغداد سنة ٣٦٢هـ وتوفي في مصر سنة ٤٢٢هـ (٣)

(قيل له مع من تفقهت ؟ قال : صحبت الابهري ، وتفقهت مع أبي الحسن بن القصار ، وابن القاسم بن الجلاب ، والذي فتح أفواهنا وجعلنا نتكلم أبو بكر الطيب) (٤)

قال القاضي عياض : (وأخذ عنه - أي عن الباقلاني - جماعة لا تعد ، ودرسوا عليه أصول الفقه والدين ، والفقه ، وخرج منهم من الائمة أبو محمد بن عبد الوهاب بن نصر المالكي) (٥)

---

(١) الكامل في التاريخ ٣٢٩/٩

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٣٨١/٥-٣٨٢

(٣) انظر البداية والنهاية ٣٤/١٢-٣٥ والعبر للذهبي ٢٤٨/٢ وشذرات الذهب ٢٢٣/٣

(٤) مقدمة اعجاز القران للسيد احمد صقر ص٣٤

(٥) ترتيب المدارك ٤٦/٧-٤٧

٦- أبو الحسن الحربي : علي بن محمد بن الحسن أبو الحسن الحربي المالكي ، درس على الامام الباقلاني أصول الفقه والدين ، والفقه (١)

٧- القاضي السمناني : محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمود أبو جعفر القاضي السمناني ، سكن بغداد ، وحدث بها عن علي بن عمر السكري ، وابي الحسن الدارقطني ، وغيرهم من البغداديين ، وكان ثقة عالما فاضلا سخيا حسن الكلام ، حنفي المذهب ، ويعتقد في الاصول مذهب الاشعري ولد سنة ٣٦١هـ ومات بالموصل وهو قاضيا بها سنة ٤٤٤هـ (٢)

٨- أبو الحسن البغدادي : رافع بن نصر المتوفى سنة ٤٤٧هـ (٣)

٩- أبو حاتم القزويني : محمود بن الحسن الطبري المعروف بالقزويني تفقه بآمل على شيوخ بلده ، ثم قدم بغداد وحضر مجلس الشيخ أبي حامد ودرس الفرائض على الشيخ ابي الحسن بن اللبان ، وأصول الفقه على القاضي أبي بكر الباقلاني ، وكان حافظا للمذهب ، صنف كتبا كثيره في الخلاف والمذهب والاصول والجدل ، وتوفي بها (٤)

وغير هؤلاء خلق كثير لايتسع المجال لاستقطائهم والحديث عنهم .

---

(١) انظر ترتيب المدارك ٤٦/٧

(٢) انظر تبيين كذب المفتري ص٢٥٩ وترتيب المدارك ٤٦/٧

(٣) انظر مقدمة أعجاز القران للسيد أحمد صقر ص ٣٥

(٤) انظر تبيين كذب المفتري ص٢٦٠

المبحث الثالث :-

١ - ثقافته ومكانته العلمية

٢ - آراء العلماء فيه

٣ - رحلاته ومناظراته

٤ - شخصيته وأخلاقه

١ - ثقافته ومكانته العلمية :-

كان الامام الباقلاني واسع الاطلاع ، قوي الذاكرة سريع البديهة ذو بيان وفصاحة وقوة في المناظرة ، وأسلوب عجيب في الرد على المخالفين ومؤلفاته أكبر دليل على ذلك ، فهو يرد على الخصوم ويفند حججهم فتصبح خاوية أوهى من بيت العنكبوت ، فله مقدرة فائقة في الاحتجاج العقلي ويعده المؤرخون من أعظم الائمة في علم التوحيد ، ومعظم مصنفاته في العقائد وفي الرد على المخالفين .

قال عنه الخطيب البغدادي :(أما الكلام فكان أعرف الناس به ، وأحسنهم فيه خاطرا وأجودهم فيه لسانا وأوضحهم بيانا ، وأصحهم عبارة وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم) (١)

فكان رحمه الله فارسا في علم الكلام مطلعا على أقوال العلماء في ذلك ، عارفا بالمذاهب على اختلافها ، وهو على علم بتاريخ الديانات والفلسفات وأتجاهات الفرق وقد رد عليها ردودا مفحمة وفند أدلتها فأصبحت واهية .

وأما قدرته الفائقة ، وصبره وجلده على طلب العلم ودوامه على الكتابة والتصنيف فيقول عنه الخطيب:(وكان كل ليلة اذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه وكتب خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه ،وكان يذكر أن كتبه بالمداد أسهل عليه من الكتب بالحبر) (٢)

وقد كان الامام الباقلاني يقضي معظم وقته في طلب العلم وفي التصنيف ، قال ابن عساكر : (وحكى بعض شيوخنا ان القاضي كان يدرس نهاره وأكثر ليله وكان حصنا من حصون المسلمين) (٣)

وكان لسعة علمه وكثرة حفظه - رحمه الله - يهم باختصار ما صنفه من الكتب فلا يستطيع ، وقد نقل ذلك الخطيب حيث قال:(كان القاضي أبو بكر الاشعري

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٧٩/٥

(٢) نفس المصدر ٣٨٠/٥

وانظر الانساب للسمعاني ٥٢/٢

(٣) تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٢٠

يهم بأن يختصر ما يصنفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه ، قال وما صنف أحد خلافا الا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي أبي بكر فان جميع ما كان يذكر خلاف الناس فيه صنفه من حفظه) (١)

ومما يؤكد قوة الحافظة عند الامام الباقلاني قول الخطيب البغدادي (سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول : كل مصنف ببغداد انما ينقل من كتب الناس الى تصانيفه ، سوى القاضي أبي بكر فان صدره يحوي علمه وعلم الناس) (٢)

ومما يدل على سرعة بديهته وحضور جوابه وقوة ذكائه تلك المناظرات التي كانت تعقد بينه وبين علماء المسلمين ، أو بينه وبين أصحاب الديانات الاخرى (قال أبو القاسم بن برهان النحوي (٣) من سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء والمترسلين ولا الاغاني أيضا من طيب كلامه وفصاحته وحسن نظامه واشارته) (٤)

كل ما ذكر يدل على عظمة هذا الامام وقوته العلمية وأما من ناحية التصنيف فله المصنفات الكثيرة في شتى الفنون وأكثرها في العقيدة

---

(١) تاريخ بغداد ٣٨٠/٥

وانظر تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٢٠

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٣٨٠/٥

وانظر الانساب للسمعاني ٥٢/٢

(٣) أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن برهان الاسدي العكبري النحوي أمام في النحو واللغة ، له التصانيف المفيدة وهو من الائمة المشهورين توفي سنة ٤٥٦ هـ

انظر أشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين ص ١١٨

وبغية الوعاة للسيوطي ١٢٠/٢ - ١٢١

وشذرات الذهب ٢٩٧/٣

(٤) تبيين كذب المفتري . ص٢١٩ .

(قال الميورقي (١) : حسبت تواليف القاضي واملآته ، فقسمت على أيام عمره من مولده الى موته ، فوجد أنه يقع لكل يوم منها عشر ورقات أونحوها) (٢)

وقد كان الامام الباقلاني معروفا بالاسهاب في كتبه وفي مناظراته ايضا ، قال عنه ابن خلكان : (وكان كثير التطويل في المناظرات مشهورا بذلك عند الجماعة ، وجرى يوما بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة فأكثر القاضي أبو بكر فيها الكلام ووسع العبارة وزاد في الاسهاب ، ثم التفت الى الحاضرين وقال : اشهدوا عليّ أنه ان أعاد ما قلت لا غير لم أطالبه بالجواب ، فقال الهاروني : اشهدوا عليّ أنه ان أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال) (٣)

وأما عن فصاحته فقد قال فيه أحد العلماء (لو أوصى رجل بثلث ماله أن يدفع الى أفصح الناس لوجب أن يدفع لابي بكر الاشعري) (٤)

ومجمل القول أن الامام الباقلاني يعتبر من أوسع العلماء المتقدمين علما وأغزرهم ثقافة وأكثرهم انتاجا وخاصة فيما يتصل بعلوم العقيدة .

---

(١) الميرقي بفتح الميم وضم الياء تحتها نقطتان وسكون الراء وفي آخرها قاف هذه نسبة الى ميرقة ، وهي جزيرة قريبة من بلاد الاندلس ، نسب اليها جماعة من العلماء منهم أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي الميرقي الاندلسي الحافظ ، توفي ببغداد سنة ٤٦١ هـ ، هم أكثر من واحد لم أستطيع تعيين واحد منهم يقينا ، والذي ذكرته أقربهم الى المراد

انظر اللباب في تهذيب الانساب ٢٨٢/٣

ومعجم البلدان لياقوت ٢٤٦/٥

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤٩/٧

(٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٦٩/٤

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٨٠/٥

٢ - آراء العلماء فيه :-

سنذكر في هذا المبحث آراء العلماء في الامام الباقلاني لتتضح بذلك جوانب شخصيته ، سواء من ذكره بمدح أم بذم والتحقيق فيمن ذمه أو رماه بشيء من الطعن وبيان صحة هذا الطعن ان وجد .

=١= قال عنه القاضي عياض : (أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد القاضي المعروف بالباقلاني الملقب بشيخ السنة ، ولسان الامة المتكلم على مذهب المثبتة وأهل الحديث وطريقة أبي الحسن الاشعري امام وقته) (١)

=٢= وقد مدحه أبو الحسن علي بن عيسى السكري وهو تلميذ الامام الباقلاني - كما مر معنا - في قصيدة طويلة أولها :

يا عتب هل لتعتبي من معتب xxxx هل لديك لراغب من مرغب

الى أن قال :

أنا من علمت فلا تظني غيره xxxx صعب على خطب الزمان الأصعب

لكنني طوع لكل خريدة xxxx رود الشباب وكل خود خرعب

ثم قال بعد ذلك :-

ملكت محبات القلوب ببهجة xxxx مخلوقة من عفة وتحبب

فكأنها من حيث ما قابلتها xxxx شيم الامام محمد بن الطيب

اليعربي فصاحة و بلاغة xxxx والاشعري اذا اعتزى للمذهب

قاض اذا التبس القضاء على الحجى xxxx كشفت له الآراء كل مغيب

لا يستريح اذا الشكوك تخالجت xxxx الا الى لب كريم المنصب

وطلته همته بأبعد غاية xxxx أعي (٢) المريد لها سبيل المطلب (٣)

أهدي له ثمر القلوب محبة xxxx وحباه حسن الذكر من لم يحبب

مازال ينصر دين أحمد صادعا xxxx بالحق ،يهدي للطريق الأصوب (٤)

---

(١) ترتيب المدارك في تقريب المسالك للقاضي عياض ٤٤/٧

(٢) ذكرها اليافعي أعني وذكرها الخطيب أعي

(٣) ذكرها اليافعي (سلوك المطلبي) وذكرها الخطيب (سبيل المطلب)

(٤) أنظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٨١/٥

وانظر مرآة الجنان لليافعي ١٠/٣

وهذه الابيات من قصيدة طويلة ذكر منها الخطيب أثنان وثلاثون بيتا أكتفيت بهذه الابيات منها .

=٣= وقد روى ابن عساكر عن أبي علقمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)) (١)

وقال بعد ذلك : (وسمعت الشيخ الامام أبا الحسن علي بن المسلم ..... على كرسيه بجامع دمشق يقول وذكر حديث أبي علقمة هذا فقال : كان على رأس المائة الاولى عمر بن عبد العزيز، وعلى رأس المائة الثانية محمد بن ادريس الشافعي ، وعلى رأس المائة الثالثة الاشعري، وعلى رأس المائة الرابعة ابن الباقلاني) (٢)

وذكر ابن عساكر بعد ذلك خلافا فيمن كان على رأس المائة الرابعة فقال : (من قال ان القاضي ابا بكر محمد بن الطيب الباقلاني هو الذي كان على رأس الاربعمائة أولى من القول الثاني - وهو أبو الطيب الصعلوكي -(٣) لانه أشهر من أبي الطيب الصعلوكي مكانا وأعلى في رتب القوم شأنا وذكره أكبر من أن ينكر وقدره أظهر من أن يستر وتصانيفه أشهر من أن تشهر وتواليفه أكثر من أن تذكر) (٤)

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٤٨٠ كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المائة ، والحاكم في المستدرك ٤/٥٢٢ وسكت عليه الحاكم والذهبي وذكره الالباني في السلسلة الصحيحة برقم ٥٩٩ وقال والسند صحيح ٢/١٥٠

(٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٥٣

(٣) هو سهل بن محمد بن موسى بن عيسى بن أبراهيم العجلي الحنفي نسبا الاستاذ الكبير أبو الطيب الصعلوكي ، جمع بين رياسة الدين والدنيا وأتفق علماء عصره على امامته ، مفتي خراسان ومجدد القرن الرابع على أحد الاقوال توفي سنة ٤٠٤ هـ

انظر طبقات الشافعية للسبكي ٤/٤١٧ وشذرات الذهب ٣/١٧٢

وتبيين كذب المفتري ص ٢١١ وطبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٠

(٤) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٥٤

ثم قال عنه في موضع آخر (وكان أبو بكر رضي الله عنه فارس هذا العلم مباركا على هذه الامة ، وكان يلقب شيخ السنة ولسان الامة وكان مالكيا فاضلا متورعا ممن لم يحفظ له زلة قط ولا انتسبت اليه نقيصة) (١)

=٤= وقال عبد الملك أبو المعالي الجويني الملقب بامام الحرمين (٢) (ما تكلمت في علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضي أبي بكر وحده أثني عشر الف ورقة) (٣)

وامام الحرمين معروف قدره في علم الاصول والكلام وغير ذلك من العلوم .

=٥= وقال الامام أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني (٤): (لما

---

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٢٠

(٢) امام الحرمين أبو المعالي الجويني ، عبد الملك بن أبي محمد بن عبد الله بن يوسف ، الفقيه الشافعي أحد الائمة الاعلام ، عاش ستين سنة وتفقه على والده ، وجاور بمكة فقيل له امام الحرمين ، وكان من أذكياء العالم وأحد أوعية العلم ، ولد سنة ٤١٩ هـ وتوفي سنة ٤٧٨ هـ ، ومن أشهر مصنفاته الارشاد ، والبرهان في أصول الفقه ، والرسالة النظامية ، والشامل في أصول الدين ، وغياث الامم وغير ذلك .

انظر العبر للذهبي ٣٣٩/٢

وشذرات الذهب ٣٥٨/٣

والبداية والنهاية ١٣٧/١٢

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٨٥/٥

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن الحسين بن عبد الملك بن عبد الوهاب أبو عبد الله الدامغاني الكبير الحنفي ، انتهت اليه رياسة العراقيين ،وولي القضاء ببغداد ، وكان فقيها بارعا فاضلا ، تفقه بخراسان ثم قدم بغداد وتوفي فيها سنة ٤٧٨ هـ ودفن في القبة الى جانب الامام أبي حنيفة - رحمهما الله تعالى - من مصنفاته شرح مختصر الحاكم ، والزوائد والنظائر في غريب القرآن

انظر الفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي ص ١٨٢

وشذرات الذهب ٣٦٢/٣

والاعلام للزركلي ٢٧٦/٦

قدم القاضي الامام أبو بكر الاشعري بغداد ، دعاه الشيخ أبو الحسن التميمي الحنبلي (١) - رحمهما الله - امام عصره في مذهبه وشيخ مصره في رهطه وحضر الشيخ أبو عبد الله بن مجاهد والشيخ أبو الحسن محمد بن أحمد بن سمعون وأبو الحسن الفقيه فجرت مسألة الاجتهاد بين القاضي أبي بكر وبين أبي عبد الله بن مجاهد ، وتعلق الكلام بينهما الى أن انفجر عمود الصبح وظهر كلام القاضي عليه - رحمهما الله - وكان أبو الحسن التميمي الحنبلي يقول لاصحابه تمسكوا بهذا الرجل فليس للسنة عنه غنى أبدا ؟ (٢)

=٦= وقال أبو القاسم القشيري (٣) ابياتا في الامام الباقلاني :

شيئان من يعذلني فيهما ×××× فهو على التحقيق مني بري

حب أبي بكر أمام التقى ×××× ثم اعتقادي مذهب الاشعري (٤)

---

(١) عبد العزيز بن الحارث بن أسد أبو الحسن التميمي حدث عن أبي بكر النيسابوري ، ونفطويه وغيرهم وصحب أبا القاسم الخرقي ، وأبا بكر عبد العزيز ، صنف في الاصول والفروع ، ولد سنة ٣٠٧ هـ وتوفي سنة ٣٧١ هـ وكان له من الاولاد أبو الفرج وأبو الفضل وغيرهما

انظر المنهج الاحمد للعليمي ٧٩/٢

والنجوم الزاهرة ١٤٠/٤

وطبقات الحنابلة للقاضي ابن ابي يعلي ١٣٩/٢

(٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٢١

(٣) هو أبو القاسم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري الزاهد شيخ خراسان في عصره ومصنف الرسالة القشيرية ، توفي وله تسعون سنة ، سنة ٤٦٥ هـ بنيسابور ، من مصنفاته التيسير في التفسير ، والتفسير الكبير ، ولطائف الاشارات ٠

انظر العبر للذهبي ٣١٩/٢

والاعلام للزركلي ٥٧/٤

وتبيين كذب المفتري ص ٢٧١

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي تحقيق د/ الطناحي ود/ الحلو ١٨/٧

=٧= وقال عنه أبو محمد عبد الله اليافعي في أحداث سنة ثلاث وأربعمائة (وفيها توفي سيف السنة وناصر الملة الامام الكبير الحبر الشهير لسان المتكلمين وموضع البراهين وقامع المبتدعين وقاطع المبطلين القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المشهور بابن الباقلاني الاصولي المتكلم الاشعري المجدد به دين الامة على رأس المائة الرابعة على القول الصحيح)(١)

=٨= قال ابن خلكان : (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الاشعري ومؤيدا اعتقاده وناصرا لطريقته ، وسكن بغداد وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره ، وكان في علمه أوحد زمانه ، وانتهت اليه الرياسة في مذهبه ، وكان موصوفا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب وسمع الحديث) (٢)

=٩= قال ابن عمار الميورقي : (كان ابن الطيب مالكيا فاضلا متورعا ، ممن لم تحفظ له قط زلة ولا نسبت اليه نقيصة ..... وكان فارس هذا العلم مباركا على هذه الامة) (٣)

=١٠= وقال أبو عبد الله الصيرفي (٤) : (كان صلاح القاضي أكثر من علمه ، وما نفع الله هذه الامة بكتبه الا بحسن نيته واحتسابه بذلك ، وقال : وكان يدرس نهاره وأكثر ليله) (٥)

=١١= وقال الصاحب بن عباد (٦) في وصف الباقلاني وزملائه : (ابن

---

(١) مرآة الجنان لليافعي ٦/٣

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٦٩/٤

(٣) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤٥/٧

(٤) لم أعثر على ترجمته .

(٥) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤٨/٧

(٦) هو الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس وزير مؤيد الدولة ابن بويه بن ركن الدولة ، صحب الوزير أبا الفضل بن العميد وأخذ عنه الادب والشعر والترسل ، توفي بالري ونقل ودفن بأصبهان سنة ٣٨٥ هـ من مصنفاته المحيط ، والكافي في الرسائل وغير ذلك .
انظر العبر للذهبي ١٦٦/٢
وشذرات الذهب ١١٣/٣
والنجوم الزاهرة ١٦٩/٤

الباقلاني بحر مغرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفرييني نار تحرق) (١)

=١٢= وقال عنه ابن العماد (٢) : (ابن الباقلاني القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر البصري المالكي الاصولي المتكلم صاحب المصنفات وأوحد وقته في فنه .... وكانت له بجامع المنصور حلقة عظيمة) (٣)

=١٣= وقال ابن خلدون (٤) في مقدمته أثناء حديثه في فصل علم الكلام : (وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الاشعري واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد وغيره ، وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للامامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الادلة والانظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد ، والخلاء ، وأن العرض لايقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الايمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الادلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول) (٥)

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي تحقيق د/ الطناحي ود/ الحلو ٢٥٧/٤

(٢) عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي العكري أبو الفلاح مؤرخ ، فقيه ، عالم بالادب ولد في صالحية دمشق ، وأقام في القاهرة ولد سنة ١٠٣٢ هـ ومات حاجا سنة ١٠٨٩ هـ ، من مصنفاته شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، وشرح متن المنتهى في فقه الحنابلة وغير ذلك .

انظر الاعلام للزركلي ٢٩٠/٣ والنعت الاكمل للعامري ص ٢٤٠

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ١٦٨/٣-١٦٩

(٤) عبد الرحمن بن أحمد الحضرمي الاشبيلي المغربي الفقيه ، الامام الكاتب البليغ ، المؤرخ المشهور ، الفيلسوف ، العالم الاجتماعي البحاثة ، أصله من اشبيلية ، ومولده ومنشأه بتونس ، رحل كثيرا ، وتولى قضاء المالكية بمصر ، توفي سنة ٨٠٨ هـ ، من مصنفاته تلخيص المحصل في اصول الفقه للرازي وله كتاب تاريخ كبير معروف بالعبر وديوان المبتدأ والخبر ، ومقدمته التي سار بذكرها الركبان وهي تعد من اصول علم الاجتماع ، وغير ذلك . انظر التاج المكلل لصديق خان ص ٣٥٢ والضوء اللامع للسخاوي ١٤٥/٤ والاعلام ٣٣٠/٣

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧

ومما يؤكد هذا ما قاله بروكلمان في معلمة الاسلام عن الامام الباقلاني (أنه أدخل في علم الكلام آراء جديدة اقتبسها من الفلسفة اليونانية أو من معتقدات الكنيسة الشرقية كالقول بالاجزاء المفردة والقول بالخلاء ، والقول أن العرض لا يحمل عرضا آخر وأنه لا يبقى زمانين) (١)

= ١٤ = أما شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فقد قال عنه : (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم ، وهو أفضل المتكلمين المنتسبين الى الاشعري ، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده) (٢)

وقد وصفه ابن تيمية بأنه من المثبتة للصفات ، فقد نقل عن الباقلاني كثيرا في مصنفاته محتجا بكلامه وأدلته ،

وذكره شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - في موضع آخر فقال : (وابن الباقلاني أكثر اثباتا بعد الاشعري في الابانة ، وبعد ابن الباقلاني ابن فورك ، فانه أثبت بعض ما في القرآن) (٣)

وهذا يؤكد أن الامام الباقلاني - رحمه الله - سلك في اثبات الصفات مسلك الامام أبي الحسن الاشعري في كتابه الابانة ، وكلاهما كانا على طريقة الامام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - .

---

(١) نقلا عن كنوز الاجداد لمحمد علي كرد ص ٢٠١

(٢) العقيدة الحموية الكبرى ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٤٦١/١

(٣) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٥٢/٦

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (وهذا كما أن العراقيين المنتسبين الى أهل الاثبات من اتباع ابن كلاب (١) ، كأبي العباس القلانسي (٢) ، وأبي الحسن الاشعري ، وأبي الحسن علي بن مهدي الطبري(٣)، والقاضي أبي بكر بن الباقلاني وأمثالهم ، أقرب الى السنة وأتبع لأحمد بن حنبل وأمثاله ، من أهل خراسان المائلين الى طريقة ابن كلاب ، ولهذا كان القاضي أبو بكر بن الطيب يكتب في أجوبته محمد بن الطيب الحنبلي كما كان يقول الاشعري) (٤)

وقال عنه أيضا : (لم يكن في المنتسبين الى ابن كلاب والاشعري

---

(١) عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب القطان البصري ، أحد المتكلمين في أيام المأمون وهو صاحب مذهب الكلابية ، له من المصنفات كتاب الصفات وكتاب خلق الافعال ، وكتاب الرد على المعتزلة وغير ذلك

انظر لسان الميزان لابن حجر ٢٩٠/٣

والفهرست لابن النديم ص ٢٥٥

وطبقات الشافعية للسبكي ٢٩٩/٢

(٢) لم أجد له ترجمة فيما بين يديّ من كتب الرجال ، وقد ذكره ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ٣٩٨ فقال : (أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانسي الرازي من معاصري أبي الحسن - يرحمه الله - لا من تلامذته كما قال الاهوازي ، وهو من جملة العلماء الكبار الاثبات واعتقاده موافق لاعتقاده - أي لاعتقاد أبي الحسن الاشعري -)

(٣) علي بن محمد بن بندار ، أبو الحسن البصري أحد رواة الحديث ، قدم بغداد وحدث بها ، قال الخطيب : سألت البرقاني عن الطبري فقال ثقة ، صحب أبا الحسن الاشعري بالبصرة مدة وأخذ عنه وتخرج به ، وله تصانيف عدة منها كتابه في تأويل الاحاديث والمشكلات الواردة على الصفات .

انظر تاريخ بغداد ٨٣/١٢ ، وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٩٥ - ١٩٦

(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٧/١

أجل منه ولا أحسن كتبا وتصنيفا) (١)

وأثبت الامام ابن تيمية أنه كان منتسبا للامام أحمد ولأهل السلف فقال في درء التعارض : (وكان منتسبا الى الامام أحمد وأهل السنة وأهل الحديث والسلف) (٢)

وهكذا وبعد هذا العرض الواسع لآراء العلماء في الامام الباقلاني تتضح شخصية هذا العالم الفذ ومكانته العلمية وثقافته الواسعة فكان بهذه الثقافة الواسعة من علماء الاسلام الذين يشهد لهم القريب والبعيد بالعلم والتفوق ٠

ومقابل هذا المدح والاطراء الشديدين من جمهور العلماء الا أن هناك بعض العلماء تكلم في الامام الباقلاني ببعض الذم وسنعرض لهم فيما يلي :

=١= سئل أبو حيان التوحيدي وهو من معاصري الامام الباقلاني : فما تقول في ابن الباقلاني ؟ فأجاب :-

(فما شر الثلاثة أم عمرو xxxx بصاحبك الذي لا تصحبينا

يزعم أنه ينصر السنة ويفحم المعتزلة وينشر الرواية ، وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخرامية ، وطرائق الملحدة) (٣)

فقال السائل : (والله ان هذا لمن المصائب الكبار والمحن الغلاظ والامراض التي ليس لها علاج) (٤)

قلت : وهذا التحامل من أبي حيان ليس قاصرا على الباقلاني وحده فقد ورد عنه قوله عن المتكلمين والعلماء (يتكلم أحدهم في مائة مسألة ويورد مائة حجة ثم لا ترى عندهم خشوعا ولا رقة ولا تقوى ولا دمعة ٠٠٠) (٥)

ولعل الذي دفع التوحيدي الى هذا القدح في الباقلاني هو الحقد والحسد ، لان الامام الباقلاني معروف بعلمه وعمله وكان ذا مكانة مرموقة

---

(١) درء التعارض ١٠٠/٢

(٢) نفس المصدر ١٠٠/٢

(٣) - الامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي ١٤٣/١

(٤) نفس المرجع ١٤٣/١

(٥) نفس المرجع ١٤٢/١

وتقلد كثيرا من المناصب الهامة كرياسة القضاء فضلا عن مناظراته التي كانت تعقد في مجالس الملوك كعضد الدولة البويهي ، والتوحيدي عاش محروما ولو كان ما قاله التوحيدي حقا لنشر ذلك وبين أسباب هذا الاتهام ولرماه به أعداؤه من الفرق الضالة التي تصدي لها الامام الباقلاني بالرد والابطال ولكن كلام التوحيدي دعوى لا دليل عليها فقد نسبه الى مذهب الخرامية وطرائق الملحدة ، وهذا كلام محض افتراء على الامام الباقلاني فقد ـ مر معنا ـ ثناء العلماء عليه ، فلو علم أهل العلم عنه شيئا من ذلك لبينوه للناس .

=٢= أبو حامد الاسفراييني (١) وقد كان شديد الانكار على الامام الباقلاني ، وحمل عليه حملة شديدة ، وفي الحقيقة أنه كان شديد الانكار على عموم أصحاب الكلام .

ومعروف شدة الشيخ أبي حامد على أهل الكلام ، حتى ميز أصول فقه الشافعي من أصول الاشعري) (٢)

وقد اشتدت حملته على الامام الباقلاني فقد كانا متعاصرين ومما ذكر في شدته على الباقلاني ما يذكر من أن أبا حامد الاسفراييني كان ينهى تلاميذه وأصحابه عن علم الكلام وعلى الدخول على الباقلاني ، فسمع أن نفرا من أصحابه يدخلون عليه فقال لاحدهم يا بني قد بلغني أنك تدخل على هذا الرجل ـ يعني الباقلاني ـ فاياك واياه فانه مبتدع يدعوا الناس الى الضلالة والا فلا تحضر مجلسي فقال له التلميذ : أنا عائذ بالله مما قيل ، وتائب اليه ، واشهدوا علي أني لا أدخل اليه (٣)

وقد نقل في شدته على الامام الباقلاني حتى قيل ان أبا بكر

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد الاسفراييني ، أبو حامد من أعلام الشافعية ولد في اسفرايين سنة ٣٤٤ هـ ، ورحل الى بغداد فتفقه فيها وعظمت مكانته ،له من المصنفات التعليق في أصول الفه ،والرونق في الفقه ، وغيرها من المصنفات توفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ

انظر طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٣ وشذرات الذهب ١٧٨/٣

والاعلام للزركلي ٢١١/١

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٩٨/٢

(٣) انظر نفس المصدر ٩٧/٢

الباقلاني كان يخرج الى الحمام متبرقعا خوفا من أبي حامد الاسفراييني (١)

وقد نقل ابن تيمية عن ابي اسماعيل الانصاري قال : سمعت خلقا يذكرون شدة أبي الحامد على ابن الباقلاني قال : (وأنا بلغت رسالة أبي سعد الى ابنه سالم ببغداد ان كنت تريد أن ترجع الى هراة فلا تقرب الباقلاني)(٢)

قلت : وقد علل الاستاذ السيد أحمد صقر شدة الاسفراييني على الامام الباقلاني من باب الاسراف والتجني ، وبدافع الهوى والعصبية (٣)

وأرى أن هذا التعليل غير سديد ويستبعد على أبي حامد الاسفراييني أن يحمل مثل هذا بدافع العصبية والهوى ، ولكن لابد أن هناك دافعا دفعه الى هذا القول ،وقد بينه الامام ابن تيمية - رحمه الله - فقال : (وهذا الذي نقلوه - من انكار أبي حامد وغيره على القاضي أبي بكر الباقلاني - هو بسبب هذا الاصل وجرى له بسبب ذلك أمور أخرى) (٤)

ويعني ابن تيمية بتولد هذا الاصل مسألة كلام الله تعالى وقضية قيام الافعال به عز وجل .

يؤكد هذا ما نقله ابن تيمية عن بعض العلماء أنهم قالوا: سمعنا جماعة من الثقات يقولوا: كان الشيخ أبو حامد الاسفراييني الذي طبق الأرض علما اذا سعى لأداء صلاة الجمعة يدخل الرباط المعروف بالزوزي المحاذي لجامع المنصور ويقبل على الحاضرين ويقول : اشهدوا علي بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قال الامام أحمد بن حنبل لا كما يقوله الباقلاني ، وتكرر ذلك منه عدة جمعات ، فسئل عن سبب ذلك فقال : حتى ينتشر الخبر بين الناس أني بريء مما هم عليه - يعني الاشعرية - وبريء من مذهب أبي بكر الباقلاني وعقيدته (٥)

وهذا هو الذي دفع الاسفراييني الى الانكار على الباقلاني وعموم الاشاعرة ، ثم بين ابن تيمية - ... سلام

---

(١) انظر درء التعارض لابن تيمية ٩٧/٢

(٢) درء التعارض لابن تيمية ١٠١/٢

(٣) اعجاز القرآن تحقيق سيد أحمد صقر ص ٥٤

(٤) درء التعارض لابن تيمية ٩٩/٢-١٠٠

(٥) انظر نفس المصدر ٩٦/٢-٩٧

مساع مشكورة وأعمال مبرورة ، مثل الرد على أهل الالحاد والبدع والانتصار لأهل السنة ، لكن لما التبس عليهم هذا الاصل المأخوذ عن المعتزلة احتاجوا الى طرده والتزام لوازمه ، فلزمه من ذلك من الاقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم وصار الناس منهم من يعظمهم لما لهم من الفضائل ، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع وهذا ما وقع للامام الباقلاني وجعل الاسفراييني يحمل عليه هذه الحملة مع ما فيه من الفضائل والمحاسن الكثيرة والرد على الزنادقة والملحدين وأهل البدع حتى أنه لم يكن في المنتسبين الى ابن كلاب والاشعري أجل منه ولا أحسن كتبا وتصنيفا . (١)

فأستطيع القول اذا أن شدة الاسفراييني على الامام الباقلاني كان سببها خلافا في قضية من مسائل الاعتقاد الهامة ، لا بدافع التعصب والتجني

=٣= ابن حزم الظاهري (٢) : ومن الذين شنوا هجوما عنيفا على الامام الباقلاني أبو محمد بن حزم ، فقد حمل عليه كثيرا في كتابه الفصل في الملل والاهواء والنحل ، فرماه بالكفر تارة (٣) وبالضلال اخرى (٤) كما رماه بالشرك والالحاد (٥)

هذه بعض أقوال ابن حزم في الامام الباقلاني تتبعتها في كتاب الفصل فوجدتها تتجاوز أربعين موضعا ، ينسب فيها اليه أقوالا لا تصدر من مسلم فكيف عن أمام من أئمة أهل السنة والجماعة .

---

(١) درء التعارض ٢/١٠٠-١٠٢

(٢) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف الظاهري ولد بقرطبة من بلاد الاندلس سنة ٣٨٤ هـ وكان عالما حافظا لعلوم الحديث مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب ، فانتقل الى مذهب أهل الظاهر ، وكان متفننا في العلوم عامة ، توفي سنة ٤٥٦ هـ ، ومن أشهر مصنفاته المحلى،والفصل في الملل والأهواء والنحل ، وغير ذلك .
انظر التاج المكلل ص ٨٧ والعبر للذهبي ٢/٣٠٦
وشذرات الذهب ٣/٢٩٩

(٣) انظر الفصل لابن حزم ٢/٣٠٣ ، ٤/٥٣ و ١٢٥ ، ١٨٦

(٤) انظر نفس المصدر ٤/٥٣ ، ٥/٧٦

(٥) انظر نفس المصدر ٤/٥٣

لكننا لم نجد لهذه الأقوال التي نسبها اليه ابن حزم أثرا في مصنفات الامام الباقلاني ، التي بين أيدينا مثل التمهيد ، والانصاف واعجاز القرآن وغيرها ، بل وجدنا بعكس ذلك ما يدل على أن ابن حزم لم يكن متأكدا من نقله .

ولنأخذ لذلك بعض الامثلة من تلك الاقوال التي نسبها اليه ابن حزم وهو منها براء :

١- ذكر ابن حزم أن الاشاعرة قالوا في كتبهم (ان الروح تنتقل عند خروجها من الجسم الى جسم آخر ، هكذا نص الباقلاني في أحد كتبه وأظنه الرسالة المعروفة بالحرة) (١)

لكننا لم نجد شيئا من هذا في رسالة الحرة ، ولم نجد كلاما يمت الى هذا بصلة لامن قريب ولا من بعيد وكل ما ورد في رسالة الحرة عن الروح قول الامام الباقلاني : (ويجب أن يعلم : أن كل ما ورد به الشرع من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ، ورد الروح الى الميت عند السؤال ، ونصب الصراط والميزان ، والحوض ، والشفاعة للعصاة من المؤمنين ، كل ذلك حق ومصدق ويجب الايمان والقطع به ، لأن جميع ذلك غير مستحيل في العقل) (٢)

ومن هذا يتبين عدم صحة قول ابن حزم في نقله عن الباقلاني وهذا القول الذي ذكره هو مذهب أهل التناسخ والامام الباقلاني بعيد جدا عن مثل هذه الأقوال المنكرة .

٢- وقال ابن حزم في معرض حديثه عن الأشاعرة : (ومن شنعهم قول هذا الباقلاني في كتابه المعروف بالانتصار في القرآن : أن تقسيم آيات القرآن وترتيب مواضع سوره شيء فعله الناس وليس هو من عند الله تعالى ولا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) (٣)

وأنصع دليل على صدق الباقلاني وبراءته مما رماه به ابن حزم قوله في كتاب الانتصار لنقل القرآن : (ترتيب الآيات أمر واجب ، وحكم

---

(١) الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم ٨٥/٥

(٢) الانصاف للامام الباقلاني ص ٥١

(٣) الفصل في الاهواء والملل والنحل لابن حزم ٩١/٥

لازم فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا موضع كذا .... وقوله ايضا .....
والذي نذهب اليه في ذلك أن جميع القرآن الذي أنزله الله ، وأمر باثبات
رسمه ، ولم ينسخه ، ويرفع تلاوته بعد نزوله - هو هذا الذي بين الدفتين -
الذي حواة مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شيء ، ولا زيد فيه ، وأن ترتيبه
ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ، ورتبه عليه رسوله ، من آي السور
لم يقدم من ذلك مؤخرا ، ولا آخر مقدما ، وأن الامة ضبطت عن النبي صلى
الله عليه وسلم ، ترتيب آي كل سورة وموضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت
عنه نفس القراءات وذات التلاوة ، وأنه يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه
وسلم ، قد رتب سوره على ما انطوى عليه، مصحف عثمان ، ويمكن أن يكون
قد وكل ذلك الى الامة بعده ، ولم يتول ذلك بنفسه ، وأن هذا القول الثاني
أقرب وأشبه أن يكون حقا) (١)

وبعد هذا البيان الناصع يندفع قول ابن حزم ان ، الامام الباقلاني
يقول أن ترتيب الآيات والسور شيء فعله الناس وليس هو من عند الله .

٣- وأيضا يقول ابن حزم : (ورأيت الباقلاني يقول : جائز أن يكون
في هذه الامة من هو أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين بعث
الى أن مات ، قال أبو محمد وهذه الاقوال كفر مجرد لا تردد فيه) (٢)

ولم نجد شيئا من هذا القبيل في مصنفات الباقلاني الموجودة بين
أيدينا ، والباقلاني كغيره من أئمة أهل السنة يعتقد أن أفضل الامة بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه العشرة المبشرين بالجنة ، وأفضل
العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة رضي الله عنهم (٣)

ونكتفي بهذه النماذج التي تبين لنا بها عدم صحة كلام ابن حزم
في تحامله على الباقلاني ولا ينبغي الالتفات الى ما قاله فيه من الطعن
والتكفير ، ولا نستطيع أن نتتبع سائر كلامه على الامام الباقلاني لان هذا
يحتاج الى وقت وجهد طويل وبسط لا يناسب المقام .

---

(١) الانتصار لنقل القرآن للباقلاني نقلا عن مقدمة اعجاز القرآن للسيد
أحمد صقر ص ٦٠

(٢) الفصل لابن حزم ١٢٥/٥

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ٦٨

٣- رحلاته ومناظراته :-

أ- رحلته الى شيراز ومناظرته المشهورة في مجلس عضد الدولة :-

يروي لنا القاضي عياض - رحمه الله - أن الملك عضد الدولة الديلمي كان يحب العلم والعلماء ، وكان مجلسه يحتوي على عدد كبير منهم وأكثرهم من المعتزلة وكان قاضي قضاته بشر بن الحسين معتزليا (١) (٢)

قيل عن سبب ذهاب الامام الباقلاني الى هذا المجلس ومناظراته معهم ، ان الملك عضد الدولة سأل يوما عن عدم وجود أحد من أهل السنة في مجلسه مع انتشار مذهبهم فقال له قاضيه : انما هم أهل تقليد ورواية يروون الخبر وضده ويعتقدونهما جميعا ، وحط من قدرهم ، وانما أراد بهذا ذم القوم ، وأخذ بعدها يمدح المعتزلة فقال له عضد الدولة : محال أن يخلو مذهب طبق الأرض - من ناصر له - فانظر أي موضع فيه مناصر فكتب له .

فقال القاضي لعضد الدولة : أنه قد بلغني أن في البصرة رجلين من أهل السنة والجماعة ، أحدهما شيخ وهو أبو الحسن الباهلي ، والآخر شاب وهو ابن الباقلاني ، فكتب عضد الدولة من شيراز الى عامله في البصرة وبعث اليه حالا من طيب ما له لنفقتهما ، ولما وصل الكتاب اليهما ، امتنع الشيخ الباهلي وقال : هؤلاء قوم كفرة ولا يحل لنا أن نطأ بساطهم وأن غرض عضد الدولة ليس خالصا لله عز وجل ، بل من أجل أن يقال أن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم .

أما الباقلاني الشاب الواثق من نفسه ، فقد اعترض على شيخه الباهلي وقال : ان هذا الامتناع يسوغ للخصوم أن يرموا أهل السنة بقلة

---

(١) لم أعثر على ترجمته .

(٢) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٥١/٧

الحجة وأن هذا المسلك شبيه بما فعله ابن كلاب والحارث المحاسبي (١) حين امتنعوا عن حضور مجلس المأمون حتى ساق الامام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله وجرى له ما جرى من ضرب وامتحان ، أما أنا فاني خارج اليهم ، وخرج الى شيراز عن طريق البحر .

ولما وصل الامام الباقلاني الى شيراز ، دخل من الغد على الملك عضد الدولة ولا أحد يعرفه الا قاضي القضاة ، ولم يجد مجلسا يجلس فيه وكان عن يمين الملك مجلس لا يجلس عليه الا وزير أو ملك عظيم ، فدخل الباقلاني وجلس فيه ، وهم الحجاب للوقوع به فقال القاضي : أيها الملك هذا الرجل الذي طلبته من البصرة للمناظرة ، فأومأ الملك بعينيه الى الحجاب فتركوه وكان هذا عملا عظيما من الامام الباقلاني يدل على قوة شخصيته واعتزازه بدينه وبعلمه ، وعدم هيبته من الملوك ، لان في قلبه عظمة الله عز وجل الذي بيده النفع والضر وهو على كل شئ قدير ، وبدأت المناظرة بينه وبين المعتزلة فناظرهم في أمور كثيرة منها : التكليف بما لا يطاق ومنها مسألة رؤية الله عز وجل ، وأفحمهم وقد عجزت السنتهم عن الرد عليه ، فقال الملك لقاضي قضاته . ألم أقل لك أن مذهبا قد طبق الأرض لا بد له من ناصر ، فعلم الملك بقدر الامام الباقلاني وقال فكرت بأي قتلة أقتله لجلوسه حيث جلس بغير أمري وأما الآن فقد علمت أنه أحق بمكاني مني .

ودفع اليه الملك ابنه صمام الدولة ليعلمه مذهب أهل السنة والجماعة ، وألف له الامام الباقلاني كتاب التمهيد (٢)

---

(١) هو الحارث المحاسبي أبو عبد الله من أكابر الصوفية ، كان عالما بالاصول والمعاملات ، واعظا مبكيا ، له التصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم ، هجره الامام أحمد لتكلمه بشيء من الكلام وخواطر النفوس ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، من مصنفاته أدب النفوس ، والمسائل في أعمال القلوب ، ورسالة المسترشدين في الوعظ والارشاد وغير ذلك

انظر تهذيب التهذيب ١٣٤/٢

وميزان الاعتدال ٤٣٠/١

والأعلام للزركلي ١٥٣/٢

(٢) انظر تفاصيل هذه المناظرة في ترتيب المدارك للقاضي عياض ٥١/٧ـ٥٧

وهذه الرحلة والمناظرة للامام الباقلاني تبين لنا عظمة هـذا الامام وما يتمتع به من قوة الشخصية ، وحجة اللسان ، وسعة العلم وسرعة البديهة ، فقد أعجب به الملك عضد الدولة أشد الاعجاب .

٢ = رحلته الى القسطنطنية ومناظرته في مجلس ملك الروم :-

وجه عضد الدولة الامام الباقلاني الى ملك الروم ليظهر رفعة الاسلام ويغض من النصرانية ، فخرج الباقلاني حتى دخل بلاد الروم ووصل الى ملك القسطنطنية ، وطلبوا منه قبل الدخول أن يدخل منحني الظهر احتراما للملك وأن يخلع حذاءه وعمامته ، فرفض ، فأخبر بذلك الملك ، فصنع بابا قصيرا حتى اذا دخل عليه ، دخل كهيئة الراكع ، ففهم الباقلاني أن مراده أن ينحني وهو داخل عليه كهيئةالراكع ، وهـذا لا يجوز لغير الله عز وجل ، فأدار ظهره وحنى رأسه راكعا ، ودخل من الباب يمشي الى خلفه مستقبلا الملك بدبره حتى وصل اليه فرفع رأسه وأدار وجهه الى الملك (١) فعجب الملك من فطنته ووقعت له الهيبة في قلبه .

وأيا كان نصيب هذه الرواية من المبالغة الا ان هذا ليس غريبا على ذكاء وفطنة وشخصية هذا الامام العظيم .

ولما سئل الباقلاني عن سبب دخوله على هذه الصورة ، أجاب بأنه رجل من علماء المسلمين ، وما تريدون مني من الدخول على هذه الهيئة ذل وصغار ، وأن من شأن الملوك اذا بعثوا رسلهم الى ملك آخر ، أن يرفع أقدارهم لا أذلالهم ،ولاسيما اذا كان الرسول من أهل العلم ، ونحن قوم قد رفعنا الله بالاسلام ، فان دخلت على الهيئة التي طلبت كان هذا ذلاً واحتقاراً وهذا لا يجوز في شريعتنا .

وفي اليوم التالي ، دعا الملك الباقلاني لحضور مائدة الطعام فرفض وقال لرسوله أخشى أن يكون على مائدتكم من لحوم الخنازير وما حرمه الله ورسوله على المسلمين فذهب الترجمان ورجع وقال للباقلاني : يقول الملك ليس على مائدتي شيء تكرهه ، فذهب الباقلاني،وقدم الطعام فمد يده

---

(١) انظر هذا في البداية والنهاية لابن كثير ٣٧٤/١١
وانظر تاريخ بغداد للخطيب ٣٧٩/٥

وأوهم الحاضرين انه يأكل ، ولم يأكل منه شيئا .

ولما فرغوا من الطعام جلسوا للمناظرة ، فقال له بعضهم : هذا الذي تدعونه من معجزات نبيكم من انشقاق القمر ، كيف هو عندكم ؟

فقال له الباقلاني : هو صحيح عندنا ، فقد انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه الحاضرون ومن اتفق نظره اليه في تلك الحال .

فقال الملك : وكيف لم يره جميع الناس ؟ قلت : لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره .

فقال الملك : وهل بينكم وبين القمر نسب وقرابة حتى ترون انشقاقه ولا تراه الروم وغيرها من سائر الناس ، وانما رأيتموه أنتم خاصة ؟ فقلت : هذه المائدة بينكم وبينها نسبه وقرابة ، وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الالحاد ، وخاصة يونان جيرانكم فانهم كلهم منكرون لهذا الشأن وأنتم رأيتموها دون غيركم .

فتحير الملك وقال بكلامه : سبحان الله ؟

ثم أمر باحضار القسيس ليكلمني وما هي الا لحظات حتى جاؤا برجل كالذئب ، أشقر الشعر مسبله ، فقعد وحكيت له المسألة فقال الذي حكاه المسلم لازم وهو الحق ولا أعرف له جوابا الا ماذكره .

فقلت له : أتقول ان الخسوف اذا كان يراه جميع أهل الأرض أم يراه أهل الاقليم الذي في محاذاته ؟ قال : لا يراه الا من كان في محاذاته قلت : فما أنكرت في انشقاق القمر اذا كان في ناحية لا يراه الا أهل تلك الناحية ومن تأهب للنظر له ، أما من أعرض عنه أو كان في الامكنة التي لا يرى القمر منها فلا يراه ، فقال : هو كما قلت ما دفعك عنه دافع ، وانما الكلام في الرواة الذين نقلوه ، أما الطعن في غير هذا الوجه فليس بصحيح .

فقال الملك : وكيف يطعن في النقلة ؟ فقال القسيس : شبه هذا من الآيات اذا صح وجب أن ينقله الجم الغفير حتى يتصل بنا العلم الضروري به ، ولما لم نعلم ذلك بالضرورة دل على أن الخبر مختلق باطل .

فالتفت الملك للامام الباقلاني وطالبه بالجواب ، فقال : يلزمه في نزول المائدة ما لزمني في انشقاق القمر ويقال له : لو كان نزول المائدة

صحيحا ، لوجب أن ينقله العدد الكثير ، فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولامجوسي الا وهو يعلم هذا بالضرورة ، ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة دل على أن الخبر كذب ، فبهت النصراني والملك ومن في المجلس وانفصل المجلس على هذا .

وفي مجلس آخر سئل الامام الباقلاني عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ؟ فقال الباقلاني: بانه روح الله وكلمته وعبده ونبيه كما أخبر بذلك القرآن الكريم ، وناقشهم طويلا في معجزات عيسى عليه السلام وانها من فعل الله عز وجل .

وفي مجلس ثالث يسأل الامام الباقلاني عن سبب اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص المسيح عليه الصلاة والسلام ، فأجابه الملك بأنه أراد أن ينجي الناس من الهلاك .

فقال له الباقلاني : هل درى المسيح بأنه يقتل ويطلب أو لم يدر ، فان قلت انه لم يدر ما أراد اليهود به ، بطل أن يكون الها واذا بطل أن يكون الها بطل أن يكون ابنا ، وان قلت أنه درى ودخل على بصيرة فليس بحكيم ، لأنّ الحكمة تمنع من التعرض للبلاء ، فبهت !

ويروي القاضي عياض أنه في مجلس آخر جاء الملك ومعه البطريرك قيم ديانتهم ، وجلسوا وسلم القاضي الباقلاني عليهم وسأل البطرك : كيف الأهل والأولاد ؟ فعظم قوله هذا عليه وعلى جميعهم ، وتغيروا وأنكروا قول أبي بكر عليه ، فقال : يا هؤلاء تستعظمون لهذا الانسان اتخاذ الصاحبة والولد وتربون به عن ذلك ولا تستعظمونه لربكم عز وجل فتضيفون ذلك اليه فلم يردوا جوابا وتداخلتهم له هيبة عظيمة وانكسروا ، ثم قال الملك للبطرك ما ترى في أمر هذا الشيطان ؟ قال : تقضي حاجته ، وتلاطف صاحبه وتبعث بالهدايا اليه ونخرج هذا من البلد قبل أن يفتتن به الناس ففعل الملك ذلك وأحسن جواب عضد الدولة ووكل بالقاضي من يحفظه حتى يصل الى بلده (١)

هذا ما كان من مناظرات الباقلاني مع ملك الروم وكل هذا يدل على قوة شخصيته وشدة مراسه وسرعة بديهته حتى الجم الخصوم عن الجواب .

---

(١) انظر تفاصيل هذه المناظرة في ترتيب المدارك للقاضي عياض ٥٧/٧ـ٦٨

٤- شخصيته وأخلاقه :-

سنتحدث في هذا المبحث عن شخصية الامام الباقلاني وأخلاقه ، فأن الناظر لهذه الشخصية يرى فيها الصفات العالية التي لم تتوفر في كثير من الناس ، ومن هذه الصفات والأخلاق :-

١= دينه وورعه :- كان الامام الباقلاني - رحمه الله - من أهل التدين والصلاح ، حكى عنه الخطيب عن الخلال انه قال : (كان ورد القاضي أبي بكر محمد بن الطيب في كل ليلة عشرين ترويحة ، ما يتركها في حضر ولا في سفر) (١)

وينقل ابن عساكر واليافعي في مرآة الجنان عن أبي حاتم القزويني قال : (كان الامام أبو بكر يضمر من الورع والديانة والزهد والصيانة أضعاف ما كان يظهره ، فقيل له في ذلك فقال : انما أظهر ما أظهره غيظا لليهود والنصارى والمعتزلة والرافضة والمخالفين لئلا يستحقروا علماء الحق والدين) (٢)

وكان ورعا لم تحفظ عنه زلة ولا نسبت اليه نقيصة ، وكان باطنه معمورا بالعبادة والديانة والصيانة (٣)

وكان ظن الناس فيه حسنا ، فقد رأى الطائي في نومه جماعة حسنة ثيابهم وعليهم من الروائح الطيبة وكان قد دعى الله في تلك الليلة أن يرى الامام الباقلاني ، فسألهم من أين جئتم فقالوا : من الجنة ، فقلت : ما فعلتم قالوا : زرنا القاضي الامام أبا بكر الباقلاني فقلت : وما فعل الله به فقالوا : غفر الله له ورفع له في الدرجات (٤)

وقد رآه بعضهم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يدرس عليه الشريعة ، وبعضهم ذهب لزيارة قبره مترحما عليه يريد أن يعرف مصيره وحاله عند الله عز وجل فيرفع مصحفا على قبره ويقول : اللهم بين لي في هذا المصحف حال القاضي أبي بكر ، ثم يفتح المصحف فيجد دليلا على ذلك وهو قوله عز وجل ((ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)) (٥) (٦) وهذه الرؤى تبشر بالخير علما بأن الاحكام لاتؤخذ بالرؤى ولا يجوز استعمال المصحف على هذا النحو اجلالا له .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٨٠/٥

(٢) تبيين كذب المفتري ص٢٢٠ ومرآة الجنان ٨/٣

(٣) انظر شذرات الذهب لابن العماد ١٦٩/٣

(٤) انظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٢٢-٢٢٣

(٥) هود الآية ٢٨

(٦) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٨٣/٥ وانظر الانساب للسمعاني ٥٢/٢

وهذا كله ان لم يكن دليلا صحيحا على حسن سيرة الرجل ومصيره في الآخرة فانه بلا شك بينة واضحة على حسن ظن الناس فيه .

٢= ذكائه وفطنته :- لقد كان الامام الباقلاني -كما مر معنا - على قدر كبير من فرط الذكاء وقوة الحافظة وسرعة البديهة ، وله قدرة عجيبة في رد كلام الخصوم وافحامهم ، كان -رحمه الله- ذكيا مفرطا في الذكاء عنده لكل ضيق مخرج وفي سفارته الى ملك الروم ما يدل على ذلك .

وقد مر معنا هذا في رحلته ومناظرته مع ملك الروم ، وكيف أن الملك أراد أن يدخل عليه الباقلاني وهو منحني الظهر ، ولما رفض الباقلاني اخترع الملك حيلة لذلك فوضع سريره أمام باب قصير حتى يدخل منه وهو منحني ، فدخل الباقلاني بظهره ودبره الى جهة الملك ثم رفع رأسه وأدار وجهه فعجب الملك من فطنته ، ووقعت له الهيبة في نفسه . (١)

ومما وقع له أيضا أن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالارغل ليستفز عقله بها ، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك فجرح رجله وخرج منها الدم الكثير ، فأخذ يشتغل بالالم عن الطرب ، ولم يظهر عليه شيء من الخفة فعلم الملك بذلك ، فتحقق له وفور همته ، وعلو عزيمته ، وذكائه وفطنته (٢)

ومما يروى في ذكائه وفطنته أن ابن المعلم - شيخ الرافضة ومتكلمها - حضر بعض مجالس النظر مع أصحاب له ، اذ أقبل القاضي أبو بكر الباقلاني فالتفت ابن المعلم الى أصحابه وقال لهم : قد جاءكم الشيطان فسمع القاضي كلامهم -وكان بعيدا من القوم- فلما جلس أقبل على ابن المعلم وأصحابه وقال لهم : قال الله تعالى:((انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا)) (٣) أي ان كنت شيطانا فأنتم كفار ، وقد أرسلت عليكم (٤)

من كل ما يتقدم يتضح لنا شدة ذكاء الباقلاني وسرعة جوابه وما حباه الله تعالى من فطنة عظيمة وذهن متوقد .

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب ٣٧٩/٥-٣٨٠

وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٧٤/١١

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٧٤٣/١١

(٣) سورة مريم الاية ٨٣

(٤) انظر تاريخ بغداد للخطيب ٣٧٩/٥

وانظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٥٠/٧-٥١

المبحث الرابع :-

١- وظائفه وتوليه القضاء

٢- مذهبه في الفروع الفقهية

١- وظائفه وتوليه القضاء :-

اشتهر الامام الباقلاني بلقب القاضي حتى يقتصر أحيانا بعض العلماء في كتب الكلام وأصول الفقه على هذا اللقب فيقولون : قال القاضي ويقصدون الامام الباقلاني .

وأكثر من ترجم له قال أنه القاضي أبو بكر ، ولا شك في أن هذا يدل على أن الرجل تولى منصب القضاء وكان هذا المنصب مرموقا لايتولاه الامن وصل الى درجة كبيرة في العلم والمعرفة والصلة القوية بأصحاب السلطة في الدولة ، ونحن نعلم أن الرجل قد كان على صلة بعضد الدولة البويهي وأرسله في سفارة عنه الى ملك الروم - كما مر معنا -

ومن هنا يمكن القول أنه تولى القضاء فعلا ، فقد قال القاضي عياض أنه (ولي القضاء بالثغر) (١) ولا ندري أي ثغر يقصد .

ويبدو أن الامام الباقلاني كان له الحق في تعيين القضاة أيضا حيث أصدر أمرا بتعيين ابن دلوية الاستوائي (٣٥٨ هـ - ٤٣٤ هـ) أبو حامد أحمد بن محمد حيث يحكي لنا ابن عساكر انه (ولي القضاء بعكبرا من قبل القاضي أبي بكر محمد بن الطيب) (٢)

وهذا يعني أنه أصبح يتولى منصب قاضي القضاة ، ولا غرابة في أن يتولى صاحبنا هذا المنصب .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤٥/٧

(٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٤٧

٢- مذهبه في الفروع الفقهية :-

كان الامام الباقلاني - رحمه الله - فقيها بارعا وقد كان من الفضل والعلم بحيث تنازعته المذاهب الفقهية كل يريد أن يكون على مذهبه فاختلف الناس في مذهبه في الفروع، قال ابن كثير : (وقد اختلفوا في مذاهبه في الفروع فقيل : شافعي وقيل مالكي ٠٠٠٠ وقيل : أنه كان يكتب على الفتاوى : كتبه محمد بن الطيب الحنبلي وهذا غريب جدا) (١)

و رجح ابن كثير أنه شافعي (٢)

ونود أن نستعرض كلام المؤرخين حتى نستطيع أن نحدد مذهب الرجل في الفروع الفقهية ٠

ذهب ابن كثير وجماعة من العلماء الى أن الامام الباقلاني كان شافعي المذهب ، ويبدوا أنهم خلطوا في ذلك بين الشيخ أبي الحسن الاشعري وبين ابن الباقلاني فقد قرر المايروقي أن أبا الحسن كان مالكيا في الفروع وحكى أنه سمع الامام رافعا الحمال يقول ذلك فقد وهم المايروقي في ذلك وسبب الوهم أن القاضي أبا بكر كان يقال له الاشعري لشدة قيامه بنصرة مذهب الشيخ أبي الحسن الاشعري ،وكان الباقلاني مالكيا على الصحيح الذي صرح به أبو المظفر بن السمعاني في القواطع وغيره من العلماء ، فيبدوا أن المايروقي سمع رافعا الحمال يقول الاشعري مالكي ، فتوهم أنه يعني الشيخ أبا الحسن وانما عنى رافع القاضي أبا بكر الباقلاني (٣)

ويبدوا بعد هذا جليلا أن من نسب الباقلاني لمذهب الامام الشافعي قد أخطأ في ذلك بل كان مالكيا على الراجح ٠

أما نسبته للمذهب الحنبلي : فقد جاءت من كتابته على بعض أجوبته محمد بن الطيب الحنبلي (٤) فوهم البعض أنه حنبلي في الفروع الفقهية

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٧٤/١١

(٢) انظر نفس المصدر ٣٧٣/١١

(٣) انظر طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي تحقيق د/ الطناحي ود/ الحلو ٣٦٦/٣

(٤) انظر درء التعارض لابن تيمية رحمه الله ١٠٠،١٧/٢

ويقول ابن تيمية أن القاضي أبا بكر بن الباقلاني أقرب الى السنة واتباعا لأحمد بن حنبل من أهل خراسان المائلين الى طريقة ابن كلاب ولهذا كان القاضي أبو بكر بن الطيب يكتب في أجوبته محمد بن الطيب الحنبلي (١) وهذا يبين جليا أنه يقصد نسبة نفسه الى الامام أحمد بن حنبل في مسألة كلام الله تعالى وفي المذهب الاعتقادي لا في الفروع الفقهية .

والراجح على أصح الاقوال والذي أجمعت عليه المصادر التاريخية انه كان مالكيا في الفروع الفقهية (٢)

وممن أكد على مذهبه المالكي القاضي عياض حيث قال : (واليه انتهت رئاسة المالكيين في وقته) (٣)

وقال : (انه كان شيخ المالكيين في وقته) (٤)

والذي يجعلنا نرجح أنه مالكي المذهب الفقهي كثرة الروايات التي تجعله مالكيا واجماع المؤرخين على ذلك .

وأيضا فان أبا ذر الهروي كان مالكي المذهب وكان يأخذ عن الامام الباقلاني وكذلك غيره من المالكية وهذا يرجح أنه كان مالكيا رحمه الله .

---

(١) انظر درء التعارض لابن تيمية ٢٧٠/١

(٢) انظر الديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٦٧
وانظر الكامل في التاريخ لابن الاثير ٢٤٢/٩
وانظر العبر في خبر من غبر ٢٠٧/٢

(٣) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤٥/٧

(٤) نفس المرجع ٤٥/٧

المبحث الخامس : مؤلفات الامام الباقلاني

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

أولا :- مؤلفات الامام الباقلاني المطبوعة

ثانيا :- مؤلفات الامام الباقلاني المخطوطة

أولا :- مؤلفات الامام الباقلاني المطبوعة :

لقد كان الامام الباقلاني-كما قدمنا- واسع الثقافة كثير المطالعة والمدارسة للعلم والعلماء ، وكان من كبار من اشتغل بالعلم والتأليف فقد نسبت اليه مؤلفات كثيرة منها ما وصل الينا وطبع وتداوله الناس ومنها ما يزال مخطوطا ومع الاسف فان الكثير من مصنفات الامام الباقلاني مفقوده ، وسنحاول في هذا المبحث التعرف على مصنفات هذا الامام سواء ما كان منها مطبوعا أو مخطوطا أو مفقودا وأشار اليه بعض العلماء الثقات .

من مؤلفات الامام الباقلاني المطبوعة :-

١- اعجاز القرآن :-

يعتبر كتاب اعجاز القرآن للباقلاني من أعظم الكتب التي تناولت اعجاز القرآن ، فقد قال الامام الباقلاني في مقدمته عن سبب تأليفه لهذا الكتاب أن سائلا سأله أن يذكر (جملة من القول جامعة ، تسقط الشبهات ، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال وتنتهي الى ما يخطر لهم ، ويعرض لافهامهم من الطعن في وجه المعجزة) (١)

فأجابه الى ذلك وألف هذا الكتاب ، وقد قال أيضا في مقدمته أنه ألفه لأهل صناعة العربية ومن كان عنده من (محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه وعرف جملة من طرق المتكلمين ونظر في شيء من أصول الدين) (٢)

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات :-

- الطبعة الاولى : بمطبعة الاسلام بمصر في سنة ١٣١٥ هـ

- الطبعة الثانية : على هامش كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي المطبوع بالمطبعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ

- الطبعة الثالثة : علي هامش كتاب الاتقان أيضا المطبوع في المطبعة الازهرية سنة ١٣١٨ هـ .

- الطبعة الرابعة : في المطبعة السلفية بتحقيق الاستاذ محب الدين الخطيب

- الطبعة الخامسة : بتحقيق الاستاذ السيد أحمد صقر المطبوع في منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م وهي أحسن الطبعات .

أهم ما يشتمل عليه هذا الكتاب من موضوعات :-

بين الامام الباقلاني أن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مبنية على

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٦

(٢) نفس المصدر ص ٧

معجزة القرآن وعقد بعد ذلك فصلا بين فيه أن مجيء القرآن من جهة النبي صلى الله عليه وسلم ثابت ، فهو معجزته الكبرى ، ووثق مجيء القرآن عنه صلى الله عليه وسلم وأنه عليه السلام جعله علما على نبوته وعلمنا ذلك ضرورة .

ثم بين بعد ذلك أوجه اعجاز القرآن وقد ذكر ثلاثة أوجه في ذلك:

- الوجه الاول : ما تضمنه القرآن من الاخبار عن الغيوب .
- الوجه الثاني : اخباره صلى الله عليه وسلم عن قصص الاولين وسير المتقدمين فمن العجيب أن يعرف أخبارهم وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم ذلك .
- الوجه الثالث : أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه .

وعقد بعد ذلك فصلا شرح فيه هذه الاوجه التي تضمنها أعجاز القرآن ولما كانت بداعة النظم ترجع عنده الى عشرة أمور فقد شرح ذلك وبينه ،وبين مخالفته في الشكل والقالب لجميع ما عهد عن العرب في كلامهم ، فعقد فصلين لينفي فيهما عن القرآن أن يكون فيه من السجع أو الشعر .

ولما كان أيضا من بداعة النظم اشتماله على الفصاحة والبلاغة في جميع آياته وصوره مع عدم تفاوته حين ينقل في الاغراض ، وفي الحقيقة والمجاز وجميع صور البديع ، فقد عقد فصلا للبديع ليثبت أن ما رآه العرب من بديعهم رائعا يتضائل أمام ما في القرآن منمحكم التأليف .

وأخذ بعد ذلك يوازن بين كلام العرب وبين ما جاء في القرآن الكريم فساق من خطبهم الكثير واختار قصيدتين الاولى : لامرىء القيس ، والثانية : للبحتري ، وأخذ ينقد فيهما ليتحقق للناظر البعد بين كلام العرب و كلام رب العالمين .

وعقد فصلا بين فيه أن عجز سائر أهل العصور عن الاتيان بمثل القرآن ثابت كعجز أهل العصر الاول .

ثم تحدث بعد ذلك عن التحدي ووجه الحاجة اليه في القرآن ، ثم عقد فصلا في القدر المعجز في القرآن هل هو السورة طويلة كانت أم قصيرة كما ذهب الى هذا الاشاعرة أم كل سورة برأسها فهي معجزة كما ذهبت اليه المعتزلة .

ثم تحدث بعد ذلك عن اعجاز القرآن هل يعلم ضرورة أم استدلالا
وعقد فصلا لبيان ما يتعلق به الاعجاز أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك .

ثم بين بعد ذلك وصف وجوه من البلاغة .

وتحدث بعدها عن حقيقة المعجزة ، وبين أن حقيقة المعجز أن العباد لا يقدروا عليه ، وانما ينفرد الله بالقدرة عليه .

وعقد بعد ذلك فصلا في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - بين فيه أنه محال أن يكون القرآن من كلامه عليه السلام .

ثم ختم كتابه بعد ذلك بحمد الله الذي أعانه على اتمامه .

٢- كتاب التمهيد :-

وهو من أعظم كتب الكلام وقد ألفه الامام الباقلاني أثناء اقامته بشيراز لصمصام الدولة البويهي ابن عضد الدولة عندما دفع له ابنه ليعلمه مذهب أهل السنة والجماعة .

وموضوع الكتاب كعنوانه في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، فقد بين ذلك الامام الباقلاني في مقدمته حيث قال: (أما بعد فقد عرفت ايثار سيدنا الامير - أطال الله في دوام العز بقاءه وأدام بالتمسك بالتقوى ولزوم الطريقة المثلى نعماءه - .... لعمل كتاب جامع مختصر مشتمل على ما يحتاج اليه في الكشف عن معنى العلم وأقسامه وطرقه ومراتبه وضروب المعلومات وحقائق الموجودات ، وذكر الادلة على حدوث العالم واثبات محدثه وأنه مخالف لخلقه وعلى ما يجب كونه عليه من وحدانية وكونه حيا عالما قادرا في أزله وما جرى مجرى ذلك من صفات ذاته وأنه عادل حكيم فيما أنشأه من مخترعاته من غير حاجة منه اليها ولا محرك وداع وخاطر وعلل دعته الى ايجاده - تعالى عن ذلك - وجواز ارساله رسلا الى خلقه وسفراء بينه وبين عباده ، وأنه قد فعل ذلك وقطع العذر في ايجاب تصديقهم بما أبانه به من الايات ودل به على صدقهم من المعجزات وجمل من الكلام على سائر الملل المخالفين لملة الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس وأهل التثنية وأصحاب الطبائع والمنجمين) (١)

ومن هنا يمكن أن نبين بناءاً على هذه المقدمة أهم ما يشتمل عليه هذا الكتاب من موضوعات :-

تحدث الامام الباقلاني في الباب الاول في العلم وأقسامه وطرقه وفي الباب الثاني عن المعلومات والموجودات وأفضى به القول بعد ذلك في الباب الثالث الى اثبات وجود الله عز وجل وصفاته .

ثم أخذ بعد ذلك في الرد على سائر الملل والمخالفين لملة الاسلام فكان الباب الرابع في الكلام على القائلين بفعل الطبائع ، والخامس في الكلام على المنجمين والسادس في الكلام على أهل التثنية والسابع في الكلام على المجوس والثامن في الكلام على النصارى والتاسع في الكلام على البراهمة وخص الباب العاشر في الكلام على اثبات

---

(١) كتاب التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٣-٤

نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحدث في الباب الحادي عشر في اعجاز القرآن لانه معجزة محمد صلى الله عليه وسلم الكبرى ، ثم عاد الى الرد على باقي الملل فتكلم على اليهود في الاخبار ورد على منكري نسخ شريعة موسى .

ثم رد في الباب الثاني عشر الى الخامس عشر على بعض الفرق الاسلامية ، وتناول في الباب السادس عشر الرد على المجسمة وفي الباب السابع عشر رد على أبي هاشم في الصفات والاحوال .

أما الباب الثامن عشر فقد تحدث فيه عن الصفة وهل هي الوصف أم معنى سواه ، وفي الباب التاسع عشر تحدث عن الاسم ومما اشتقاقه وهل هو المسمى أو غيره ، أما الباب العشرون فقد نفى فيه القول بخلق القرآن .

وهذا دعاه الى الحديث عن مذهب المعتزلة في الباب الحادي والعشرين أما الباب الثاني والعشرون فقد ذكر أبوابا شتى في الصفات ، وتحدث في الباب الذي يليه عن جواز رؤية الله تعالى بالابصار ، وفي الباب الرابع والعشرين تحدث عن كون الله مريدا لجميع المخلوقات ، وتحدث في الباب الذي بعده عن الاستطاعة ، أما في الباب السادس والعشرين فخصه في ابطال التولد وبعد ذلك عقد الباب السابع والعشرين في خلق الافعال ، وتحدث في الباب الثامن والعشرين عن وجوب تسمية المعتزلة باسم القدرية وتلاه بباب في القول في أن الله قضى المعاصي وقدرها وبعد ذلك عقد أبوابا في الارزاق ، والاسعار ، والآجال ، والهدى ، والاضلال ، واللطف ، والتعديل والتجوير ، ومعنى الدين ، ومعنى الايمان والاسلام .

وتحدث في الباب الاربعين عن الشفاعة ، وختم الكتاب بالكلام في الامامة وذكر جمل من أحكام الاخبار .

وهذه الموضوعات مرتبة حسب طبعة المكتبة الشرقية تحقيق مكارثي .

وهذا الكتاب ذكره الامام الباقلاني في كتاب الفرق بين المعجزات والكرامات حيث قال : (قد بينا في التمهيد وشرح اللمع وغيرهما من الكتب استحالة كون المحدث فاعلا في غير محل قدرته) (١)

---

(١) الفرق بين المعجزات والكرامات للباقلاني ص ٨٨

وذكر هذا الكتاب أيضا الاسفراييني في التبصير في الدين (١) ونقل عنه الامام ابن تيمية رحمه الله في عدة مواضع من كتبه ، ففي الفتوى الحموية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (٢) نقل عنه كلاما في اثبات الاستواء وفي درء التعارض (٣) نقل ابن تيمية رحمه الله من التمهيد بعض النصوص أيضا الخاصة بالاستواء منها قوله :(فان قال قائل أتقولون : انه في كل مكان قيل له : معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر) (٤)

ونقل عنه الامام ابن القيم (٥) -رحمه الله - في اجتماع الجيوش الاسلامية (٦) كلاما في اثبات الاستواء ، كما ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (٧) وقد عد سزكين كتاب التمهيد من بين مؤلفات الامام الباقلاني (٨)

---

(١) التبصير في الدين للاسفراييني ص ١٩٣

(٢) الفتوى الحموية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٤٦٣/١

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٠٦/٦ ، وانظر ٣٨٢/٣

(٤) التمهيد للامام الباقلاني ص ٢٦٠

(٥) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعي ، ثم الدمشقي الفقيه الاصولي ، المفسر ، النحوي ، العارف ، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية ، ولد سنة ٦٩١ هـ وتوفي سنة ٧٥١ هـ ، تفنن في علوم الاسلام وكان عارفا في أصول الدين واليه فيه المنتهى ، والحديث وفقهه ، وفي شتى الفنون وكان تقيا ورعا فاضلا ، وصنف تصانيف كثيرة في أنواع العلم منها تهذيب سنن أبي داود ، وزاد المعاد ، وجلاء الافهام ، وأعلام الموقعين ، وبدائع الفوائد ومصائد الشيطان وغير ذلك.

انظر ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٤٤٧/٢

والبداية والنهاية ٢٤٦/١٤

والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠

(٦) اجتماع الجيوش الاسلامية لابن القيم ص ١٩١

(٧) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٨) تاريخ التراث العربي فؤاد سزكين ٣٨٦/٢

طبعات الكتاب :-

=١= طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى بتحقيق الاستاذين محمود محمد الخضيري والاستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة ، وأخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م ونشرته دار الفكر العربي .

ولكن - مع الاسف - فقد جاءت هذه الطبعة ناقصة لان المحققين الفاضلين قد طبعا كتاب التمهيد معتمدين على النسخة المخطوطة القديمة المحفوظة في المكتبة الاهلية في باريس ، مع أنهما كانا يعرفان أن لكتاب التمهيد مخطوطين آخرين موجودين في تركيا كان قد أشار اليهما الاستاذ الالماني المشهور هلموت ريتر ، ومع ذلك فقد اضطر الاستاذان الاعتماد على النسخة الباريسية وحدها دون الرجوع الى باقي النسخ ، وتعللا بصعوبة الحصول عليها أيام اعداد الكتاب وأثبتا هذه الصعوبة بقولهما : (وهي صعوبة لا تزال قائمة لان معظم كنوز المخطوطات في تركيا لا تزال بسبب عدم الاستقرار في الظروف الحالية في مخابئها في جبال الاناضول) (١)

ولهذه الاسباب فقد كان اعتمادهما على النسخة الباريسية الناقصة التي سقط منها جزء كبير من هذا الكتاب القيم .

=٢= ثم طبع هذا الكتاب بعد ذلك في بيروت بالمكتبة الشرقية سنة ١٩٥٧ م بتحقيق الاب رتشرد يوسف مكارثي ، وقد جاءت أفضل من الطبعة الاولى بكثير لأنّ مكارثي اعتمد في تحقيقه على ثلاث نسخ :

- نسخة مكتبة أيا صوفية تحت رقم (٢٢٠١) ذكرها الاستاذ هلموت ريتر وذكر أن تاريخ كتابتها يرجع الى عام (٤٧٨هـ)

- نسخة مكتبة مصطفى عاطف تحت رقم (١٢٢٣) وقد نقلت ادارة الثقافة بالجامعة العربية بالقاهرة ، صورة شمسية منها وعدد أوراقها (٢٤٧) ورقة وتاريخ كتابتها (٥٥٥ هـ).

- نسخة باريس ، ويرجح أن تاريخ كتابتها يرجع الى عام (٤٧٢هـ) وعدد أوراقها نحو تسعين و رقة .

قال مكارثي : فان (كلا المخطوطين التركيين يتضمنان عدة أبواب متتابعة لا وجود لها في المخطوط الباريسي) (٢)

---

(١) مقدمة التحقيق لكتاب التمهيد تحقيق ابو ريدة والخضيري ص ٢٩

(٢) مقدمة التحقيق لكتاب التمهيد تحقيق مكارثي ص ٢٠

لهذه الاسباب المتقدمة كان اعتمادي على طبعة مكارثي أكثر في هذا البحث مع رجوعي الى طبعة الخضيري وأبو ريدة في بعض الاحيان ، فان هذا الكتاب يعتبر من المراجع الهامة والاساسية في هذا البحث غير أن مكارثي مع الاسف لم يصدر نشرة كاملة للكتاب فقد أسقط نشر الابواب المتعلقة بالامامة واعتذر عن ذلك بسببين :-

الاول : أن هذه الابواب مدخل لكتاب " مناقب الأئمة " وهو يرى أن الافضل أن يطبع في كتاب واحد فيضم باب الامامة من كتاب التمهيد والمجلد الثاني من مناقب الائمة ويطبعا سويا (١)

والثاني : أنه لا يرى نفسه مستعدا لتولي مثل هذا العمل الشاق على حد تعبيره (٢)

أقول أن هذين العذرين غير مقبولين فلا يجوز بتر كتاب من أجل ضمه الى كتاب آخر ، ثم أن من يقوم بتحقيق كتاب عظيم مثل كتاب التمهيد لا يعقل أنه لا يستطيع تحقيق الباقي وهو الجزء المتعلق بالامامة لانه من أيسر وأسهل أبواب علم الكلام .

=٣= وقد ظهرت طبعة جديدة للكتاب بعد أن جمعت المادة العلمية معتمدا على طبعة مكارثي ، بتحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر وهي تقريبا نفس تحقيق مكارثي الا أنه قد ضم اليه الحذف الذي حذفه مكارثي فقد كان اعتماده في تحقيق هذا الكتاب كما يقول على على الطبعتين المتقدمتين ، طبعة المكتبة الشرقية بتحقيق مكارثي وطبعة دار الفكر العربي بتحقيق أبو ريدة والخضيري فضمنها الحذف الذي حذفه مكارثي والمتعلق بباب الامامة وأتم النقص الحاصل في نسخة أبو ريدة والخضيري وأخرج نسخة تامة كاملة للكتاب (٣) وقد طبع بمؤسسة الكتب الثقافية سنة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) بيروت .

---

(١) انظر مقدمة المحقق للتمهيد تحقيق مكارثي ص ٢٢

(٢) انظر مقدمة التحقيق للتمهيد تحقيق مكارثي ص ٢٢

(٣) انظر مقدمة محقق التمهيد تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر ص ٢١

٣- رسالة الحرة :-

وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثري سنة (١٣٦٩هـ) تحت عنوان ((الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به)) وقد ذهب الاستاذ السيد أحمد صقر الى أن رسالة الحرة هي كتاب الانصاف وأن اسم الكتاب وهو الانصاف دخيل على مؤلفات الباقلاني وأن اسمه الصحيح هو رسالة الحرة (١) وهذا هو الصحيح والراجح .

فان الامام الباقلاني رحمه الله قال في مقدمته (أما بعد فقد وقفت على ما التمسته الحرة الفاضلة الدينة - أحسن الله توفيقها - لما تتوخاه من طلب الحق ونصرته ، وتنكب الباطل وتجنبه ، واعتماد القربة باعتقاد المفروض في أحكام الدين واتباع السلف الصالح من المؤمنين ، من ذكر جمل ما يجب على المكلفين اعتقاده ولا يسع الجهل به ، وما اذا تدين به المرء صار الى الالتزام الحق المفروض ، والسلامة من البدع والباطل المفروض ، واني بحول الله تعالى وعونه ، ومشيئته وطوله ، أذكر لها جملا مختصرة تأتي على البغية من ذلك ، ويستغنى بالوقوف عليها عن الطلب واشتغال الهمة بما سواه) (٢)

ومما يؤيد ذلك أيضا أن الذي ذكره القاضي عياض ضمن مؤلفات الباقلاني هو رسالة الحرة ولم يذكر كتاب الانصاف (٣)

وقد ذكر ابن حزم رسالة الحرة في الفصل ونسب اليه القول بتناسخ الارواح (٤)

ونقل عنه ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في كتابه اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو الجهمية والمعطلة حيث قال : (ذكر قوله في رسالة الحرة قال في كلام ذكره في الصفات وأن له وجها ويدين ، وأنه ينزل الى سماء الدنيا) (٥)

---

(١) انظر مقدمة التحقيق في كتاب اعجاز القرآن بقلم السيد أحمد صقر ص ٤٥-٤٦

(٢) مقدمة الانصاف للباقلاني طبعة مؤسسة الخانجي ص ١٣

(٣) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٧٠/٧

(٤) انظر الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم ٨٥/٥

(٥) اجتماع الجيوش الاسلامية لابن القيم ص١٩٣

أما أهم ما يشتمل عليه هذا الكتاب من موضوعات :-

فأقول ان هذا الكتاب من أهم المصنفات في العقيدة الاسلامية لان معظم أبوابه في مسائل الاعتقاد .

وقد بدأ المصنف كتابه في تقسيم العلم الى قسمين علم الله ، وعلم الخلق ، ثم بين أن علم الخلق ينقسم الى ضروري ونظري ووضح القول فيهما .

وبين بعد ذلك أنواع الاستدلال العقلي والنقلي .

ثم بدأ بتقسيم المحدث وبين أنه لا بد له من محدث ، ممهدا بذلك لاثبات وجود الله ، ثم بين الطرق التي يدرك بها الحق والباطل ثم تحدث عن بعض صفات الله عز وجل وفي اثبات توحيد الله عز وجل واثبات رؤيته يوم القيامة بايجاز .

ثم تحدث بايجاز عن بعض المغيبات مثل اثبات عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ورجوع الروح الى الميت ، ونصب الصراط والميزان والحوض والشفاعة والجنة والنار .

ثم عرف الايمان والاسلام ، وبين بعدها جواز ارسال الله للرسل والانبياء ثم أقام الدليل على اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم اثبت امامة الخلفاء الراشدين ، ثم عقد فصلا مطولا بعد ذلك في الكلام على خلق القرآن ورد فيه على المعتزلة القائلين بذلك

كما عقد فصلا مطولا أيضا في الرد على المعتزلة في قضية خلق الله لأفعال العباد ثم رد على المعتزلة بعد ذلك في مسألة الشفاعة وختم الكتاب بفصل مطول في اثبات رؤية الله عز وجل يوم القيامة ورد فيه أيضا على المعتزلة في انكارهم لذلك .

٤ـ كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات :-

من الكتب الهامة المطبوعة للباقلاني ، كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات ، عني بتصحيحه ونشره الاب رتشرد يوسف مكارثي وطبع بالمكتبة الشرقية في بيروت سنة ١٩٥٨ م ، وهو كتاب عظيم في بابه وحيد من نوعه فيتصانيف علماء الاسلام الاولين ، لانه يتحدث عن المعجزات من حيث هي معجزات ويوضح الاسس التي تعتمد عليها المعجزة من حيث كونها معجزة كما يبين شروط المعجزة وأحكامها .

قال الامام الباقلاني في مقدمته : (وقد أملينا منذ سنين كلاما في هذا الباب على المعروف بابن المعتمر الرقي ، وذكر لنا أنه انتسخ منه بالحرم - حماه الله وحرسه - وظننا اكتفاء أصحابنا من أهل الديار وغيرها - ايدهم الله -

والان فقد عرفنا ما وصفتموه من شدة الحاجة الى شرح القول في فصول هذا الباب وذكر العمل منه على ايجاز واختصار ، ونحن بعون الله وكرمه مجيبون لكم الى ما سألتم وقائلون فيه قولا بليغا مقنعا ، وماتوفيقي الا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل) (١)

ثم ختم المقدمة بقوله : (ليكون الكتاب مشتملا على نصرة مذاهب السلف والقدوة من المسلمين والقدح في شبه الزائغين وبدع الضالين والمنحرفين فانه خير ناصر وأكرم معين) (٢)

وقد ذكر هذا الكتاب بروكلمان في تاريخ الادب العربي ٥١/٤ وقال ان هناك نسخة منه في مكتبة توبنجن تحت رقم ٩٢.

وذكر الاستاذ سزكين هذا الكتاب وقال : انه موجود في توبنجن تحت رقم ٩٢ وعدد أوراقه ٤٥ ورقة وتاريخها يرجع الى سنة ٦٩٥ هـ ،قال ونشره مكارثي ببيروت سنة ١٩٥٨ م (٣)

أهم ما يشتمل عليه هذا الكتاب من موضوعات :ـ

عقد الامام الباقلاني-رحمه الله-الباب [illegible] ة المعجز وقال : أنه مما ينفرد الله عز وجل بالقدرة عليه ولا يصح دخوله تحت قدر الخلق من الملائكة والبشر والجن .

---

(١) مقدمة كتاب الفرق بين المعجزات والكرامات للباقلاني ص ٦

(٢) نفس المرجع ص ٧

(٣) انظر تاريخ التراث العربي ٣٨٦/٢

ثم عقد الباب الثاني في بيان ما يختص به النبي مما يقتضي اظهار المعجزة على يده فبين أن ما يختص به النبي مما يقتضي اظهار المعجزات على يده هو ادعاؤه الرسالة على الله تعالى وكونه مخبرا عنه وسفيرا بينه وبين خلقه .

ثم بين بعد ذلك صفات المعجزات وأحكامها ، فجعل من صفات هذه المعجزات :-

أ- أن تكون من أفعال الله سبحانه التي ينفرد بالقدرة عليها دون سائر خلقه ودلل على ذلك .

ب - وأن يكون ذلك الشيء الذي يظهر على أيديهم مما يخرق العادة وينقضها ومتى لم يكن كذلك لم يكن معجزا ودلل على ذلك .

ج - وأن لا يشاركه غيره في هذا الادعاء الخارق للعادة على نفس الوجه الذي تحدى به النبي قومه وسرد الادلة على ذلك .

د - أن يكون هذا المعجز واقعا مفعولا عند تحدي النبي عليه السلام بمثله وادعائه آية له ولنبوته . وذكر الادلة على ذلك .

ثم تحدث عن معنى العادة وعن معنى انخرامها بالمعجز ، لان الانخرام شرط من شروط المعجزة أي تكون خارقه للعادة فبين ما هي العادة وأنها على أنواع وضروب .

ثم تحدث بعد ذلك عن انفصال المعجزات من الحيل والنارنجات (١) والشعوذة (٢) وبين بماذا تنفصل المعجزات من هذه الحيل والنارنجات .

ثم بين بعد ذلك أن ما ذكره من المعجزات لا يدخل تحت قدر العباد ورد على المعتزلة في انكارهم لذلك .

ثم تحدث بعد ذلك عن وجود السحر ، فأثبت أن له حقيقة وأنه موجود بشهادة القرآن والاخبار .

وبين بعد ذلك بأن الساحر لا يعمل شيئا في المسحور بل ذلك كله من فعل الله ، وسيأتي الكلام على هذا في موضعه من البحث .

ثم ختم الكتاب في الكلام عن القول الفصل بين المعجز والسحر فبين أن هناك فرقا كبيرا بين عمل الساحر ومعجزة النبي وأثبت ذلك بالادلة القاهرة و الحجج الباهرة .

---

(١) هكذا جاءت في نص الكتاب، وأما الشكل الاعتيادي فهو" النيرنجيات" أو "النيرنجات" ونيرنج بمعنى المكر والحيلة وهي ضرب من السحر والطلسم . انظر تعليقات وايضاحات مكارثي على كتاب البيان للباقلاني ص ١٧، ص ١١٢

(٢) جاء في تاج العروس أن الشعوذة هي: (خفة في اليد ومخاريق وأخذ كالسحر يري الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين ...... والشعوذة السرعة وقيل هو الخفة في كل أمر)
تاج العروس للزبيدي فصل الشين من باب الذال ٥٦٦/٢

ثانيا : مؤلفات الامام الباقلاني المخطوطة :-

أما بالنسبة لمؤلفات الامام الباقلاني المخطوطة فسأذكر منها ما وصلنا من أسماء هذه المؤلفات مشيرا الى مكانها ان وجد مع ذكر المراجع التي ذكرتها و أقوال بعض العلماء فيها ٠

ومن هذه المؤلفات :-

١- كتاب الابانة عن ابطال مذهب أهل الكفر والضلالة :-

ذكره القاضي عياض ضمن مؤلفات الامام الباقلاني (١) ونقل عنه ابن تيمية - رحمه الله - في العقيدة الحموية الكبرى (٢) وابن القيم - رحمه الله - في اجتماع الجيوش الاسلامية (٣) وابن العماد في شذرات الذهب (٤) وذكره الشيخ محمد مخلوف في شجرة النور الزكية (٥)

٢- كتاب كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الكفر والعناد :-

قد أشار اليه الامام الباقلاني في كتاب التمهيد (٦) وذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (٧) ٠

٣- كتاب اكفار المتأولين وحكم الدار :-

ويبدوا أنه قد ألفه قبل كتاب التمهيد ، فقد أشار اليه في التمهيد حيث قال : (وقد ذكرنا ما في هذا الباب ، في كتاب اكفار المتأولين وذكرنا ما روي في معارضتها ، وقلنا في تأويلها ما يغني الناظر فيه ان شاء الله) (٨) ذكر ذلك في باب ما يوجب خلع الامام وسقوط فرض طاعته ٠

---

(١) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٢) انظر العقيدة الحموية الكبرى لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٤٦٢/١

(٣) انظر اجتماع الجيوش الاسلامية لابن القيم ص ١٩٣

(٤) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٦٩/٣-١٧٠

(٥) انظر شجرة النور الزكية محمد مخلوف ص ٩٣

(٦) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق أبو ريدة والخضيري ص ٤٠ ، وطبعة مكارثي ص ١٤

(٧) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ٦٩/٧

(٨) التمهيد للباقلاني تحقيق أبو ريدة والخضيري ص ١٨٦

٤- التعديل والتجوير :-

ذكره القاضي عياض ضمن مؤلفات الباقلاني (١)

٥- كتاب شرح اللمع :-

ذكره القاضي عياض ضمن مؤلفات الامام الباقلاني (٢) ، وهو شرح كتاب اللمع لابي الحسن الاشعري - رحمه الله - شرحه الباقلاني لجماعة بشيراز أثناء اقامته فيها ، وقد تحدث الامام ابن تيمية عن هذا الكتاب عندما أشار اليكتاب اللمع لابي حسن حيث قال : (وقد شرحوه شروحا كثيرة من أجلها شرح القاضي أبي بكر) (٣)

ونقل عنه الإمام ابن تيمية - رحمه الله - في درء تعارض العقل والنقل (٤) وأشار اليه الباقلاني في كتاب الفرق بين المعجزات والكرامات حيث قال : (قد بينا في التمهيد وشرح اللمع وغيرهما استحالة كون المحدث فاعلا) (٥)

وذكره الشيخ محمد مخلوف في شجرة النور الزكية (٦)

٦- الامامة الكبيرة :-

وقد ذكره ابن حزم في كتابه الفصل (٧) ونقل عنه شروط الامامة ونقد فيه رأي الباقلاني في شروط الامامة ، وأشار اليه الاستاذ سزكين في تاريخ التراث العربي (٨) ، وذكره الشيخ محمد مخلوف في شجرة النور الزكية (٩) وذكره القاضي عياض (١٠)

---

(١) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٢) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٣) درء التعارض لابن تيمية ٧٠/٨

(٤) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣٠٤/٧

(٥) الفرق بين المعجزات والكرامات للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٨٨

(٦) انظر شجرة النور الزكية الشيخ محمد مخلوف ص ٩٣

(٧) انظر الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم ٩٥/٥

(٨) انظر تاريخ التراث العربي سزكين ٣٨٧/٢

(٩) انظر شجرة النور الزكية الشيخ محمد مخلوف ص ٩٣

(١٠) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

٧- كتاب الامامة الصغيرة :- ويقصد بها تولي الوظائف العامة مثل القضاء وامامة الصلاة وما شابه ذلك ذكره القاضي عياض (١) وأشار اليه الشيخ مخلوف في شجرة النور الزكية (٢)

٨- كتاب شرح أدب الجدل :-

ومن عنوانه يبدوا أنه في أدب الجدل والمناظرات ، وهذا ان دل على شيء يدل على ما كان عليه عصره من كثرة الجدل والمناظرات ، ذكره القاضي عياض ضمن مؤلفات الباقلاني (٣)

٩- كتاب الاصول الكبير في الفقه :-

ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (٤)

١٠ - كتاب الاصول الصغير :-

ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (٥)

١١ - هداية المسترشدين والمقنع في معرفة أصول الدين :-

يوجد منه قسم في مكتبة الازهر تحت رقم ٣٣٧/٣، كلام ٢١ ويشتمل على ٢٤٨ ورقة ، ومعظمها يقتصر على القول في النبوات ، وهي نسخة سيئة وتالفة (٦) ، وقد أشار اليه الاسفرايينى في التبصير في الدين (٧) ، وذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (٨)

١٢ - كتاب الانتصار لصحة نقل القرآن :-

أشار اليه ابن حزم في الفصل (٩) ، وذكره الاستاذ سزكين (١٠)

---

(١) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٢) انظر شجرة النور الزكية الشيخ محمد مخلوف ص ٩٣

(٣) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٤) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٥) نفس المصدر ٦٩/٧

(٦) انظر تاريخ التراث العربي فؤاد سزكين ٣٨٧/٢
وانظر مقدمة سيد صقر لاعجاز القرآن ص ٣٨-٣٩

(٧) انظر التبصير في الدين ص ١٩٣

(٨) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٩) انظر الفصل لابن حزم ٩٠/٥، ٩١، ٩٢

(١٠) انظر تاريخ التراث العربي سزكين ٣٨٦/٢

والشيخ محمد مخلوف (١) ، وحاجي خليفة في كشف الظنون (٢) ، وذكره اسماعيل باشا (٣) والقاضي عياض (٤) ، وله مختصر بعنوان نكت الانتصار لصحة نقل القرآن لابي عبد الله الصيرفي ترتيب الشيخ عبد الجليل بن أبي بكر الطابوني وهو مطبوع وقام بتحقيقه الدكتور محمد زغلول سلام ، ونشرته منشأة المعارف بالاسكندرية .

١٣ - كتاب دقائق الحقائق :-

ذكره القاضي عياض (٥) وعنوانه دقائق الكلام والرد على من خالف الحق من الاوائل ومنتحلي الاسلام ، وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٦) أن للباقلاني كتابا اسمه دقائق الحقائق ، وهو نفس الكتاب .

وذكر ابن تيمية في الرد على المنطقين كتاب الدقائق للباقلاني حيث قال : (وكذلك القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب الدقائق الذي ردفيه على الفلاسفة والمنجمين ورجح فيه منطق المتكلمين من العرب على منطق اليونان) (٧)

١٤ - كتاب مناقب الائمة ونقض المطاعن على سلف الامة :-

وقد ذكره الامام الباقلاني في كتابه التمهيد (٨) يوجد الجزء الثاني منه في المكتبة الظاهرية بدمشق عمومية تحت رقم ٦٦/٨٥ ، وعدد أوراقها ٢٣٥ ورقة وتاريخها ٥٩٨ هـ (٩)

---

(١) انظر شجرة النور الزكية ص ٩٣

(٢) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة ١٧٣/١

(٣) انظر هداية العارفين اسماعيل باشا ٥٩/٦

(٤) انظر ترتيب المدارك ٦٩/٧

(٥) انظر المرجع السابق ٦٩/٧

(٦) انظر البداية والنهاية ٣٧٤/١٢

(٧) الرد على المنطقين لابن تيمية ص ٣٣٤

(٨) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق الخضيري وأبو ريدة ص ٢٢٩

(٩) انظر تاريخ التراث العربي ٣٨٦/٢

وانظر تاريخ الادب العربي لبروكلمان ٥٢/٤

وقد ذكره الشيخ مخلوف (١) ، وذكره حاجي خليفة وقال : (هو كتاب حافل بين فيه أن الصحابة مأجورون على ما شجر بينهم) (٢)

وذكره أيضا اسماعيل باشا البغدادي في هداية العارفين (٣) ، والقاضي عياض في ترتيب المدارك (٤)

١٥ - كتاب كشف الاسرار وهتك الاستار في الرد على الباطنية :-

قال الامام ابن كثير عنه : (ومن أحسنها كتابه في الرد على الباطنية الذي سماه كشف الاسرار وهتك الاستار) (٥)

وقال الامام ابن تيمية - رحمه الله - عند حديثه عن الشيعة من القرامطة الباطنية والاسماعيلية والنصيرية ونحوهم ، قال : (فاولئك أمرهم أظهر من أن يخفى على من عرف حالهم ، ولهذا كثر الكاشفون لاسرارهم الهاتكون لاستارهم من جميع أهل القبلة وصنف القاضي أبو بكر كتابه المشهور فيهم) (٦)

وقال أيضا : (ولولم يكن الا كتاب كشف الاسرار وهتك الاستار للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب) (٧) لكفى في الرد عليهم ويقصد الباطنيه

وقال عنه الامام تاج الدين السبكي عندما تحدث عن الفاطميين (وقد بين نسبهم جماعة منهم القاضي أبو بكر الباقلاني ، فانه كشف في أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنية ، بطلان نسب هؤلاء الى الامام علي كرم الله وجهه) (٨) ، وذكره سزكين (٩) ، وبروكلمان (١٠) وحاجي خليفة (١١)

---

(١) انظر شجرة النور الزكية لمخلوف ص ٩٣

(٢) كشف الظنون لحاجي خليفة ١٨٤١/٢

(٣) انظر هداية العارفين لاسماعيل باشا ٥٩/٦

(٤) انظر ترتيب المدارك ٧٠/٧

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ٣٧٤/١٢

(٦) درء التعارض لابن تيمية ٨/٥

(٧) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ١٤٢

(٨) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي تحقيق د/ الطناحي و الحلو ١٨/٧

(٩) انظر تاريخ التراث العربي سزكين ٣٨٧/٢

(١٠) انظر تاريخ الادب العربي لبروكلمان ٥٢/٤

(١١) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة ١٤٨٥/٢

واسماعيل باشا (١) ، والقاضي عياض (٢)

١٦ - كتاب نقض النقض :-

وقد ذكره أبو المظفر الاسفراييني في التبصير في الدين (٣)

١٧ - كتاب الايمان :-

وقد ذكره الاستاذ السيد أحمد صقر بناء على كلام رآه لابن تيمية في مجموعة الرسائل الكبرى رسالة الفرقان بين الحق والباطل ، يقول فيه بعد أن تحدث عن أقوال الناس في مسمى الايمان : (وقد رأيت لابن الهيصم فيه مصنفا في أنه قول اللسان فقط ، ورأيت لابن الباقلاني فيه مصنفا في أنه تصديق القلب فقط) (٤)

١٨ - كتاب نهاية الايجاز :-

وقد ذكره اسماعيل باشا البغدادي (٥)

١٩ - كتاب الكسب :-

وقد ذكره الاسفراييني في التبصير في الدين (٦)

٢٠ - كتاب التقريب والارشاد في أصول الفقه :-

وذكره القاضي عياض وقال عنه انه كتاب كبير (٧) ، وذكره الاسفراييني في التبصير في الدين (٨)

٢١- كتاب التبصرة :-

ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٩) ، وذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (١٠)

---

(١) انظر هداية العارفين اسماعيل باشا ٥٩/٦

(٢) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٧٠/٧

(٣) انظر التبصير في الدين للاسفراييني ص ١٩٣

(٤) رسالة الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٤٣/١

(٥) انظر ايضاح المكنون لاسماعيل باشا ٦٩١/٤
وانظر هداية العارفين له ٥٩/٦

(٦) انظر التبصير في الدين للاسفراييني ص ١٩٣

(٧) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧

(٨) انظر التبصير في الدين للاسفراييني ص ١٩٣

(٩) انظر البداية والنهاية ٣٧٤/١٢

(١٠) انظر ترتيب المدارك ٧٠/٧

- باقي مصنفات الامام الباقلاني التي ذكرها القاضي عياض في ترتيب المدارك (١) ولم نجد لها ذكرا في الكتب الاخرى :-

٢٢ - كتاب : مسائل من الاصول

٢٣ - كتاب : أمالي اجماع أهل المدينة

٢٤ - كتاب : فضل الجهاد

٢٥ - كتاب : المسائل والمجالسات المنثورة

٢٦ - كتاب : في الرد على المتناسخين

٢٧ - كتاب : الحدود في الرد على أبي طاهر محمد بن عبد الله بن القاسم

٢٨ - كتاب : الرد على المعتزلة فيما اشتبه عليهم من تأويل القرآن

٢٩ - كتاب : المقدمات في أصول الديانات

٣٠ - كتاب : نصرة العباس وامامة بنيه ، وكان الباقلاني ضد الشيعة والفاطميين يحمل عليهم وينتصر لاهل السنة ومنهم العباسيون

٣١ - كتاب : المسائل القسطنطينية

٣٢ - كتاب : جواب أهل فلسطين

٣٣ - كتاب : البغداديات

٣٤ - كتاب : النيسابوريات

٣٥ - كتاب : الجرجانيات

٣٦ - كتاب : الاصبهانيات

٣٧ - كتاب : المسائل التي سأل عنها ابن عبد المؤمن

٣٨ - كتاب : نقض النقض على الهمذاني

٣٩ - كتاب : المقنع في أصول الفقه

٤٠ - كتاب : الكرامات

٤١ - كتاب : نقض الفنون للجاحظ

٤٢ - كتاب : تصرف العباد والفرق بين الخلق والاكتساب

٤٣ - كتاب : الاحكام والعلل

٤٤ - كتاب : الدماء التي جرت بين الصحابة

٤٥ - كتاب : البيان عن فرائض الدين وشرائع الاسلام ووصف ما يلزم من جرت عليه الاقلام من معرفة الاحكام .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٩/٧-٧٠

٤٦ ـ كتاب : مختصر التقريب والارشاد الاصغر

٤٧ ـ كتاب : مختصر التقريب والارشاد الاوسط ، قال القاضي عياض ولم أره (١)

٤٨ ـ كتاب : رسالة الامير

٤٩ ـ كتاب : في امامة بني العباس ، وقد يكون ما سبق ذكره تحت عنوان نصرة العباس وامامة بنيه

هذا ما وقفت عليه من مصنفات الامام الباقلاني مطبوعا أو مخطوطا أو مفقودا مما ذكره العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ ٠

---

(١) انظر ترتيب المدارك ٧٠/٧

الـفـصـل الـثـالـث

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
xxxxxxxxxxxxxxxxxx

منهج الامام الباقلاني في الاستدلال على العقائد

تعددت طرق العلماء في الاستدلال على مسائل العقيدة خاصة فيما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى واسمائه وصفاته ، فان أهم ما يميز لنا شخصية المفكر العلمية ، ويوضح لنا آراءه ومذهبه انما هو منهجه في معالجة المسائل الدينية والعقدية والفكرية .

فقد ذهب بعض المتكلمين وخاصة المعتزلة الى تقديم العقل على النقل في مسائل الاعتقاد ، واعتبروا العقل هو الاساس في اثبات مسائل العقيدة ، فكل مسألة من المسائل يعرضونها على العقل ، فما قبله أقروه وما لم يقبله رفضوه .

فان المعتزلة قد آمنوا بالله وما جاء به رسوله ، الا انهم تأثروا الى حد كبير بالفلسفة اليونانية وأحدث هذا في حياتهم انقلابا خطيرا وفي تفكيرهم ثورة عنيفة ، لأنهم بعد دراستها والتعمق فيها تعلقوا فيها فنتج عن ذلك محاولتهم التوفيق بين العقل والنقل ، وتقديم العقل على النقل . (١)

ويعزو الامام أبو زهرة تمسكهم بالقضايا العقلية وتقديمها على النقل لأسباب أهمها :-

الاول : نظرا لوجودهم في العراق وفارس ، وقد كان فيها أصداء لمدنيات وحضارات قديمة .

الثاني : لأن أكثر المعتزلة من سلالات غير عربية فقد كان أكثرهم من الموالي .

والثالث : سريان كثير من آراء الفلاسفة الاقدمين اليهم لاختلاطهم بكثير من اليهود والنصارى وغيرهم ، ممن كانوا حملة هذه الافكار ونقلتها .

---

(١) انظر العقيدة الاسلامية بين السلفية والمعتزلة د/ محمود خفاجي ص ٤٦ ، واسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة ص ٣٦١ .

وفي آخر العصر الاموي والعصر العباسي تواردت على العقل العربي الفلسفة الهندية والفلسفة اليونانية ، وجاءت هذه الفلسفة الى المسلمين عن طريق الفرس ، لأن الثقافة الفارسية كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية . وكذلك جاءت عن طريق اليونان انفسهم ، فقد كان بعض الموالي من المسلمين يجيد اليونانية ، وقد تأثر المعتزلة بهذه الفلسفة في آرائهم واخذوا عنها كثيرا في استدلالهم فظهرت في أدلتهم ومقدمات اقيستهم . (١)

أما عند علماء السلف فانهم اثبتوا اتفاق الدليل العقلي مع الدليل النقلي ، وقدموا الدليل النقلي من الكتاب والسنة على أدلة العقول .

فان الدليلين العقلي والنقلي ان تعارضا فان تعارضهما يأتي بسبب ضعف أحدهما أو كليهما ، أما اذا كان الدليلان قطعيين فلا يقع التعارض بينهما سواء أكانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقليا والآخر سمعيا .

واذا أردنا أن نرى أين وقف الامام الباقلاني من هذه المناهج رأيناه يجمع بين العقل والنقل في الاستدلال على معظم المسائل العقدية ، الا انه ينهج في المسائل التي يعرضها في مؤلفاته الى التوسع في القضايا وفي عرض الحجج والاستدلال عليها بالادلة العقلية والنقلية ، وقد أخذ عليه بعض العلماء اسرافه في سرد الادلة وفي منهجه الجدلي الذي تميز به دون غيره من العلماء .

ولا شك أن الامام الباقلاني قد اعتنى في استدلاله بالادلة النقلية لاثبات مسائل العقيدة ، مع عدم اهمال الادلة العقلية الى جانب النقلية وفي معظم المسائل يقدم فيها النقل على العقل ، ونأخذ لذلك مثلا فعند اثباته لصفتي السمع والبصر حيث أورد أدلته النقلية على اثباتها فقال: (ويجب أن يعلم أنه سميع لجميع المسموعات ، بصير لجميع المبصرات والدليل عليه قوله تعالى : ((وهو السميع البصير)) (٢)

---

(١) انظر تاريخ المذاهب الاسلامية لابي زهرة ١/١٤٤-١٤٥ ، وضحى الاسلام لاحمد أمين ٣/٧-١١

(٢) الشورى الاية ١١

وقوله تعالى : ((قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير)) (١)) (٢) وغير ذلك من الايات ٠

ثم ذكر بعدها دليله العقلي وهو قوله : (وايضا : فانه لو لم يوصف بالسمع والبصر لوجب أن يوصف بضد ذلك من الصم والعمى والله يتعالى عن ذلك علوا كبيرا) (٣)

وهكذا فعل في باقي الصفات ، فقد أثبت هذه الصفات وأورد الادلة النقلية على ثبوتها ثم عقب بعد ذلك بالادلة العقلية ، وهذا هو الذي ارتضاه السلف في باب الصفات العقلية ٠

وأما في باب الصفات الخبرية فان طريق ثبوتها هو النص الصحيح من الكتاب أو السنة أو بهما معا ، وقد التزم ايضا بهذا الامام الباقلاني الا أنه عند تطبيق هذا المنهج على جميع الصفات خالف في بعضها ـ كما سيأتي معنا ـ

وايضا فان القاضي الباقلاني خالف منهجه هذا من تقديم النقل على العقل حيث سلك في بعض المسائل وأخذ بالدليل العقلي دون النقلي كما في قضية الوحدانية ، فعند اثبات الامام الباقلاني لوحدانية الله سلك مسلك المتكلمين في تقديم الدليل العقلي واستدل على وحدانية الله تعالى بدليل التمانع وهو دليل عقلي صرف ، دون الرجوع في ذلك الى الادلة النقلية حيث النصوص القرآنية والاحاديث النبوية الكثيرة التي تثبت وحدانيته سبحانه وتعالى كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد ٠

ومن الملاحظ ايضا على منهج الامام الباقلاني أنه غالبا ما يهتم بعد ايراد المسألة برأي الخصوم ويرد عليهم ويناقشهم كما فعل عند بحث مسألة القول بخلق القرآن ، وكما فعل في باب الصفات وخاصة الصفات الخبرية وقد رد على من تأول هذه الصفات ٠

---

(١) المجادلة الاية ١

(٢) الانصاف للباقلاني ص ٣٧

(٣) نفس المصدر ص ٣٧

ومن الاشياء الهامة التي يجب علينا بيانها مصطلحات الامـــام الباقلاني في الاستدلال والدليل وما يتعلق بذلك .

فالدليل في اللغة : (هو المرشد وما به الارشاد ، وفي الاصطلاح : هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر) (١)

فقد عني الامام الباقلاني بتحديد مصطلحاته في الاستدلال عنايـــة كبيرة لذا فانه قد بين المعاني الاصطلاحية لهذه الالفاظ كالاستدلال ، والدليل والدال ، والمدلول والمستدل .

ـ فالاستدلال عنده : (نظر القلب المطلوب به علم ما غاب عن الضرورة والحس) (٢)

وقال في موضع آخر بأن الاستدلال : (تقسيم المستدل ، وفكـــره في المستدل عليه وتأمله له ، المطلوب به علم حقائق الامور) (٣)

ـ وأما الدليل : فقد عرفه بأنه (ما أمكن أن يتوصل بصحيح النظر فيه الى معرفة ما لا يعلم باضطرار) (٤)

وعرفه تعريفا آخر بقوله : (هو المرشد الى معرفة الغائب عـــن الحواس وما لا يعرف باضطرار ، وهو الذي ينصب من الامارات ويورد من الايماء والاشارات ، مما يمكن التوصل به الى معرفة ما غاب عن الضرورة والحس ومنه سمي دليل القوم دليلا ، وسمت العرب أثر اللصوص دليلا عليهم ، ومنه سميـــت الاميال والعلامات المنصوبة والنجوم الهادية أدلة لما أمكن أن يتعرف بهـا ما يلتمس علمه) (٥)

وقسم الامام الباقلاني الدليل الى ثلاثة أنواع :ـ

ـ١ـ <u>الدليل العقلي</u> : وقد عرفه بأنه (ما له تعلق بمدلولـــه نحو دلالة الفعل على فاعله ، وما يجب كونه عليه من صفاته نحو حياتـــه وعلمه ، وقدرته ، وارادته) (٦)

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٤٠

(٢) الانصاف للباقلاني ص ١٥

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٤

(٤) الانصاف للباقلاني ص ١٥

(٥) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٣ـ١٤

(٦) الانصاف للباقلاني ص ١٥

٢- الدليل السمعي والشرعي : وعرفه بأنه (الدال من طريق النطق بعد المواضعة ، ومن جهة معنى مستخرج من النطق) (١)

٣- الدليل اللغوي : وعرفه بأنه (الدال من جهة المواطئة والمواضعة ، على معاني الكلام ، ودلالات الاسماء والصفات وسائر الالفاظ، وقد لحق بهذا الباب : دلالات الكتابات والرموز ، والاشارات والعقود الدالة على مقادير الاعداد) (٢)

- وأما الدال : فقد عرفه الامام الباقلاني (بناصب الدليل .
- والمدلول : هو ما نصب له الدليل .
- والمستدل : الناظر في الدليل
- واستدلاله : - بمعنى- نظره في الدليل وطلبه به علم ما غاب) (٣)
- والدلالة عنده هي نفس الدليل بالاحوال التي مر وصف الدليل بها وهو أيضا المستدل به وهو الحجة (٤)

ويظهر من تعريف الامام الباقلاني للدلالة بأنه لا يعتبر الدلالة أمرا آخر بين الدليل والمدلول ، بل يعتبر الدلالة نفس الدليل .

ولعل الذي دفع الامام الباقلاني الى القول بأن الدلالة هي نفس الدليل متابعته للمتكلمين في قضية الاستدلال على وجود الله بدليل الحدوث فان المتكلمين قد قالوا بعدم مغايرة الدلالة للدليل ، لان دليل الحدوث يدل عندهم على وجود الله عز وجل فوجب أن يكون له وجه دلالة يغايره ، والحدوث ليس غير العالم الذي هو الدليل عندهم ، اذ لا واسطة بين العالم والصانع فكل ما هو مغاير له تعالى ، فهو داخل فيما سواه فليس ثمة أمر ثالث هو غير العالم والصانع فلا يوجد اذا غير الدليل والمدلول وبناء على هذا قالوا ان الدلالة هي الدليل . (٥)

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ١٥
(٢) نفس المصدر ص ١٥
(٣) نفس المصدر ص ١٥
(٤) انظر التمهيد ص ١٤
(٥) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٢٨٣-٢٨٤ .

والامام الباقلاني - رحمه الله - مثله مثل باقي علماء المسلمين الاوائل لم يأخذ بمنهج الفلاسفة أو بمنطق أرسطو الذي أخذ به معظم المتكلمين في القرن الخامس الهجري ·

وقد حارب شيخ الاسلام ابن تيمية المنطق الارسطاطاليسي وبين للعلماء أن الاسلام ليس بحاجة لهذا المنطق للدفاع عن العقيدة ، فعندنا من الادلة القرآنية والاحاديث النبوية ما يتضمن الحجج العقلية والبراهين المنطقية الصحيحة على مسائل العقيدة ، وما يدفع به شبهات الخصوم عن الاسلام ·

وكما بينا قبل ذلك فان الامام الباقلاني يعتمد في منهجه في الاستدلال على العقائد على دعامتين اساسيتين وهما النقل ثم العقل ·

اولا : <u>الادلة السمعية</u> :

تتمثل الادلة السمعية عند الامام الباقلاني فيما يأتي :-

١- كتاب الله عز وجل

٢- سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

٣- اجماع الامة

٤- ما استخرج من هذه النصوص ، وبني عليها بطريق القياس أو الاجتهاد ·

وسنتحدث عن هذه النقاط بشيء من التوضيح وعلى هذا الترتيب الذي رتبه الامام الباقلاني للادلة السمعية ·

١- <u>كتاب الله القرآن الكريم</u> : لا شك أن القرآن الكريم يعتبر المصدر الاول من مصادر التشريع الاسلامي ، وقد استدل الباقلاني على حجية الكتاب بقوله : (قال الله تعالى آمرا باتباع كتابه ، والرجوع الى بيانه : ((أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها)) (١)

وقال عز وجل : ((ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)) (٢)

وقال تعالى : ((ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)) (٣)

---

(١) محمد الاية ٢٤

(٢) النساء الاية ٨٢

الاسراء الاية ٩

وقال تعالى : ((تبيانا لكل شيء)) (١)

وقال تعالى : ((ما فرطنا في الكتاب من شيء)) (٢))(٣)

والبرهان على أن القرآن حجة على الناس وأن احكامه قانون واجب عليهم اتباعه ، أنه من عند الله ، وأنه نقل اليهم عن الله تعالى بطريق قطعي لا ريب في صحته (٤)

٢- واستدل على حجية السنة بقوله :(وقال عز وجل في الامر باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)) (٥)

وقال : ((وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى)) (٦)

وقال : ((فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم)) (٧)) (٨)

والسنة هي أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وهي حجة كما تقدم من أدلة الباقلاني بنص القرآن ، وقد أجمع المسلمون على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة في الدين ودليل من أدلة الاحكام (٩) وهي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الفقه الاسلامي .

---

(١) النحل الاية ٨٩

(٢) الانعام الاية ٣٨

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٢٠

(٤) انظر أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص ٢٤،وانظر المدخل لدراسة الفقه د/ حسين حامد ص ١٣٩-١٤٠

(٥) الحشر الاية ٧

(٦) النجم الايتان ٣-٤

(٧) النور الاية ٦٣

(٨) الانصاف للباقلاني ص ٢٠

(٩) انظر أصول الفقه للخضري ص ٢٣٩ ،والمدخل لدراسة الفقه د/ حسين حامد ص ١٥٥ ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي ص ٩٥

٣- الاجماع : وقد استدل الامام الباقلاني على حجيته بقوله :(وقال سبحانه في وصف عدالة أمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والامر باتباعها والتحذير من مخالفتها : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)) (١)

وقال : ((كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)) (٢)

وقال : ((ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)) (٣))(٤)

ولا شك أن الاجماع يعد المصدر الثالث من مصادر التشريع الاسلامي وقد استدل الاصوليون على حجية الاجماع بما استدل به الامام الباقلاني (٥) ووجه الاستدلال من الاية ((ومن يشاقق الرسول .... الاية)) أن فيها الوعيد على اتباع غير سبيل المؤمنين وسبيلهم هو ما اجمعوا عليه ، وفي الاستدلال عليه بهذه الاية بحوث ومناقشات (٦)

٤- القياس : وقد وضع الامام الباقلاني القياس ضمن الادلة السمعية ولعله يقصد بهذا القياس ، القياس الاصولي الشرعي ، المستند الى دليل نقلي والذي يظهر أن الامام الباقلاني يعتبر القياس في الادلة النقلية والعقلية لأنه رتب القياس الاصولي في الادلة النقلية لاستناده الى النص ، والقياس العقلي يدخل ضمن الادلة العقلية لأنه يعتمد على العقل كالجمع بالعلة والشرط والدليل ... الخ .

فهو كغيره من علماء الاصول يرى أن القياس يجري في الشرعيات وكذلك في العقليات .

قال الامام البيضاوي : (القياس يجري في الشرعيات ...... وفي العقليات عند أكثر المتكلمين ...) (٧)

---

(١) البقرة الاية ١٤٣

(٢) آل عمران الاية ١١٠

(٣) النساء الاية ١١٥

(٤) الانصاف للباقلاني ص ٢٠

(٥) انظر أصول الفقه للخضري ص ٢٨٦ ،واللمع للشيرازي ص ٨٧

(٦) انظر مذكرة أصول الفقه للشنقيطي ص ١٥١،وأصول الفقه للخضري ص ٢٨٦ والوجيز في أصول التشريع د/ محمد حسن هيتو ص ٣٣٥

(٧) منهاج الوصول للبيضاوي مع شرح الاسنوي ٣١/٣

قال الشارح : (الصحيح وهو مذهب الشافعي .... أن القياس يجري في الشرعيات كلها ، أي يجوز التمسك به في اثبات كل حكم .... وذهب أكثر المتكلمين الى جواز القياس في العقليات اذا تحقق جامع عقلي اما بالعلة أو بالحد أو بالشرط أو بالدليل) (١)

وقد استدل عليه الامام الباقلاني بقوله : (وقال في الامر بالقياس والحكم بالنظائر والامثال ((فاعتبروا يا اولي الابصار)) (٢)

وقال : ((ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)) (٣)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لقاضيه معاذ بن جبل (٤) رضي الله عنه حين أنفذه الى اليمن لاقامة الحدود واستيفاء الحقوق ((بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله عز وجل،قال فان لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فان لم تجد؟ قال : أجتهد رأيي وأحكم فقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله)) (٥) فأقره على الحكم

---

(١) نهاية السول للاسنوي ٣٥/٣

(٢) الحشر الاية ٣

(٣) النساء الاية ٨٣

(٤) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عابد بن عدي أبو عبد الرحمن الانصاري الخزرجي ،صحابي جليل كان أبيض اللون وضيء الوجه شابا جميلا سمحا شهد المشاهد كلها ،وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم احاديث كثيرة ، وكان اماما في علم الحلال والحرام ،بعثه النبي صلى الله عليه وسلم قاضيا الى اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الاسلام ويقضي بينهم وجعل اليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن،وله مناقب كثيرة جدا ،كانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة أو التي بعدها وهو قول الاكثر عاش أربعا وثلاثين سنة انظر الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤٢٦/٣-٤٢٧،والاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة ٣٧٥/٣-٣٧٩

(٥) اخرجه الترمذي في كتاب الاحكام باب ما جاء في القاضي كيف يقضي ٦١٦/٣ وأبو داود في الاقضية باب اجتهاد الرأي في القضاء ١٨/٤،وأحمد في المسند ٢٣٦/٥،٢٤٢ قال الشيخ الالباني في السلسلة الضعيفة وجملة القول أن هذا الحديث لا يصح اسناده لارساله ،ويكفي أن الائمة قد ضعفوه كالبخاري والترمذي والدارقطني وابن الجوزي والذهبي وابن حجر وغيرهم مع انه صحيح المعنى،انظر السلسلة الضعيفة للالباني ٢٧٣/٢-٢٨٦

والاجتهاد وجعله أحد طرق الاحكام) (١)

وهذا الحديث ضعيف - كما ذكرت في الهامش عند تخريجه - ومن الملاحظ أن الامام الباقلاني لم يعتني في استدلاله بالاحاديث الصحيحة :-

والقياس : (هو اثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت) (٢) وهو المصدر الرابع من مصادر التشريع المتفق عليها بعد كتاب الله ، وسنة رسوله ، والاجماع .

ومن أدلة وجوب العمل بالقياس وحجيته اضافة لما أورده الامام الباقلاني :

أ - أن عدم العمل به يفضي الى خلو كثير من الحوادث عن الاحكام لقلة النصوص وكون الصور لا نهاية لها ، فيجب ردها الى الاجتهاد ضرورة .

ب - أن العقل يدل على العلل الشرعية ويدركها ، اذ مناسبة الحكم عقلية مصلحية يدرك العقل طلب تحصيلها .

ج - ومنها أننا نستفيد بالقياس ظنا غالبا ، والعمل بالظن الراجح متعين .

د - ومنها اجماع الصحابة رضي الله عنهم على الحكم بالرأي في الوقائع الخالية من النص كقول أبي بكر رضي الله عنه في الكلالة : أقول فيها برأيي (٣)

ثانيا : الادلة العقلية :-

وتتنوع الادلة العقلية الى أنواع ، وقبل بيان هذه الانواع نبين أدلة الباقلاني على التمسك بها ، وقد احتج الامام الباقلاني على التمسك بالادلة العقلية بقوله : (وقال الله عز وجل في الامر باتباع حجة العقل ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون)) (٤)

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٢٠-٢١

(٢) نهاية السول للاسنوي ٣/٣

(٣) انظر ابن قدامة وآثاره الاصولية د/ عبد العزيز ٢/٢٨٠ ،ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي ص ٢٤٦

(٤) الذاريات الاية ٢١

وقال :((أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون))(١)

وقال :((ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب))(٢)

وقال :((وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم))(٣)

وقال : ((وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)) (٤)

فأمرنا بالاعتبار والاستبصار ورد الشيء الى مثله أو الحكم له بحسب نظيره وهذا هو الحكم المعقول والتقاضي الى أدلة العقول) (٥)

وهذا الترتيب للادلة العقلية ليس من وضع الامام الباقلاني بل هو عبارة عن بحث وتقصي لأدلة الامام الباقلاني العقلية ٠

فمن هذه الادلة :-

١- القياس العقلي : سبق تعريف القياس الاصولي وبيان حجيته وقد أخذ المتكلمون هذا القياس عن الاصوليين من علماء الفقه الذين كانوا يعتمدون عليه في استنباط الاحكام الشرعية ، فاستعمله المتكلمون ليكون طريقا لاثبات الاحكام المتعلقة بالله تعالى ، قياسا على وجود نظائر لهما في الممكنات ، وهو الذي يسمى قياس الغائب على الشاهد ، ويطلقون اسم الغائب على الله سبحانه وتعالى لكونه غائبا عن الحس ، ويظهر أن الامام الباقلاني يعتبر القياس في الادلة العقلية والنقلية أيضا ٠ (٦)

(وهذا القياس هو القياس الاصولي - فالمقيس عليه عند المتكلمين هو الاصل عند الاصوليين ، والمقيس هو الفرع ، والجامع بين الاصل والفرع أو بين الشاهد والغائب هو العلة عند الاصوليين - ويضيف المتكلمون الى الجمع

---

(١) الواقعة الايتان ٥٨-٥٩

(٢) آل عمران الاية ١٩٠

(٣) يس الايتان ٧٨-٧٩

(٤) الروم الاية ٢٧

(٥) الانصاف للباقلاني ص ٢١

(٦) انظر مناهج البحث عند مفكري الاسلام د/ النشار ص ١٣٢ ،والمواقف للايجي ص ٣٥-٣٧ وكتاب الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٢٩٢-٢٩٣ ٠

بالعلة الجمع بالشرط والدليل والحد والحقيقة ، .... والاصوليين لم يتكلموا الا في الجمع بالعلة ، أما الجمع بالشرط والدليل والحد والحقيقة فلم يتكلموا فيه) (١)

وقد ذكر أمام الحرمين أن الجامع بين الشاهد والغائب أربعة :

= أحدها : العلة : فاذا ثبت كون حكم معلول بعلة شاهدا ،وقامت الدلالة عليه ، لزم القضاء بارتباط العلة بالمعلول شاهدا وغائبا ، حتى يتلازما وهذا مثل حكمنا بأن كون العالم عالما شاهدا معلل بالعلم فكذلك في الغائب .

= الثاني : في الجمع بالشرط فاذا تبين كون الحكم مشروطا بشرط شاهدا ثم يثبت مثل ذلك الحاكم غائبا ، فيجب القضاء بكونه مشروطا بذلك الشرط اعتبارا بالشاهد ، وهذا نحو حكمنا بأن كون العالم عالما مشروطا بكونه حيا ، فلما تقرر ذلك شاهدا اطرد غائبا .

= الثالث : الجمع بالحقيقة : وهي اذا تقررت حقيقة شاهدا في محقق اطردت في مثله غائبا ، وذلك نحو حكمنا بأن حقيقة العالم من قام به العلم .

= الرابع : الجمع بالدليل : فاذا دل دليل على مدلول عقلا ، لم يوجد الدليل غير دال شاهدا وغائبا ، وذلك مثل دلالة الاحداث على المحدث(٢)

والجمع بالعلة عند المتكلمين يمثلون له ، بأنه اذا كانت العالمية شاهدا فيمن له علم معللة بالعلم ، وجب أن تكون كذلك في الغائب(٣)

ولم يخل هذا القياس وطرقه من النقد والاعتراض من بعض العلماء والطعن فيه وفي مقدماته (٤) وعلى الرغم من ذلك فقد استخدمه المتكلمون ومنهم الامام الباقلاني ، فانه قرر أن الحكم اذا وجب لشيء في الشاهد

---

(١) مناهج البحث عند مفكري الاسلام د/ النشار ص ١٣٢

(٢) انظر الارشاد لامام الحرمين ص ٨٣-٨٤،والبرهان في أصول الفقه له ١٢٨/١ ونهاية السول للاسنوي ٣٥/٣

(٣) انظر نهاية الاقدام للشهرستاني ص ١٨٢

(٤) انظر مناهج البحث د/ النشار ص ١٣٤-١٣٥

وكان منوطا بعلة ما ، فانه يجب اثبات هذا الحكم في الغائب لكل من وجدت فيه هذه العلة وقد أشار الى ذلك بقوله :(ان يجب الحكم والوصف للشيء في الشاهد لعلة ما فيجب القضاء على أن كل من وصف بتلك الصفة في الغائب فحكمه في أنه مستحق لها لتلك العلة حكم مستحقها في الشاهد ، لانه يستحيل قيام دليل على مستحق الوصف بتلك الصفة مع عدم ما يوجبها ، وذلك كعلمنا بأن الجسم انما كان جسما لتأليفه ، وان العالم انما كان عالما لوجود علمه ، فوجب القضاء باثبات علم كل من وصف بأنه عالم ، وتأليف كل من وصف بأنه جسم أو مجتمع ، لأن الحكم العقلي المستحق لعلة لا يجوز أن يستحق مع عدمها ولا لوجود شيء يخالفها ، لأن ذلك يخرجها عن أن تكون علة للحكم)(١)

ويعتبر الاخذ بالقياس في مجال الفقه مقبول لأن هناك وصف مؤثر يشترك فيه المقيس والمقيس عليه ويمكن التعرف على هذا الوصف أو العلة بما يعرف بمسالك العلة .

أما بالنسبة للمسائل المتعلقة بالذات الالهية فكيف لنا التحقق من اشتراك الغائب والشاهد في وصف بينهما، وهل يجوز لنا أن نطبق المقاييس البشرية على ذات الله وأفعاله وصفاته ، وهنا يكمن الضعف في هذا الدليل .

وقد أخذ بهذا القياس المعتزلة وبعض الاشاعرة كالامام الاشعري والباقلاني الا أنهم ما كانوا يأخذون هذا القياس دائما وانما يأخذوا به في بعض الاحيان ويتركوا الاخذ به في أحيان أخرى ، فقد تمسكوا به في باب الصفات ورفضوه في مجال الافعال الالهية بعكس المعتزلة الذين تمسكوا به في مجال الافعال الالهية ، ورفضوا قبوله في مجال الصفات الالهية . (٢)

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٢ .

(٢) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٢٩٢-٢٩٣ ،ونفس المرجع ص ٢٩٦ .

٢- السبر والتقسيم : هو حصر الاوصاف التي توجد في الاصل والتي تصلح للعلة في بادئ الرأي ثم ابطال ما لا يصلح منها فيتعين الباقي للعلية (١)

وأصل هذا الدليل أنه مبني على أمرين :

= أحدهما : حصر أوصاف المحل ، وهو المعبر عنه بالتقسيم

= وثانيهما : ابطال ما ليس صالحا للتعليل بطريق من طرق الابطال فيتعين الوصف الباقي وهو المعبر عنه بالسبر .

وقد أخذ الامام الباقلاني بهذا المسلك وعبر عنه بقوله : (فمنها أن ينقسم الشيء في العقل على قسمين أو أقسام يستحيل أن تجتمع كلها في الصحة والفساد ، فيبطل الدليل أحد القسمين ، فيقضي العقل على صحة ضده وكذلك ان أفسد الدليل سائر الاقسام ، صحّ العقل الباقي منها لا محالة نظير ذلك علمنا باستحالة خروج الشيء عن القدم والحدث ، فمتى قام الدليل على حدثه بطل قدمه ، ولو قام على قدمه لأفسد حدثه) (٢)

(ومعنى هذا أن العقل قد يجوز تقسيم الشيء الى أمرين ، أو الى أمور ، فاذا كان التقسيم منحصرا بين أمرين لا ثالث لهما في تجويز العقل وكانا متقابلين من كل وجه ، فاذا قام الدليل على فساد أحدهما ، دل ذلك على ثبوت نقيضه ، كقولك : العالم اما قديم واما حادث ، فاثبات حدوثه يبطل قدمه ، واثبات قدمه يبطل حدوثه .)(٣)

وقد اعتمد الامام الباقلاني على هذا الدليل في مواضع كثيرة كما سنرى فيما بعد ، وهو دليل صحيح أخذ به المتكلمون والاصوليون جميعا .

وقد حاول بعض العلماء رد هذا الدليل الى القياس الشرطي المنفصل

---

(١) انظر مناهج البحث للدكتور النشار ص ١٢٠

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١١-١٢

(٣) الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٢٩٨ .

كما فعل الغزالي وغيره من الاصوليين المتأخرين الذين يحاولون رد طـــرق البحث الاصولية الى المنطق اليوناني ٠

يقول الغزالي عن أصناف القياس : (الصنف الثالث الشرطي المنفصل وهو الذي تسميه الفقهاء والمتكلمون بالسبر والتقسيم) (١)

(لكن الحقيقة أن هذا الدليل وان شابه القياس الشرطي المنفصـل عند المناطقة ، الا انه لا يلزم منه أن يكون مأخوذا منه ، وليست القضايـا العلمية حكرا على طائفة دون طائفة ، وقد عرف المسلمون هذا الدليـــل وعبروا عنه بطريقتهم الخاصة ، وباسلوبهم الخاص ٠) (٢)

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (وانما دخل هذا (٣) في كلام مـــن تكلم في أصول الدين والفقه بعد أبي حامد في أواخر المائة الخامسة وأوائل المائة السادسة ، فان أبا حامد وضع مقدمة منطقية في أول المستصفى ،وزعم أن من لم يحط بها علما فلا ثقة له بشيء من علومه وصنف في ذلك " محك النظر" و " معيار العلم " ٠٠٠٠٠٠٠٠ وهؤلاء الذين تكلموا في الاصول بعد أبـــــي حامد هم الذين تكلموا في الحدود بطريقة أهل المنطق اليوناني ٠

وأما سائر طوائف النظار من جميع الطوائف المعتزلة ،والاشعرية والكرامية ، والشيعة ، وغيرهم ٠٠٠٠٠) (٤) على خلاف ذلك من التمسك بالمنطق اليوناني ٠

وكذلك يقرر ابن خلدون أن الاقيسة المنطقية لم تكن في عهـــــد الباقلاني ظاهرة في الملة ، ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة ، فكانـــت مهجورة عندهم لذلك (٥)

---

(١) معيار العلم للغزالي ص ١١٣ (٢) الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٢٩٩ ٠

(٣) أي المنطق اليوناني

(٤) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ١٤ـ١٥ ، وانظر صون المنطق والكلام للسيوطي ص ٢٠٦

(٥) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥

٣ـ الاستدلال بالشبيه والنظير : وهو أحد الادلة العقلية التي أقرها الامام الباقلاني ، وهذا الدليل يكون باعطاء الشيء حكم نظيره ، وقد عبر عنه الباقلاني بقوله : (ومن ذلك أن يستدل بصحة الشيء على صحة مثله وما هو في معناه ، وباستحالته على استحالة مثله ، وما كان بمعناه كاستدلالنا على اثبات قدرة القديم سبحانه على خلق جوهر ولون مثل الذي خلقه ، واحياء ميت مثل الذي احياه ، وخلق الحياة فيه مرة اخرى بعد أن أماته ، وعلى أنه محال منه خلق شيء من جنس السواد والحركات لا في مكان في الماضي ، كما استحال ذلك في جنسهما الموجود في وقتنا هذا) (١)

ولعل هذا الدليل الذي استخدمه الامام الباقلاني وغيره من المتكلمين هو مثل قياس الشبه الذي يستخدمه الأصوليون، لأن قياس الشبه عندهم ما لا يكون الوصف الجامع بين الاصل والفرع علة للحكم ، ولا مؤثرا فيه ، بل يكون مجرد المماثلة والمشابهة ، وذلك كقول أبي حنيفة مثلا مسح الرأس لا يتكرر تشبيها له بمسح الخف والتيمم ، والجامع أنه مسح ، فلا يستحب فيه التكرار قياسا على التيمم ومسح الخف فان المسح ليس بوصف مؤثر وانما هو وجه الشبه بين هذه الامور (٢)

٤ـ بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول: وهذا الدليل هو أحد الادلة العقلية التي أقرها الامام الباقلاني ، قال ابن خلدون كما مر معنا: ـ (ان الباقلاني .... وضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الادلة ، والانظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأنه لا يبقى زمانين ..... وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول ....) (٣)

ومعناه أن ما لا دليل عليه يجب نفيه (٤)

يفهم من نص ابن خلدون السابق أن الامام الباقلاني من أوائل من استخدم هذا الدليل في منهجه .

---

(١) التمهيد للامام الباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٢

(٢) انظر المستصفى للغزالي ٢/٣١١ـ٣١٢ ،وانظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص٣٠٢

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥

(٤) انظر مناهج البحث د/ النشار ص ١٣٩

ويتكون هذا الدليل من مرحلتين :-

= الاولى : أن نتلمس أدلة المثبتين للشيء ، ونثبت كذبها وضعفها بحيث لا نجد دليلا آخر على ثبوت الشيء سواها .

= الثانية : أن نقوم بعملية حصر وجوه الادلة ، ثم نقوم باستقراء دقيق عليها ينتهي الى نفي هذه الوجوه كلها بحيث لا نجد وجوها أخرى غيرها .

ومن هنا يتبين لنا أن هذه الصورة الثانية هي الاولى بعينها اذ تنتهي الى عدم وجود أية أدلة غير الادلة المنفية ، الا انها تمتاز عنها بفكرة الحصر .

ولذلك عدل عنها الى الصورة الاولى ، فهي نفي ما لا دليل عليه لأن نفي ما لا دليل عليه ينتج انتفاء الضروريات والنظريات من ناحية واثبات اللامتناهي من ناحية اخرى وكلاهما محال (١)

وهذا الدليل لم يخل من النقد والطعن ، والاعتراضات الواردة عليه التي يطول البحث بذكرها .

هـ- <u>توقيف أهل اللغة</u> :- وبعد أن اوردنا أدلة الامام الباقلاني العقلية السابقة ، نرى أن الباقلاني يستدل بتوقيف أهل اللغة ، وقد أوردناه هنا لاستخدام الباقلاني له في أدلته على الرغم أن هذا يدخل في باب الجدل والمناظرات أكثر منه في باب الادلة العقلية ، فقد ذكر أنه : (قد يستدل بتوقيف أهل اللغة لنا على انه لا نار الا حارة ملتهبة ، ولا انسان الا ما كانت له هذه البنية ، على أن كل من خبرنا من الصادقين بأنه رأى نارا أو انسانا ، وهو من أهل لغتنا ، يقصد الى افهامنا أنه ما شاهد الا مثل ما سمي بحضرتنا نارا أو انسانا ، ولا نحمل بعض ذلك على بعض ، لكن بموجب

---

(١) انظر مناهج البحث د/ النشار ص ١٣٩

الاسم وموضوع اللغة ، وجوب استعمال الكلام على ما استعملوه ، ووضعه حيث وضعوه) (١)

وهذا يدل على أن الامام الباقلاني يثق بدلالة الفاظ اللغة على معانيها بخلاف ما ذهب اليه بعض المتكلمين وخاصة متأخريهم من أن دلالة المفردات اللغوية على معانيها ظنية لا تصل الى درجة اليقين ، لأن العلم بوضع هذه الالفاظ متوقف على العلم بعصمة الرواة للعربية عن الغلط والكذب لأن مرجعه الى رواياتهم ، اذ لا طريق الى معرفة الاوضاع سوى النقل والعلم بعصمته ظني ، وما بني على الظني ظني • (٢)

ويستدل الامام الباقلاني باللغة في كثير من المسائل لا سيما التي تتعلق بالمصطلحات الكلامية ، كبيانه لمعنى العرض على أن الاعراض لا يصح بقاؤها بقوله تعالى : ((تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة)) (٣)

واستدل بقول اهل اللغة : " عرض لفلان عارض من مرض أو صداع أو حمى أو جنون " اذا لم يدم به ذلك (٤)

هذه هي أنواع الادلة التي اعتمد عليها الامام الباقلاني ، وان كانت هذه الادلة تختلف عن بعضها البعض من حيث القوة والضعف الا انها كانت من طرق المتكلمين الاوائل وقد استخدموها في مناظراتهم •

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٢-١٣

(٢) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٣٠٢-٣٠٣ •

(٣) الانفال الاية ٦٧ •

(٤) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص١٨، والانصاف له ص١٧ •

الفصل الرابع

التوحيد عند الباقلاني :-

وفيه مباحث :-

المبحث الاول :-

اثبات وجود الله عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف .

المبحث الثاني :-

اثبات الوحدانية عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف .

المبحث الثالث :-

تنزيهه عز وجل عن الجسمية والعرضية والمكانية والزمانية عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف .

المبحث الاول :-

اثبات وجود الله عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف .

تمهيـــد :-

xxxxxxxx

يعتبر الايمان بوجود الله عز وجل من أهم المسائل في أصول الدين حيث شغل بها علماء الاسلام ومفكروهم على مر التاريخ ، لان الايمان بوجـــود الله عز وجل أساس العقيدة الاسلامية ، وعليها تقوم باقي أمور الدين مـــن الايمان بالملائكة والنبيين والكتب والرسل واليوم الآخر ، لذا فقد شغـــل علماء الاسلام بالبرهنة وسرد الادلة المختلفة على وجود الله تعالى ،وتعددت مناهجم في الاستدلال على وجود الله تعالى .

وقبل أن أعرض أدلة الامام الباقلاني على وجود الله تعالى أرى أن أمهد بايجاز شديد لبعض مناهج الفرق في الاستدلال على وجود الله تعالـى.

ا- المتكلمون :-

لقد سلك المتكلمون لاثبات وجود الله عز وجل طرقا متعددة وحصرها الايجي في أربعة طرق فقال : (وقد علمت أن العالم اما جوهر واما عـــرض وقد يستدل على اثبات الصانع بكل واحد منهما اما بامكانه أو بحدوثه فهـذه وجوه أربعة) (١)

ولسنا بحاجة الى بيان هذه الطرق جميعا ويهمنا من هذا ، دليـل الحدوث الذي كان عمدة المتكلمين في اثبات وجود الله ، فقد سلك جمهـــور المتكلمين في الاستدلال على وجود الله دليل الحدوث ، ومبناه على ان العالم ينقسم الى جواهر وأعراض وأن الاعراض لا تبقى زمانين ، وانما يطرأ عليهـــا التغير والتحول لانها حادثة والجواهر لا تنفصل عن الاعراض التى هي ملازمـــة لها ، وما دامت الجواهر لا تنفك عن الاعراض فهي حادثة بحدوثها ، لان مـــا لازم الحادث فهو حادث .

وبما أن العالم مكون من جواهر وأعراض - وهي حادثة - فالعالـم حادث وكل حادث فلا بد له من محدث ، وهو الله سبحانه وتعالى (٢)

فالحدوث عند المتكلمين هو العلة المحوجة الى المؤثر ، واذا ثبت أن العالم حادث كان لا بد له من محدث يخرجه من العدم الى الوجود .

---

(١) المواقف للايجي ص ٢٦٦

(٢) انظر ابن تيمية وقضية التأويل د/ الجليند ص ١٨٣-١٨٤

وقد لخص صاحب المواقف هذا الدليل بقوله :ـ

(الاستدلال بحدوث الجواهر : وهو أن العالم حادث ، وكل حادث فله محدث ٠)(١)

وسيأتي بيان ذلك عند عرض أدلة الباقلاني في اثبات وجود الله حيث استدل بهذا الدليل ٠

٢ـ الفلاسفة :ـ

أما الفلاسفة فقد سلكوا في اثبات وجود الله تعالى طريق الوجوب والامكان ، وقسموا الموجودات الى واجب ، وممكن بدلا من القديم والحادث عند المتكلمين لانهم لا يقولون بحدوث العالم ٠

قال الايجي عن هذا الدليل : (وهو أن ـ هناك ـ موجودا ، فان كان واجبا فذاك ، وان كان ممكنا احتاج الى مؤثر ، ولا بد من الانتهاء الى الواجب ، والا لزم الدور أو التسلسل) (٢) وهومحال ٠

٣ـ السلف :ـ

لقد عرف عن سلف هذه الامة رضوان الله عليهم تمسكهم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، لذا فقد جاءت أدلتهم على مسائل العقيدة مستمدة منهما ، وبناءا على هذا فقد سلك علماء السلف في الاستدلال على وجود الله تعالى طريق القرآن وأدلته العقلية المقنعة الدالة على وجوده سبحانه وتعالى من دلالة الخلق وعناية الله عز وجل بهذا الكون وتنظيمه ، ورفض أدلة المتكلمين القائمة على أسس واهية غير مقنعة ولامجدية ولا مفهومة للعامة وعسيرة الفهم للخاصة ٠

فوجود الله عز وجل مغروز في الفطرة الانسانية كما ذكر ذلك القرآن الكريم ، وكانت أدلة السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ وعلى رأسها دليل الفطرة صريحة وواضحة ومفهومة لكل الناس ، لانها مستمدة من كتاب الله عز وجل بأوجز عبارة وأعظم بيان ، فلا يجوز تكليف عامة الناس من البحث عن معنى الحدوث ، والجواهر ، والاعراض ، والوجوب ، والامكان ، وغير ذلك مما يدخل في تركيب أدلة المتكلمين والفلاسفة ، الامر الذي جعل للمتمسكين بعقيدة السلف ومنهجهم موقفا معارضا من هذه الادلة والمناهج الاجنبية عن القرآن الكريم كما سنرى ذلك فيما بعد ٠

---

(١) المواقف للايجي ص ٢٦٦

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٦

× عرض أدلة الباقلاني في استدلاله على وجود الله تعالى :-

لقد سلك الامام الباقلاني في الاستدلال على وجود الله تعالى طرق كثيرة :-

الدليل الاول : دليل الحدوث :-

ومفاد هذا الدليل : أن العالم حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث وهو الله تعالى . (١)

وقد سلك الامام الباقلاني في هذا الدليل مسلكين .

أ- المسلك الاول :- اتبع في هذا المسلك طريقة شيخه أبي الحسن الاشعري وهي استدلاله بتغير العالم من حال الى حال ، وانتقاله من صفة الى أخرى دليلا على حدوثه .

فقد ذكر الباقلاني في بداية هذا الدليل ان المراد من العالم هو : كل موجود سوى الله تعالى (٢) وقال : ان العالم محدث ، والدليل على حدوثه :-

(تغيره من حال الى حال ، ومن صفة الى صفة ، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثا ، وقد بين نبينا صلى الله عليه وسلم هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة لما قالوا له : يا رسول الله أخبرنا عن بدأ هذا الامر ؟ فقال : ((نعم كان الله تعالى ولم يكن شيء ، ثم خلق الله الاشياء)) (٣) فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق) (٤)

واستدل على هذا بقصة ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال :

(وكذلك الخليل عليه السلام انما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها

---

(١) انظر المواقف للايجي ص ٢٦٦

(٢) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٠

(٣) أخرجه البخاري بنحوه عن عمران بن الحصين مرفوعا في كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء ١٧٥/٨ ، ونصه ((كان [illegible] شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض .....)) الحديث ، وفي رواية ((ولم يكن شيء معه)) وهذه ليست في الصحيح ، وأخرجه أحمد في المسند ٤٢٦/٤

(٤) الانصاف للباقلاني ص٣٠

وانتقالها من حالة الى حالة ، لانه لما رأى الكوكب قال : ((هذا ربي))(١) الى آخر الآيات ، فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال الى حال ، دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة ، وان لها خالقا) (٢)

ولم يكتف الامام الباقلاني بهذا الدليل وحده ، بل لجأ الى دليل الحدوث الذي استدل به المتكلمون ، فأثبت حدوث العالم عن طريق اثبات الجواهر والاعراض واثبات حدوثهما .

ب - المسلك الثاني :- وملخصه كما يراه الامام الباقلاني أن جميع العالم العلوي والسفلي ، لا يخرج عن الجواهر والاعراض ، والاعراض حادثة والجواهر لا تخلو منها ، فيدل ذلك على حدوث العالم بأسره (٣)

وهذا الدليل وان كان يبدو بسيطا الا أنه يرتكز على مقدمات خفية وصعبة يتوقف عليها وهي :-

اولا : - ثبوت الجواهر

ثانيا : - ثبوت الاعراض

ثالثا : - ثبوت حدوث الاعراض

رابعا : - استحالة خلو الجواهر عن الاعراض

خامسا : - استحالة ثبوت حوادث لا أول لها (٤)

وقبل بيان هذه المقدمات يجب علينا بيان المفاهيم والمصطلحات التي وضعها الامام الباقلاني لهذه المقدمات .

ولهذا فقد قال عنه ابن خلدون : (انه أول من وضع المقدمات العقلية لعلم الكلام ، كاثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض وانه لا يبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تنبني عليه أدلتهم) (٥)

ولا بد من بيان هذه المقدمات كما يراها الامام الباقلاني .

---

(١) سورة الانعام آية ٧٦-٧٩

(٢) الانصاف للباقلاني ص ٣٠

(٣) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢

(٤) هذه المقدمات يذكرها كل من تكلم في دليل الحدوث باثبات أو نفي

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧

* المفاهيم والمصطلحات التي وضعها الامام الباقلاني لدليل حدوث العالم :-

١- المعلوم ، والموجود :-

بين الامام الباقلاني ما هو المعلوم وما هو الشيء ، فذكر أن المعلوم يتعلق بالموجود والمعدوم ، وأن الشيء هو الموجود ، فالموجود عنده هو الشيء الثابت الكائن ، فما يوصف بالوجود فهو شيء ، وما لا يوصف بالوجود لا يوصف بأنه شيء .

واستدل الباقلاني على أن الشيء هو الموجود باستعمال أهل اللغة للفظ "شيء" في الاثبات ولفظ " ليس بشيء " في النفي ، يبين هذا ان قول القائل: " ما أخذت من زيد شيئا ، ولا سمعت منه شيئا ، ولا رأيت شيئا " نفي للمذكور وقوله : " أخذت شيئا ، ورأيت شيئا " اثبات للمذكور (١)

يفهم من هذا ان الامام الباقلاني أستعمل لفظ الشيء في مدلوله اللغوي ، وهو انه أثبات لامر ما ، وبناء على هذا فقد قال في المعدوم انه : (منتف ليس بشيء) (٢)

وقسم المعدوم الى خمسة أقسام :-

١= معلوم معدوم لم يوجد قط ، ولايصح ان يوجد وهو المحال المتنع الذي ليس بشيء وهو القول المتناقض ، نحو اجتماع الضدين وكون الجسم في مكانين ، وما جرى مجرى ذلك ، فهذا مما لم يوجد قط ولا يصح ان يوجد أبدا .

٢= معدوم لم يوجد قط ولا يوجد أبدا وهو مما يصح ويمكن أن يوجد وذلك مثل رد أهل المعاد الى الدنيا ، وخلق مثل العالم وأمثال ذلك مما علم وأخبر أنه لا يفعله ، وان كان مما يصح فعله تعالى له .

٣= معلوم معدوم في وقتنا هذا وسيوجد فيما بعد كقيام الساعة والحشر والنشر والحساب والعقاب وأمثال ذلك مما أخبر الله تعالى أنه سيفعله وعلم أنه سيوجد .

٤= معلوم آخر هو معدوم في وقتنا هذا ، وقد كان موجودا قبل ذلك نحو ما كان وتقضى من أحوالنا وتصرفاتنا ، من كلامنا وقيامنا وقعودنا الذي كان في أمس يومنا وتقضى ومضى .

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٥

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٥

= ومعلوم آخر معدوم يمكن عندنا أن يكون ويمكن أن لا يكـــون، ولا يدرى أيكون أم لا يكون نحو ما يقدر الله تعالى مما لانعلم نحن أيفعله أم لا يفعله ، نحو تحريك الساكن من الاجسام وتسكين المتحرك منها وأمثال ذلك (١)

٢- أقسام الموجودات :-

الموجودات كما يراها الامام الباقلاني ، تنقسم الى قسمين :-

أ - قديم : لم يزل وهو الله تعالى ، وصفات ذاته التي لم يزل موصوفا بها ولا يزال كذلك ، وقد بين الامام الباقلاني المعنى اللغوي لكلمة القديم فقال : (القديم هو المتقدم في الوجود على غيره ، وقد يكون لم يزل ، وقد يكون مستفتح الوجود ، دليل ذلك قولهم : بناء قديم يعنون به أنه الموجود قبل الحادث بعده ، وقد يكون المتقدم بوجوده على ما حدث بعده متقدما الى غاية وهو المحدث الموقت الوجود) (٢)

ثم بين المعنى الشرعي للقديم بأنه ما يكون متقدما الى غير غاية ، وهو القديم جل ذكره ، وصفات ذاته ، لانه لو كان متقدما الى غاية يؤقت بها فيقال انه قبل العالم بعام أو مائة ألف عام ، لأفاد توقيت وجوده أنه معدوم قبل ذلك الوقت والله يتعالى عن ذلك (٣)

ب - المحدث : القسم الثاني للموجودات المحدث ، ويعرفه الامام الباقلاني بأنه ما كان لوجوده أول فيقول هو الموجود عن عدم واستفاد هذا من المعنى اللغوي بدليل قولهم : " حدث بفلان حادث من مرض أو صداع وأحدث بدعة في الدين وأحدث في العرصة بناء " أي فعل ما لم يكن من قبل موجودا (٤)

وهذا التعريف الذي عرفه الباقلاني للقديم والمحدث لا يختلف عن تعريف غيره من المتكلمين القائلين بحدوث العالم .

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٥-١٦

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٦

(٣) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٦-١٧ والانصاف للباقلاني ص ١٦

(٤) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٧ والانصاف للباقلاني ص ١٦

وقلنا أن الامام الباقلاني قد عرف العالم بأنه كل ما سوى الله تعالى من الموجودات من جواهر وأعراض وأجسام ، وأن ما سوى الله تعالى حادث أي لوجوده أول بخلاف الله تعالى ، فانه قديم ليس لوجوده أول .

وبما أن العالم عند الباقلاني حادث وهو كما يقول لا يخلوا من أن يكون اما جسما مؤلفا ، واما جوهرا منفردا ، واما عرضا محمولا (١)

وقد أقام مذهبه في حدوث العالم على هذه القسمة ، فأرى أنه لا بد من بيان الاجسام والجواهر والاعراض .

- الجوهر :- وقد عرفه الامام الباقلاني بأنه (الذي له حيز والحيز هو المكان أو ما يقدر تقدير المكان) (٢)

وعرفه أيضا بأنه (هو الذي يقبل من كل جنس من أجناس الاعراض عرضا واحدا) (٣) ، وتعريف الامام الباقلاني للجوهر يتفق مع تعريف المتكلمين للجوهر (٤)

وبناء على هذا فان المتكلمين قالوا لا جوهر الا المتحيز ، فاما أن يقبل القسمة وهو الجسم المؤلف من الاجزاء ، أو لا يقبلها وهو الجوهر الفرد الذي لا ينقسم (٥) ، فعند المتكلمين الجوهر ينحصر في هذين القسمين

والجوهر الفرد : عند المتكلمين هو العنصر الاولي الذي تتركب منه الاجسام ، والجسم عندهم قابل للتجزئة والانقسام حتى ينتهي بالتجزئة الى حد لا يقبل التجزئة والانقسام ، وهو ما يسمونه الجوهر الفرد .

فقد ذهب أكثر المتكلمين من الاشاعرة والمعتزلة ، الى أن الاجسام تنتهي في تجزئيها الى جزء لا يتجزأ ، فكل جسم له نهاية يقف عندها .

وذهب الفلاسفة وبعض المعتزلة وابن حزم ، الى أن الاجسام لاتنتهي الى أجزاء لا تتجزأ ، فكل جزء يمكن تجزئته الى ما لا نهاية ، وانه ليس في العالم جزء لا يتجزأ (٦)

---

(١) انظر الانصاف للباقلاني ص ١٧

(٢) الانصاف للباقلاني ص ١٦

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٧

(٤) انظر المواقف للايجي ص ٩٦ والارشاد لامام الحرمين ص ١٧ والمعالم في أصول الدين للرازي ص ٤٧

(٥) انظر المواقف للايجي ص ١٨٢

(٦) انظر الفصل لابن حزم ٥/٢٢٣ ودرء التعارض لابن تيمية ١/٣٠٣

وأما بالنسبة لصفات الجوهر فقد انفرد الباقلاني بتميزه عن العرض بنفي مشابهة الشكل لان الشكل من العرض ، وهو لا يشبه العرض وان كان يحمله فقال : (لا يشبه شيئا من الاشكال ، لان المشاكلة الاتحاد في الشكل فما لا شكل له كيف يشاكل غيره) (١)

وهذا خلافا لما ذهب اليه بعض المتكلمين من أنه يشبه الكرة وبعضهم على أنه يشبه المربع ، وبعضهم على أنه المثلث لأنه أبسط الاشكال المضلعة (٢)

وله صفات كثيرة : منها التحيز ، ومنها قبوله للعرض ، ومنها مغايرته للعرض

الجسم :- للجسم صلة وثيقة بالجوهر عند الباقلاني والمتكلمين لأن الجسم عندهم مؤلف من الجواهر ، ومن هنا يتعين علينا بيان حد الجسم وأقل ما يتركب منه ٠

فقد ذهب الامام الباقلاني في تعريف الجسم الى أنه : الجوهر المؤلف مع غيره واستدل على ذلك بدلالة اللغة وقولهم رجل جسيم ، وزيد أجسم من عمرو ، اذا كثر ذهابه في الجهات وليس يعنون بالمبالغة في قولهم " أجسم " " وجسيم " الا كثرة الاجزاء المنضمة والتأليف ، لانهم لا يقولون أجسم فيمن كثرت علومه وقدره وسائر تصرفه وصفاته غير الاجتماع ، حتى اذا كثر الاجتماع فيه بتزايد اجزائه قيل أجسم ورجل جسيم ، فدل ذلك على أن قولهم " جسم " مفيد للتأليف (٣)

وقد اختلفت آراء المتكلمين في تعريف الجسم ، فعرفه أكثر المعتزلة بأنه (الطويل العريض العميق) (٤)

واختلفوا في أقل ما يتركب منه الجسم الى أقوال كثيرة منها :

---

(١) المواقف للايجي ص ١٨٢

(٢) انظر المواقف للايجي ص ١٨٢-١٨٣

(٣) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٧ والانصاف للباقلاني ص ١٦

(٤) المواقف للايجي ص ١٨٥

ما ذهب اليه بعضهم من أن أقل ما يتركب منه ثلاثة أجزاء ، وهذا ما قاله المعتزلة هو الطويل العريض العميق ، وقيل بل أقل ما يتركب منه الجسم جزئين وهو قول الاشاعرة عموما (١)

- العرض :- أما العرض فقد عرفه الامام الباقلاني بأنه (هو الذي يعرض في الجوهر ، ولا يصح بقاؤه وقتين) (٢)

وقد استند الامام الباقلاني في تعريفه هذا للعرض على المعنى اللغوي لكلمة العرض حيث بين أن الدليل على هذا فائدة وصفها بانها أعراض وأنها تعرض ولا تبقى قوله تعالى : ((تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة)) (٣) ، فسمى الاموال أعراضا اذ كان آخرها الى الزوال والبطلان وقوله تعالى : ((هذا عارض ممطرنا)) (٤) لما اعتقدوا أنه لا يدوم وهذا اخبار من الله عز وجل عن الكفار في اعتقادهم فيما أظلهم الله من العذاب أنه عارض لا يدوم .

واستدل بقول أهل اللغة " عرض لفلان عارض من مرض أو صداع أو حمى أو جنون " اذ لم يدم به ذلك (٥)

أحكام العرض :- وقد وضع الامام الباقلاني والمتكلمون أحكاما خاصة بالاعراض ، سأذكرها باختصار شديد دون الخوض في الخلاف فيما بينهم عليها .

١- أن العرض لا يقوم بنفسه ، بل يقوم بغيره ، وخالف في ذلك أبو الهذيل العلاف (٦) (٧)

---

(١) انظر المواقف للايجي ص ١٨٢-١٨٥

(٢) الانصاف للباقلاني ص ١٦

(٣) الانفال اية ٦٧

(٤) الاحقاف الاية ٢٤

(٥) انظر التمهيد للامام الباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٨ ، والانصاف للباقلاني ص ١٧

(٦) محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي مولى عبد القيس من أئمة المعتزلة ، واليه تنسب الفرقة الهذيلية ، ولد في البصرة ، واشتهر بعلم الكلام ، وسمي بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت بالعلافين ، وكانت وفاته بسامرا سنة ٢٣٥ هـ

انظر لسان الميزان لابن حجر ٤١٣/٥ ، والاعلام للزركلي ١٣١/٧ ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٣٢

(٧) انظر المواقف للايجي ص ٩٩ ، وشرح المقاصد ١٥٩/٢

وأما بالنسبة للمقدمة الثانية :- وهي ثبوت الاعراض ، فقد استدل الامام الباقلاني على اثبات الاعراض بتحرك الجسم بعد سكونه ، وسكونه بعد حركته ، وتفرقه بعد اجتماعه وتغير حالاته ، وانتقال صفاته ، ولا بد أن يكون ذلك كذلك لنفسه أو لعلة ، فلو كان متحركا لنفسه ، ما جاز سكونه بعد تحركه ، وفي صحة سكونه بعد تحركه دليل على أنه متحرك لعلة هي الحركة وقد بين الباقلاني أن هذا الدليل هو الدليل على اثبات الالوان والطعوم والروائح والتأليف ، والحياة والموت ، والعلم والجهل والقدرة والعجز وغير ذلك من ضروبها (١)

ثم بدأ يوضح هذا الدليل ويبينه ، بأن الجسم لا يخلو من أن يكون متحركا لنفسه أو لمعنى ، فأبطل القسم الاول وهو أن يكون متحركا لنفسه لأنه لو كان كذلك لوجب أن لا يوجد من جنسه في ذلك الوقت الا ما كان متحركا الا ترى أن السواد اذا كان سوادا لنفسه ، لم يجز أن يوجد من جنسه ما ليس بسواد ، وأكد بأن الجسم يكون متحركا لمعنى فقال : (وفي علمنا بأنه قد يوجد من جنس الجواهر والاجسام المتحركة ، ما ليس بمتحرك ، دليل على أن المتحرك منها ليس بمتحرك لنفسه وأنه للحركة كان متحركا) (٢)

وأما بالنسبة للمقدمة الثالثة :- وهي ثبوت حدوث الاعراض فقد استدل الامام الباقلاني على حدوث هذه الاعراض بقوله :(والدليل على حدوثها بطلان الحركة عند مجيء السكون ، لأنها لو لم تبطل عند مجيء السكون لكانا موجودين في الجسم معا ، ولوجب لذلك أن يكون متحركا ساكنا معا ، وذلك مما يعلم فساده ضرورة)(٣)

وبهذا يتبين أن الاعراض يتعاقب عليها الوجود والعدم وهذا دليل حدوثها ، لأن القديم لا يجوز عليه العدم والفناء . (٤)

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٨ ، والانصاف للباقلاني ص ١٧

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٩

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢

(٤) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٣٦٤ .

وأما بالنسبة للمقدمة الرابعة :- التي يقوم عليها دليل الحدوث عند الباقلاني وهو استحالة خلو الجواهر عن الاعراض ، فان من صفات الجوهر أن يكون قابلا للعرض ، وهي تعتبر من الصفات الذاتية للجوهر كالتحيز مثلا (١)

وقالوا بأن الجواهر لا تخلو من بعض الاكوان كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، فانها اما أن تكون متحركة أو ساكنة أو مجتمعة أو متفرقة ، والاكوان لا خلاف في أنها أعراض وبهذا يتبين أن الجواهر لا تخلو من الاعراض .

أما بالنسبة للمقدمة الخامسة :- لدليل الحدوث عند الباقلاني وهي استحالة وجود حوادث لا أول لها .

واستدل الامام الباقلاني على ذلك بأن الاجسام حادثة والدليل على ذلك ، أنها لم تسبق الحوادث ولم توجد قبلها ، وما لم يسبق الحوادث يجب كونه محدثا ، اذ كان لا يخلو اما أن يكون موجودا معها أو بعدها ، وكلا الامرين يوجب حدوثه .

ثم قال : (الدليل على أن الجسم لا يجوز أن يسبق الحوادث انا نعلم باضطرار أنه متى كان موجودا فلا يخلو أن يكون متماس الابعاض مجتمعا أو متباينا متفرقا ، لأنه ليس بين أن تكون أجزاؤه متماسة أو متباينة منزلة ثالثة فوجب الا يصح أن يسبق الحوادث ، وما لم يسبق الحوادث فوجب كونه محدثا ، اذ كان لا بد أن يكون انما وجد مع وجودها أو بعدها ، وأي الامرين ثبت ، وجب به القضاء على حدوث الاجسام) (٢)

وبهذا فقد وصل الامام الباقلاني الى حدوث العالم ، لأن الاجسام ما دامت مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ وهذه الاجزاء لا تنفك عن أعراض ثبت حدوثها فان الاجسام لا بد أن تكون حادثة ، وبناء على هذا فمن السهل الوصول الى اثبات المحدث وهو الله سبحانه وتعالى ، لأنه من المعلوم أن كل حادث لا بد له من محدث . (٣)

---

(١) انظر أصول الدين للبغدادي ص ٥٦

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢-٢٣

(٣) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٣٦٩ .

* موقف السلف من دليل الحدوث عند الباقلاني والمتكلمين :-

أولا :- نقد السلف لدليل الحدوث اجمالا وبيان عدم مناسبته للعامة

ثانيا :- احتجاج المتكلمين والباقلاني على أن طريقتهم في الاستدلال بحدوث العالم هي طريقة سيدنا ابراهيم الخليل حيث استدل بالافول الذي هو الحركة والانتقال على حدوث الكواكب ووجود محدث لها .

ثالثا :-جعل المتكلمين وعلى رأسهم الامام الباقلاني نظرية الجوهر الفرد أساسا لاثبات وجود الله ، ومن ثم يصبح الايمان بها أصلا من أصول الدين والايمان بالله واليوم الاخر ، وهذا باطل ومعلوم الفساد .

وسنتحدث عن هذه النقاط بشيء من التفصيل :-

أولا :- يتوجه النقد الى دليل الباقلاني والمتكلمين في استدلالهم بحدوث العالم على وجود الله تعالى بأن هذه الطريقة باطلة ، قائمة على مقدمات خفية تحتاج الى تحديد المراد بالفاظها ، والاستدلال عليها بأدلة فوق مستوى العامة ، كاثبات الاعراض التي هي الصفات ، ثم اثبات بعضها كالاكوان التي هي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق واثبات حدوثها ، بابطال انتقالها من محل الى محل ، ثم بعد ذلك في المرحلة الثالثة اثبات امتناع خلو الجسم عن الاعراض ، اما عن كل جنس من أجناس الاعراض : باثبات أن الجسم قابل لها ، وأن القابل للشيء لا يخلو منه أو عن ضده ، وأما عن الاكوان واثبات امتناع حوادث لا أول لها ، وهذا يقوم على مقدمتين :

احداهما :-أن الجسم لا يخلو عن الاعراض التي هي الصفات .

والثانية :- أن ما لا يخلو عن الاعراض فهو محدث ، لأن الاعراض محدثة ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا تتناهى (١)

فكيف يمكن أن ندعو الناس الى الايمان بوجود الله تعالى بهذه الطريقة الصعبة المعقدة المتشعبة ، ولا أستطيع أن أسوق في هذا المقام ما ورد على هذه الطريقة من الشبهات التي اضطر المتكلمون أن يردوا عليها فازدادت غموضا وتعقيدا .

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٠٣/٣-٣٠٤ ، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣٨/١-٣٩

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أن هذه طريقة بعيدة شاقة ، وعلق على الامام الباقلاني في استخدامه لهذه الطريقة ، ونقل عنه نصوصا من شرح اللمع الذي شرح فيه كتاب اللمع لأبي الحسن الأشعري ، واعترض عليه الامام ابن تيمية في استدلاله بدليل الحدوث ، وقال في ختام قوله : (ولهذا لا توجد هذه الطريق البعيدة في كلام أحد من السلف والأئمة ، ولا ذكرت في القرآن فانها من باب تضييع الزمان ، واتعاب الحيوان (١) في غير فائدة) (٢)

كما بين شيخ الاسلام ابن تيمية في موضع آخر فساد هذا الدليل وفساد ما يقوم عليه من مقدمات بقوله : (ثم معرفة فساد هذا الطريق عقلا هو الطف من العلم بالغنى عنها ، ولهذا يظهر الغنى عنها لخلق كثير قبل أن يظهر لهم فسادها ، وقد ذكر من الكلام على مقدماتها وفسادها وطعن بعض أهلها في بعض وافسادهم لمقدماتهم ، وبيان فسادها بصريح العقل) (٣)

كما أن هذه الطريقة وهي الاستدلال بدليل الحدوث على وجود الله تعالى ، من الناس من يظنها من لوازم الايمان ، وأن الايمان لايتم الا بها ومن لم يعرف ربه بهذا الطريق لم يكن مؤمنا به ، وهذا يقوله الجهمية والمعتزلة ومتأخرو الاشعرية بل أكثرهم ،وكثير من المنتسبين الى الائمة الاربعة ، وكثير من أهل الحديث والصوفية (٤)

ويستطرد ابن القيم قائلا : بأن من الناس من يقول : (ليس الايمان موقوفا عليها ولا هي من لوازمه ، وليست طريق الرسل ويحرم سلوكها لما فيها من الحظر والتطويل وان لم يعتقد بطلانها) (٥)

ثم ان هذه الطريقة وهي استدلال الباقلاني وجمهور المتكلمين بدليل الحدوث على وجود الله تعالى طريقة مذمومة في الشرع ، مبتدعة في العقل والدين ، وهي ليست طريق الرسل وأتباعهم ، ولا سلف الامة وأئمتها ، بل ذكر بعضهم أنها محرمة عندهم .

---

(١) لا أدري ماذا يقصد ابن تيمية بقوله الحيوان ، هل يقصد به الانسان،فان قصد به الانسان فهو تعبير منطقي غريب .

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨٨/٨

(٣) المرجع السابق ٣٧/٨

(٤) انظر مختصر الصواعق المرسلة للموصلي ١٥٧/١

(٥) نفس المصدر ١٥٧/١

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (فهذه الطريقة مما يعلم بالاضطرار أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس بها الى الاقرار بالخالق ونبوة الانبياء ، ولهذا قد اعترف حذاق أهل الكلام - كالاشعري وغيره - بأنها ليست طريق الرسل وأتباعهم ، ولا سلف الامة وأئمتها ، وذكروا أنها محرمة عندهم بل المحققون على انها طريقة باطلة) (١)

ومن المعلوم بالاضطرار أيضا أن الرسول والصحابة والتابعين ، ما دعوا أحدا من الناس الى الايمان بالله تعالى والاقرار بوجوده بهذه الطريقة، ولا استدلوا على أحد بهذه الحجة ، بل ولا سلكوا هم في معرفته هذا الطريق ولا حصّلوا العلم بهذا النوع من النظر والاستدلال المبتدع المحدث ، الذي قد أغنى الله عنه ، وظهر الغنى لكل عاقل عن معرفته (٢)

ومن عيوب هذه الطريقة أن الذين استدلوا بها وتمسكوا بالدفاع عنها ودفع الشبه الواردة عليها ، قد التزموا لاجلها بلوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل .

لذا فان شيخ الاسلام ابن تيمية يرى أن مقدمات هذه الطريقة فيها تفصيل وتقسيم يمنع ثبوت المدعى بها مطلقا ، فلهذا يرى أن من اعتمد عليها في أصول دينه (فأحد الامرين لازم له :

- اما أن يطلع على ضعفها ، ويقابل بينها وبين أدلة القائلين بقدم العالم فتتكافأ عنده الادلة ، أو يرجح هذا تارة وهذا تارة كما هو حال طوائف منهم .

- واما أن يلتزم لاجلها لوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل) (٣)

ومن هذه اللوازم الباطلة التي التزمها أصحاب هذه الطريقة :-

---

(١) درء التعارض لابن تيمية ٣٩/١ ، وانظر مختصر الصواعق لابن القيم ١٥٧/١ وانظر مجموعة الفتاوى لابن تيمية ٣٠٤/٣

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣٠٧/٨ ، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣٩/٦-٢٤٠

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٤٩/١ ، وانظر مجموع الفتاوى له ٣٠٤/٣

١- التزم جهم بن صفوان (١) فناء الجنة والنار وفناء أهلهما وعدمهم عدما محضا .

٢- والتزم أبو الهذيل العلاف انقطاع حركات أهل الجنة دون ذاتهم فاذا رفع أحدهم اللقمة الى فيه وفنيت الحركات بقيت يده ممدودة لا تتحرك ويبقى كذلك أبد الآبدين .

٣- والتزم قوم لأجلها - كالاشعري وغيره - أن الماء والهواء والتراب والنار له طعم ولون وريح ونحو ذلك ، وقالوا : ان الروائح والاصوات والمعارف والعلوم ، تؤكل وتشرب وتسمع وتلمس ،وأن الحواس الخمسة تتعلق بكل موجود.

٤- والتزم قوم لأجلها ولاجل غيرها أن جميع الاعراض - كالطعم واللون وغيرهما - لا يجوز بقاؤها بحال ، ردا لمن قال لهم الصفات أعراض فيجب حدوثها ونفي قيامها بذاته تعالى .

٥- والتزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم لأجلها نفي صفات الله تعالي مطلقا ، بحجة أن الصفات أعراض ، والأعراض حادثة ، ويستحيل أن يكون الله تعالى محلا للحوادث ،لأن عندهم ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، لأنهم ظنوا أنه لا يمكن اثبات الصانع الا باثبات حدوث العالم ولا يتم هذا بزعمهم الا باثبات حدوث ما يقوم بالعالم من الصفات والافعال المتعاقبة فألجأهم ذلك الى أن ينفوا عن الله صفاته وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته ، أو ينفوا بعض ذلك .

٦- ولهذا فقد التزموا من أجلها بنفي العلو وتأويل الاستواء.

٧- والتزموا القول بخلق القرآن ، ونفي كلام الله تعالى .

---

(١) جهم بن صفوان السمرقندي ، أبو محرز ، من موالي بني راسب رأس الطائفة الجهمية ، الضال المبتدع ، زرع شرا عظيما ، قتله بمرو سلم بن أحوز على شط نهر بلخ ، وتتلمذ على الجعد بن درهم ، من أهم أقوال الجهمية نفي صفات البارئ عز وجل ، والقول بالجبر ، والقول بفناء الجنة والنار ، توفي سنة ١٢٨ هـ

انظر لسان الميزان لابن حجر ١٤٢/٢ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٥٨-١٥٩ والاعلام للزركلي ١٤١/٢

٨- كما أنكروا رؤية الله تعالى في الآخرة .

٩- ونفوا الصفات الخبرية من أولها الى اخرها .

١٠- وعن هذه الطريق قالت الجهمية : ان الله في كل مكان بذاته وقالت المعتزلة انه ليس في العالم ، ولا خارج العالم ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا مباينا له ولا محايثا له ولا فوقه ولا خلفه ولا أمامه ولا ورائه .

١١- ومن أجلها نفوا عنه تعالى الرضى والغضب والمحبة والرحمة والرأفة والضحك والفرح ، وأولوا كل هذه الصفات تأويلا يعطلها وينفيها ولوازمه الباطلة أكثر من مائة لازم بل لا يحصى بكلفه ، ومن العجب أنهم لم يثبتوا بها في الحقيقة صانعا ولا صفة من صفاته ولا فعلا من أفعاله ولا نبوة ولا مبدأ ولا معادا ولا حكمة ، بل هي مستلزمة لنفي ذلك كله نفيا صريحا ولزوما بينا (١)

والذي يظهر من كل ما تقدم أن دليل الامام الباقلاني بخاصة والمتكلمين بعامة على اثبات وجود الله لا يصلح لعامة الناس وذلك لتعقيد مقدماته-كما مر معنا-وهو في نهايته لا يفضي الى التعيين والاعتقاد بوجود الله تعالى ، كما أن كثيرا من العقلاء قد عرفوا الله عز وجل من غير هذا الدليل ، وهناك ما يغني عنه وهو الاستدلال بالخلق على الخالق ، وبعنايته سبحانه في هذا الكون وبديع نظامه بطريقة ميسرة سهلة تجمع بين العقل و الشرع ، يفهمها العامة والخاصة من أهل العلم .

---

(١) انظر في هذه اللوازم التي التزمها المتكلمون ، درء التعارض لابن تيمية ١/٣٩-٤٠-٤١ ، ومجموعة فتاوى شيخ الاسلام ٣/٣٠٤-٣٠٥ ، ومختصر الصواعق لابن القيم ١/١٥٨-١٥٩

ثانيا :- أما ما ذهب اليه الامام الباقلاني - رحمه الله تعالى- كغيره من المتكلمين بأن طريقتهم في الاستدلال بحدوث العالم على وجود الله تعالى هي نفس طريقة واستدلال سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام فيما حكى الله عز وجل عنه بقوله : ((فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين)) (١)

يقول الامام الباقلاني أن الخليل عيه السلام انما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة الى حالة ، وأنه علم أن هذه الكواكب لما تغيرت وانتقلت من حال الى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة وأن لها خالقا ، فقال عند ذلك : ((وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض))(٢) (٣)

والحقيقة أن هذا الكلام ليس صحيحا ، ويظهر لنا زيفه فيما يقرره ابن تيمية رحمه الله بقوله : (ان كثيرا من الجهمية .... يستدلون على ذلك بقصة الخليل صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك بشر المريسي (٤) ، وكثير من المعتزلة ، ومن أخذ ذلك عنهم ، أو ممن أخذ ذلك عنهم كأبي الوفاء بن عقيل (٥)

---

(١) الانعام الآية ٧٦

(٢) الانعام الآية ٧٩

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٠

(٤) هو بشر بن غياث ابن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي ، العدوي بالولاء أبو بكر عبد الرحمن، فقيه معتزلي عارف بالفلسفة ، يرمى بالزندقة ، وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالارجاء واليه نسبتها وقد قال برأي الجهمية وقيل كان أبوه يهوديا ، توفي سنة ٢١٨هـ ، وللامام الدارمي كتاب في الرد عليه بعنوان رد الدارمي على بشر المريسي العنيد ، وهو كتاب جيد مطبوع

انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٣٢٢/١ ، وشذرات الذهب ٢٢٨/٢، والاعلام للزركلي ٥٥/٢

(٥) أبو الوفاء علي بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري ، شيخ الحنابلة وصاحب التصانيف ، له كتاب الفنون الذي يزيد على أربع مئة مجلد ، وكان اماما فاضلا كثير العلوم خارق الذكاء ، تفقه على القاضي أبي يعلى ، ولد سنة ٤٣٢هـ وتوفي سنة ٥١٣هـ

انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢٥٩/٢ ، والعبر للذهبي ٤٠٠/٢ ، وشذرات الذهب ٣٥/٤

وأبي حامد (١) والرازي (٢) وغيرِّهم ، وذكروا في كتبهم أن هذه الطريقة هي طريقة ابراهيم الخليل وهي قوله :((لا أحب الآفلين)) (٣)

قالوا : فاستدل بالافول الذي هو الحركة والانتقال على حدوث ما قام به ذلك كالكوكب والقمر والشمس .

وظن هؤلاء أن قول ابراهيم ((هذا ربي)) (٤) أراد به : هذا خالق السموات والارض ، القديم الازلي ، وأنه استدل على حدوثه بالحركة) (٥) وكلامهم هذا خطأ من وجوه :-

الاول :- أن الافول هو المغيب والاحتجاب ، وليس هو الحركة والانتقال وذلك باتفاق أهل اللغة والتفسير ، وأن تفسير الباقلاني والمتكلمين له بالانتقال ، هو من باب التجني على لغة العرب ، فليس في لغة العرب أن معنى أفل أي تحرك أو تغير ، والمعروف أن أفل بمعنى غاب واحتجب . (٦)

---

(١) محمد بن محمد الغزالي نسبة الى غزل الصوف وبيعه ، الطوسي أبو حامد حجة الاسلام ، فيلسوف متصوف فقيه أصولي ، كثير الرحلات وكثير المصنفات من مصنفاته احياء علوم الدين، والمستصفى في أصول الفقه ، وتهافت الفلاسفة وغيرها ، توفي سنة ٥٠٥هـ

انظر طبقات الشافعية للسبكي ١٩١/٦ ، والاعلام للزركلي ٢٢/٧

(٢) [عمر بن الحسين بن] محمد بن الحسين التميمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي ، الامام المفسر الاصولي المتكلم المناظر ، صاحب التصانيف المشهورة في الآفاق ، القرشي النسب ، وأصله من طبرستان ومولده بالريّ واليها نسبته ولد سنة ٥٤٤هـ ، ومعروف بابن الخطيب أو ابن خطيب الريّ ، توفي في هراة سنة ٦٠٦ هـ ، من مصنفاته التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب ، والمحصول في علم الاصول ، والمعالم في أصول الدين ، ومحصل افكار المتقدمين والمتأخرين وغير ذلك

انظر لسان الميزان ٤٢٦/٤ ، والبداية والنهاية ٦٠/١٣ ، والاعلام للزركلي ٣١٣/٦

(٣) الانعام الاية ٧٦

(٤) الانعام الاية ٧٧

(٥) درء التعارض لابن تيمية ٣١٠/١-٣١١ ، وانظر شرح حديث النزول لابن تيمية ص ١٦٥

(٦) انظر شرح حديث النزول ص ١٦٥-١٦٦ ، ودرء التعارض ١٠٩/١ ، ٣٥٥/٨ ، ومجموع الفتاوى ٢٥٤/٦ .

ثانيا :- لو كان مقصودا براهيم عليه الصلاة والسلام الاستدلال بالحركة والنقلة ، لما كان هناك موجب لانتظار الافول ، لأن الشمس والقمر والكواكب كانت تتحرك في بزوغها ، وهذا التحرك هو ما يسمونه بالتغير والانتقال ، فلو كان ابراهيم عليه السلام يقصد الاستدلال بالحركة على نفي الربوبية لقال ذلك عند بزوغها وانتقالها ، ولكن لم يقل ذلك الا بعد أن أفلت وغابت واحتجبت • (١)

ثالثا :- ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن بصدد اثبات الصانع ، حتى يستدل بحادث على محدث ، وليس مراده بقوله " هذا ربي " أي رب العالمين ، ولا أن هذا هو القديم الازلي الواجب الوجود ، لأن قومه كانوا يقرون بالصانع ، ويشركون معه غيره في العبادة ، فيعبدون الكواكب من دون الله عز وجل ، فأراد أن يبين لهم أن هذه الكواكب لا تصلح للعبادة لأن الذي يستحق العبادة ينبغي أن لا يغيب ، لانه منزه عن كل نقص وعيب ولهذا قال الخليل : ((أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم واباؤكم الاقدمون * فانهم عدو لي الا رب العالمين)) (٢) ، وقال : ((انني براء مما تعبدون * الا الذي فطرني فانه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون))(٣)

فقوم ابراهيم عليه السلام كانوا يقرون بالصانع ، ويشركون معه غيره في العبادة ، وهذا هو المناسب لمقصود ابراهيم عليه السلام (٤) ،فعلم أن ابراهيم عليه السلام لم يستدل بحركاتها وانتقالها على وجود محدث لها •

رابعا :- لو كان المراد بقوله " هذا ربي " أنه رب العالمين لكانت قصة الخليل حجة على نقيض مطلوبهم - أي الامام الباقلاني والمتكلمين - لأن مطلوبهم من هذا الدليل أن الاله منزه عن الجسمية ولوازمها مثل الانتقال والضوء ، فلو كان ابراهيم عليه السلام استدل بالافول ، وهو الحركة والانتقال على رأيهم ، والمفروض أن الكوكب قبل الافول قد مر بمراحل مثل - البزغ والتحرك والضوء والصغر والكبر - فلو كان مراد سيدنا ابراهيم أن المنتقل

---

(١) انظر درء التعارض لابن تيمية ١١٠/١ ، ٣١٣ ، وشرح حديث النزول ص ١٦٦ وابن تيمية وقضية التأويل د/ الجليند ص ١٩٠

(٢) الشعراء الايات ٧٥-٧٧

(٣) الزخرف الايات ٢٦-٢٨

(٤) انظر درء التعارض ١١٠/١ ، ٣١١/١-٣١٢، ٣٥٦/٨ ، وشرح حديث النزول ص ١٦٦-١٦٧ ومجموع الفتاوى ٢٥٤/٦-٢٥٥ ، والعقيدة الاسلامية د/ محمود خفاجي ص ١٩٦-١٩٧

رب العالمين فمعنى هذا أن سيدنا ابراهيم عليه السلام يجيز هذا التجسيم وهذا لا يظنه عاقل ممن هو دون ابراهيم عليه السلام ، فاذا جوزوه عليه كان حجة عليهم لا لهم (١)

خامسا :- ان هذا القول الذي قاله الباقلاني وجمهور المتكلميين لم يقله أحد من علماء السلف أهل التفسير ، ولا من أهل اللغة ، بل هو من التفسيرات المبتدعة في الاسلام كما ذكر ذلك عثمان بن سعيد الدارمي (٢) ، وغيره من علماء السنة ، وبينوا أن هذا من التفسير المبتدع (٣)

من كل ما تقدم يتبين لنا بطلان استدلال الامام الباقلاني-رحمه الله-بقصة الخليل عليه السلام ، وأنها دلت على مطلوبه من دليل الحدوث وتبين لنا أيضا أن الامام الباقلاني - رحمه الله - سار على نهج المتكلميين في هذا ، والحق أنه لا يصح الاستدلال بهذه القصة على مطلوب الباقلاني وغيره من المتكلميين .

---

(١) انظر درء التعارض لابن تيمية ٣١٣/١ ، ومجموع الفتاوى له ٢٥٦/٦-٢٥٧

(٢) الحافظ الامام الحجة أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني محدث هراة ، له التصانيف في الرد على الجهمية منها النقض على المريسي الذي سماه ناشره رد الامام الدارمي على بشر المريسي العنيد ، وله مسند كبير ، وله كتاب الرد على الجهمية مطبوع ، توفي في هراة سنة ٢٨٠هـ انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٦٢١/٢ ، والاعلام للزركلي ٢٠٥/٤

(٣) انظر درء التعارض ٣١٤/١ ، ورد الامام الدارمي على بشر المريسي ص ٥٥

ثالثا :- سبق أن قلنا أن الامام الباقلاني - رحمه الله - جعل من مقدمات دليله على حدوث العالم القول بالجوهر الفرد ، لأنّ عنده وعند جمهور المتكلميين أن الجوهر هو المتحيز ، فاما أن يقبل القسمة وهو الجسم ، واما أن لا يقبلها وهو الجوهر الفرد .

وعلقوا صحة اثبات الصانع والقول بالمعاد ، وبعث الناس من القبور ، بصحة قولهم بالجوهر الفرد فأصبحت هذه النظرية أصلا للايمان بالله واليوم الآخر .

وجمهور المعتزلة يمنعون حصول الايمان بالله واليوم الآخر بدون الاعتقاد بها ، حيث لا يتم الايمان الا بمعرفة حدوث العالم ، ولا يعرف حدوثه الا بطريقة الاعراض ، وطريقة الاعراض مبنية على أن الاجسام لا تخلوا منها وهذا لم يتم لهم اثباته الا بالاكوان التي هي الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، فعلى هذه الطريقة اعتمد أوائلهم ومتأخروهم حتى القائلين بأن الجواهر لا تخلوا عن كل جنس من أجناس الاعراض ، وعن جميع أضداده ان كان له أضداد ، وهذا أبلغ الاقوال وهو قول الاشعري ومن وافقه كالقاضي أبي بكر الباقلاني ، والقاضي أبي يعلى (١) وأبي المعالي الجويني ، وأبي الحسن ابن الزاغوني (٢) وغيرهم،فانهم لم يستطيعواأن يثبتوا أن الجسم لا يخلوا من

---

(١) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي ابن الفراء أبو يعلى ،عالم عصره في الاصول والفروع وأنواع الفنون ، شيخ الحنابلة في عصره ، تولى القضاء ، له تصانيف كثيرة منها الاحكام السلطانية، والعدة في أصول الفقه وغير ذلك ، توفي سنة ٤٥٦هـ

انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١٩٣/٢ ، والعبر للذهبي ٣٠٩/٢ ، والاعلام للزركلي ٩٩/٦

(٢) علي بن عبد الله بن ناصر السري بن الزاغوني البغدادي الفقيه ،المحدث الواعظ ، أبو الحسن ، شيخ الحنابلة وأوحد أعيانهم ، سمع الحديث واشتغل بالفقه والنحو واللغة ، وله مصنفات كثيرة في الاصول والفروع منها الاقناع والواضح ، والايضاح في أصول الدين ، وغير ذلك ، ولد سنة ٤٥٥هـ وتوفي سنة ٥٢٧هـ انظر البداية والنهاية ٢٢٠/١٢، والعبر للذهبي ٤٣١/٢ ، والمنهج الاحمد ٢٢٧/٢

الاعراض الا بالاكوان وعند التحقيق لا يمكنهم أن يثبتوا ذلك الا بالاجتماع والافتراق ، ومعلوم أن قبول الاجتماع والافتراق لا يمكنهم اثباته حتى يثبتوا أن الجسم يقبل الاجتماع والافتراق ، وذلك مبني على أنه مركب من الاجزاء التي هي الجواهر المنفردة فصار الاقرار بالصانع مبنيا عند هؤلاء المتكلميين على اثبات الجوهر الفرد (١)

وقد ذهب بعضهم ومنهم أبو عبد الله الرازي الى أن اثبات المعادّ موقوف على ثبوت الجوهر الفرد فجعله الاصل في الايمان بالمعاد ، وجعله أصلا لمذهبه في نفي الصفات التي ينكرها (٢)

وقد تعجب ابن القيم من المتكلميين حينما جعلوا القول بالجوهر الفرد أصلا للدين ، ويرى أن هذا القول من أقوال البدع التي ابتدعوها في الاسلام ، وبنوا عليها المعاد وحدوث العالم ، فلو كان القول بالجوهر الفرد صحيحا ، لم يكن معلوما الا بأدلة خفية دقيقة فبهذا لا يكون من أصول الدين وأئمة الاسلام ، وفحول النظار ، لم يعتمدوا على هذه الطريقة ، بل هي عندهم أضعف وأوهى من أن يبنوا عليها شيئا من الدين ، فضلا على حدوث العالم ، واعادة الاجسام . (٣)

فانهم لما اعتقدوا أن اثبات الصانع تعالى موقوف على اثبات الجوهر الفرد ، جعلوا اثبات ذلك من أقوال المسلمين ، ونفي ذلك من أقوال الملحدين (٤)

مع أن القول الآخر هو الذي عليه سلف الامة وأئمتها وجمهور الخلق وأن هذا الذي يضيفونه الى المسلمين ، قد يكون انما ابتدعه طائفة من أهل الكلام الذي ذمه السلف والائمة . (٥)

---

(١) انظر بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ١/٢٨٠-٢٨١

(٢) المرجع السابق ١/٢٨١

(٣) انظر ابن القيم وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف د/ عبد الله جبار النبي ١/١٨٦-١٨٧

(٤) انظر درء التعارض لابن تيمية ٨/٩٣

(٥) انظر نفس المصدر ٨/٩٤

وقد رد عليهم شيخ الاسلام ابن تيمية من وجهين :-

أحدهما :- انا نعلم بالاضطرار من دين الاسلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين لم يبنوا شيئا من أمر الدين على ثبوت الجوهر الفرد ولا انتفائه ، وأن المعنى الذي يقصده المثبتة والنفاة بلفظ الجوهر الفرد لم يبن عليها أحد من سلف الامة وأئمتها مسألة واحدة من مسائل الدين العلمية والعملية .

وأيضا فانه أطبق أئمة الاسلام على ذم من بنى دينه على الكلام في الجواهر والاعراض ، وأن هؤلاء الذين ادعوا توقف الايمان بالله واليوم الآخر على ثبوته قد شكوا فيه ، ونفوه في آخر عمرهم كامام المتأخرين من المعتزلة أبو الحسين البصري (١) وأمام المتأخرين من الاشعرية أبي المعالي الجويني ، وامام المتأخرين من الفلاسفة والمتكلمين أبي عبد الله الرازي كما ورد ذلك عنهم ، فان الرازي قد قال في بعض مصنفاته بعد أن تحدث عن الجوهر الفرد-وأقوال الناس فيه وحججهم - واعلم أنا نميل الى التوقف في هذه المسألة ، وصرح بذلك أمام الحرمين في كتاب التلخيص في أصول الفقه واعترف أن هذه المسألة من محارات العقول ، فاذا كان الذين قالوا هذا وجعلوه أصل دينهم ينفوه في آخر عمرهم فأي ضلال بعد هذا .

الوجه الثاني :- الرد على دعواهم أن هذا قول المسلمين أوقول جمهور المتكلميين من المسلمين ، ومن المعلوم أن هذا انما قاله أبو الهذيل العلاف من المعتزلة ومن تبعه من متكلميهم ، وقد نفى الجوهر الفرد كثير من المعتزلة مثل حسين النجار (٢)

---

(١) محمد بن علي بن الطيب ، أبو الحسين البصري ، أحد أئمة المعتزلة وصاحب التصانيف الكلامية ، ولد في البصرة وسكن بغداد ، وتوفي بها سنة ٤٣٦هـ من مصنفاته المعتمد في أصول الفقه مطبوع ، وتصفح الادلة ، وغير ذلك .
انظر البداية والنهاية ٥٧/١٢ ، والعبر للذهبي ٢٧٣/٢ ، والاعلام للزركلي ٢٧٥/٦

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبد الله النجار الرازي أبو عبد الله ، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة واليه نسبتها ، كان حائكا من أهل قم ، وهو من متكلمي المجبرة ، والنجارية توافق المعتزلة في نفي الصفات وخلق القرآن ونفي الرؤية ، توفي سنة ٢٢٠هـ
انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٥٤ ، وخبيئة الاكوان لصديق خان ص ٢٨، والاعلام للزركلي ٢٥٣/٢ .

وأصحابه ، وضرار بن عمرو (١) ؛ ونفته الكلابية أتباع أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ، ونفاه طائفة من الكرامية (٢)

ولو كانت قضية ونظرية الجوهر الفرد من أساس هذه العقيدة كما زعموا ، لبين ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبما أن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد بطلت دعواهم من أن نظرية الجوهر الفرد أصل الدين .

ويعلق الدكتور محمد خليل هراس في نقده لمنهج المتكلميين في الاستدلال والاعتماد على نظرية الجوهر الفرد ، وجعلهم لها أصلا من أصول الدين بقوله : (وان من أعظم الحرج أن نكلف العامة ومن لا قدرة لهم على النظر أصلا بتحصيل معنى الامكان والحدوث والتغير والجوهر والعرض وغير ذلك مما يدخل في تركيب هذه الادلة ، ثم نقول لهم انكم لا يصح ايمانكم بالله الا من هذه الطريق ، فنضيق عليهم رحمة الله ونصدهم عن سبيله ونكلفهم من الامر ما لا يطيقون) (٣)

هذا ما كان من نقد طريقة الباقلاني في الاستدلال بحدوث العالم على وجود الله تعالى .

ولعل قائلا يقول : ان هذا النقد الموجه لنظرية الجوهر الفرد موجه لجمهور المتكلميين وليس للامام الباقلاني .

---

(١) هو ضرار بن عمرو الغطفاني ، قاضي من كبار المعتزلة ، طمع برياستهم في بلده ، فلم يدركها ، فخالفهم فكفروه وطردوه ، وصنف نحو ثلاثين كتابا بعضها في الرد عليهم وبعضها في الرد على الخوارج ، وتنسب اليه فرقة من فرق المعتزلة وهي الضرارية ، توفي سنة ١٩٠هـ

انظر لسان الميزان ٢٠٣/٣ ، وخبيئة الاكوان لصديق خان ص ٢٥ ، والاعلام للزركلي ٢١٥/٣

(٢) انظر في ذلك بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ٢٨٣/١-٢٨٤ ، والكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ص ٤٣

(٣) ابن تيمية السلفي د/ محمد خليل هراس ص ٧٧

فأقول وبالله التوفيق ان جمهور المتكلميين من الاشاعرة قد أخذوا نظرية الجوهر الفرد عن الامام الباقلاني ، وهو من أوائل من قال بهذه النظرية من متكلمي الاشاعرة ، وكل من جاء بعده أخذ عنه هذا ٠

يقول ابن خلدون : ان الامام الباقلاني أول من وضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الادلة كالقول بالجوهر الفرد ، والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانيين وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد والمقدمات تبعا للعقائد الايمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الادلة عليها ٠ (١)

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧

أدلة الامام الباقلاني الاخرى التي استدل بها على وجود الله تعالى :-

لقد استدل الامام الباقلاني بأدلة كثيرة على اثبات وجود الله تعالى ، ولكن معظم هذه الادلة يرتكز على دليل الحدوث ودليل الامكان .

الدليل الثاني :-

استدل الامام الباقلاني بأن العالم مكون من جواهر وأعراض وانها لا تخلو من أعراض ، وكل منهما حادث فالعالم حادث ، ولا بد لهذا العالم الحادث من محدث ، واستدل على ذلك بقوله (أن الكتابة لا بد لها من كاتب والصورة لا بد لها من مصور صورها ، والبناء لا بد له من بان بناه ، وانا لا نشك في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت لا من كاتب ، وصياغة لا من صائغ وحياكة لا من ناسج ، واذا صح هذا فوجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها) (١)

وهذا الدليل يقوم على مبدأ السببية ، لأنه اذا لم يكن تصور صناعة بدون صانع ، فان العالم بما فيه من عظيم مخلوقات الله ودقة صنعها وابداعها لا بد لها من صانع حكيم ، وفي رأيي أن هذا الدليل الذي استدل به الامام الباقلاني على وجود الله تعالى لا يخرج عن دليل الحدوث .

وقد وجه الى الامام الباقلاني اعتراض مفاده أنه ليس من الضروري أن يكون للعالم المحدث ، محدثا أو فاعلا أحدثه فقد يكون العالم فاعلا لنفسه .

فأجاب الباقلاني على هذا الاعتراض بقوله : (ان [وجدنا] منها الموات والاعراض - ويعني بها الجمادات التي لا حياة فيها - لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها ولا لغيرها ، لأن من شرط الفاعل أن يكون حيا قادرا فبطل كونها محدثة لنفسها بل لها محدث أحدثها) (٢)

وكذلك انا وجدنا أن أنفس الموجودات في العالم الانسان الحي القادر العاقل المحصل ، وقد كان في ابتداء أمره نطفة ميتة لا حياة فيها ولا قدرة ، ثم نقل الى العلقة ، ثم الى المضغة ثم من حال الى حال ، ثم بعد خروجه حيا من الاحشاء الى الدنيا ، تعلم وتحقق أنه كان في تلك الحالة جاهلا بنفسه وكيفية تركيبه ، ثم بعد كمال عقله وفهمه لا يقدر في حال كماله أن يحدث

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٣ ، وانظر الانصاف للباقلاني ص ٣٠-٣١

(٢) الانصاف للباقلاني ص ٣١ ، وانظر التمهيد تحقيق مكارثي ص ٢٤

في بدنه شعرة ولا شيئا ، فكيف يكون محدثا لنفسه وناقلا لها من حالة الى حالة وهو في حالة نقصه ، فلم يبقى الا أن له محدثا أحدثه ومصورا صوره ومُنقلا نقله وهو الله سبحانه وتعالى . (١)

الدليل الثالث :-

ومن الادلة التي عرضها الامام الباقلاني في الاستدلال على وجود الله تعالى قوله : (علمنا بصحة قبول كل جسم من أجسام العالم لغير ما حصل عليه من التركيب وصحة كون المربع منها مدورا ، وكون المدور مربعا وكون ما هو بصورة بعض الحيوان بصورة غيره ، وانتقال كل جسم عن شكله الى غيره من الاشكال ، فلا يجوز أن يكون ما اختص منها بشكل معين مخصوص انما اختص به لنفسه أو لصحة قبوله له ، لأنّ ذلك لو كان كذلك لوجب قبوله لكل شكل يصح قبوله له في وقت واحد ، حتى يجتمع فيه جميع الاشكال المتضادة وفي فساد ذلك دليل على بطلان هذا القول ووجوب العلم بأن كل ذي شكل منها انما حصل كذلك بمؤلف ألفه وقاصد قصد كونه كذلك) (٢)

وعبر عنه في موضع آخر بقوله : (علمنا بأن الصور الموجودة منها ما هو مربع ، ومنها ما هو مدور ، ومنها شخص أطول من شخص ، وآخر أعرض من آخر مع تجانسها ، ولا يجوز أن يكون المربع منها ربع نفسه ، ولا المطول منها طول نفسه ، ولا القبيح منها قبح نفسه ، ولا الحسن منها حسن نفسه فلم يبق الا أن لها مصورا صورها ، طويلة ، وقصيرة ، وقبيحة ، وحسنة على حسب ارادته ومشيئته) (٣)

وأرى أن هذا الدليل هو نفس دليل التخصيص الذي سماه المتكلميين دليل امكان الاعراض ، وملخصه : أن الاجسام متماثلة لتركبها من جواهر متماثلة ، فاختصاص كل جسم بما له من الصفات جائز ، فلا بد في التخصيص من مخصص له (٤)

---

(١) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣١-٣٢ ، والتمهيد له تحقيق مكارثي ص ٢٤

(٢) التمهيد تحقيق مكارثي ص ٢٣-٢٤

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٣١

(٤) انظر المواقف للايجي ص ٢٦٦

(والفرق بين دليل حدوث الاعراض ، ودليل امكان الاعراض أن الحاجة الى الفاعل في الاول انما هو في الخروج من العدم الى الوجود ، وفي الثاني اختصاص الجواهر ببعض الاعراض دون بعض .)(١)

ونرى أن هذا الدليل لا يخرج عن دليل من سبقه من المتكلميين وهو المعروف بدليل الامكان أو دليل الاختصاص .

الدليل الرابع :-

ومن الادلة التي استدل بها الامام الباقلاني على وجود الله تعالى ، دليل رابع مبني على وجود نظام وترتيب في الموجودات وذلك لأننا نعلم - كما يقول الباقلاني - علمنا بتقدم الحوادث بعضها على بعض ، وتأخر بعضها عن بعض ، مع العلم بتجانسها وتشاكلها فلا يجوز أن يكون المتقدم منها متقدما لنفسه ، لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقديم كل ما هو من جنسه معه ، وكذلك المتأخر منها ، لو تأخر لنفسه لم يكن المتقدم منها بالتقدم أولى منه بالتأخر ، وفي علمنا بأن المتقدم من المتماثلات بالتقدم أوليس منه بالتأخر دليل على أن له مقدما قدمه وعاجلا عجله في الوجود مقصورا على مشيئته . (٢)

وقد عبر عن هذا الدليل في موضع آخر من كتبه حيث قال : (ويدل على ذلك وجود الحوادث متقدمة و متأخرة ، مع صحة تأخر المتقدم وتقدم المتأخر ، ولا يجوز أن يكون ما تقدم منها وما تأخر متقدما ومتأخرا لنفسه لأنه ليس التقدم بصحة تقدمه أولى من التأخر بصحة تأخره ، فوجب أن يدل على فاعل فعله ، وصرفه في الوجود على ارادته وجعله مقصورا على مشيئته يقدم منها ما شاء ويؤخر ما شاء ، قال الله تعالى ((فعال لما يريد)) (٣) وقال ((انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)) (٤)) (٥)

---

(١) الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٤٠٩ .
(٢) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣١ ، والتمهيد تحقيق مكارثي ص ٢٣
(٣) سورة هود الآية ١٠٧
(٤) سورة النحل الآية ٤٠
(٥) الانصاف للباقلاني ص ١٨

مذهب السلف في اثبات وجود الله :-

دليل الفطرة والرد على من انحرفت فطرهم :-

يرى علماء السلف أن وجود الله تعالى أمر فطري مغروز في الفطر الانسانية ، وقد سجل القرآن الكريم اعتراف المشركين بذلك في أكثر من موضع من الكتاب العزيز حيث قال : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله)) (١) ، وقال : ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))(٢)

فالفطرة السليمة مجبولة على الاقرار بوجود الله سبحانه وتعالى قال تعالى : ((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها))(٣) وقال تعالى : ((قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض)) (٤) وفي الحديث : ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه)) (٥)

(وقد استحسن علماء النظر قول بعض الاعراب ، وقد سأل بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وآثار الخطى تدل على المسير فهيكل علوي وجوهر سفلي ، لم لا يدلان على العليم الخبير) (٦)

وقد سمع ابن القيم شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ ثم قال ابن القيم :

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما (٧)

---

(١) لقمان الاية ٢٥

(٢) الزخرف الاية ٨٧

(٣) الروم الاية ٣٠

(٤) ابراهيم الاية ١٠

(٥) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب الجنائز باب اذا أسلم الصبي ٩٦/٢ ومسلم في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٦/٤، وأبو داود في كتاب السنة باب من ذراري المشركين ٨٦/٥

(٦) ترجيح أساليب القرآن لابن الوزير ص ٨٣

(٧) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٦٠/١

(هذه الفطرة هي التي تفسر الظاهرة التي لاحظها الباحثون في تاريخ الاديان ، وهي أن الامم جميعا - التي درسوا تاريخها - اتخذت معبودات تتجه اليها وتقدسها) (١)

من كل ما تقدم يتبين لنا أن معرفة الله تعالى والاستدلال على وجوده أمر فطري لا يحتاج الى دليل ، والدليل يلزم عند تغير الفطرة، فاذا انحرفت الفطرة يلزم عرض الدليل لمن فسدت فطرته على وجود الله ، أما عند سلامة الفطرة فانها تقر بوجود الله تعالى .

وقد ينشأ سؤال وهو : اذا كان التوجه الى الله تعالى ومعرفته أمر فطري ، فلماذا عبد الناس آلهة غيره على مر العصور ؟

والجواب : أن الفطرة تدعوا الانسان الى الاتجاه الى الخالق لكن الانسان قد تحيط به بعض المؤثرات تجعله ينحرف عن عبادة المعبود الحق وذلك بما يغرسه الآباء في نفوس الابناء ، وما قد يلقيه الكتاب والمعلمون في أفكار الناشئة يبدل هذه الفطرة ويقذرها ، ويلقي عليها غشاوة فلا تتجه الى الحقيقة .(٢)

فالقرآن الكريم يرد على من انحرفت فطرهم عن معرفته سبحانه وتعالى ، وفي نفس الوقت يوجه الناس الى النظر في هذا الكون وما فيه مما يدل على عظمته عز وجل .

والادلة التي جاء بها القرآن لايقاظ الفطرة هي :-

أولا :- <u>دليل الخلق أو الاختراع</u> :-

أرشد الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز على وجوده وعظمته بأدلة باهرة وبراهين قاطعة لا تخفى على أحد من الناس ، من خلق السموات والارض وما بث فيه من الاشياء التى تدل قطعا على وجود خالق لها مثل قوله تعالى : ((ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد)) (٣)

---

(١) العقيدة في الله د/ عمر سليمان الاشقر ص ٦٥

(٢) انظر نفس المرجع ،ص ٦٥-٦٦

(٣) ابراهيم الاية ١٩

وقال تعالى : ((ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير)) (١)

وقال تعالى : ((أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء)) (٢)

وقال تعالى : ((ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون)) (٣)

وأمثال ذلك مما هو من أعظم الادلة على الصانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر .

فقد ذكر الله عز وجل خلق السموات بما فيها من الشمس والقمر والنجوم ، وذكر خلق الارض بما فيها من البحار والانهار والجبال ، وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ احدهما من الآخر ، وذكر الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، و ذكر ما أنزل للناس من السماء من ماء المطر الذي فيه حياة الناس ، كما ذكر الله ما بث في هذه الارض من أنواع الدواب على أشكال مختلفة الصور والاجسام ، مختلفة الالسنة والالوان (٤)
وذكر أشياء كثيرة تدل على وجوده وعظمته سبحانه وتعالى ، ومن ذلك قوله تعالى : ((أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت)) (٥)

فان الله عز وجل قد ذكر في هذه الآية الاجسام والاحوال ، أما الاجسام ، فالابل والسماء والجبال والارض ، وأما الاحوال ، فالخلق والنصب

---

(١) الشورى الاية ٢٩

(٢) الاعراف الاية ١٨٥

(٣) البقرة الاية ١٦٤

(٤) انظر الاعتقاد للبيهقي ص ١٠ ، ورسالة أهل الثغر للاشعري ص ٣٨ ـ ٤٠

(٥) الغاشية الآيات من ١٧ـ٢٠

والرفع والسطح ، فهذه أحوال مختلفة ، وهي مع اختلافها محكمة ، واختلافها مناسب للمصالح وذلك دليل على حكيم صنعها (١)

ويقول ابن القيم : (فآيات الارض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار الى الصانع عليها لا تجحد وهي شواهد قائمة بها) (٢)

وقوله تعالى : ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون)) (٣)

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية : أن القرآن نبه على الادلة العقلية الصحيحة ، كما اعترف أئمة النظار بأن القرآن دل على الطريقة العقلية .

ومن ذلك ما وجدوه في أنفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصنعة ودلائل الحكمة الشاهدة على أن لها صانعا حكيما ، عالما خبيرا (٤) لما ركب في هذه النفس البشرية من الحواس التي عنها يقع الادراك والجوارح التي يباشر بها القبض والبسط ، والاعضاء المعدّة للافعال التي هي خاصة بها كالافتراس التي حدثت فيهم بعد استغنائهم عن الرضاع ، وعند حاجتهم الى الغذاء ، فيقع بها الطحن له ، وكالمعدة التي اتخذت لطبخ الغذاء ، وكالامعاء التي يرسب اليها تفل الغذاء فيبرز عن البدن (٥)

ويبين شيخ الاسلام ابن تيمية في موضع آخر أنه من أوضح الدلالة على معرفة الله سبحانه وتعالى على أن للخلق صانعا ومدبرا أن الانسان اذا فكر في نفسه رآها مدبرة ، وعلى أحوال شتى مصرفة ، كان نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاما ولحما ، ثم يرى نفسه شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة الى حال الشيخوخة والهرم ولا اختاره لنفسه ، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل بنفسه هذه الافعال وأن له صانعا

---

(١) انظر ترجيح أساليب القرآن لابن الوزير ص ٩٩

(٢) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص ٢١٦ ، وانظر نفس المرجع ص ٢١٧

(٣) الذاريات الاية ٢١

(٤) انظر درء التعارض لابن تيمية ٣٥٤/٨

(٥) انظر درء التعارض لابن تيمية ٣٠٠/٧ ، والاعتقاد للبيهقي ص ١٢ ، وانظر هذا بالتفصيل في مفتاح السعادة لابن القيم ١٨٨/١-١٩٥، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٦٢/١٦-٢٦٧ ، ورسالة أهل الثغر للاشعري ص ٣٦-٣٨

صنعه ، وناقلا نقله من حال الى حال ، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر . (١)

وهناك أيات كثيرة لا تعد ولا تحصى تدل على وجوده سبحانه وتعالى أرشد بها عباده الى أن هذا العالم مخلوق ولا بد له من خالق ، بدليل حاجته فالسموات والارض محتاجتان الى من يمسكهما لئلا تزولا ، وكل ما في السموات والارض من ناطق وصامت محتاج الى الله تعالى ، حتى الانسان الذي هو أكمل المخلوقات عقلا محتاج الى طعامه ومسكنه وملبسه والى ما يقيه الحر والبرد والى ما يتداوى به اذا نزل به المرض ، وهو عاجز أن يرد عن نفسه الموت ليبقى حيا .

هذا بالاضافة الى أن الشيء لا يمكن أن يوجد نفسه ، ولا يمكن أن يوجد من غير موجد ، ويؤكد هذا قوله تعالى : ((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)) (٢) ، أي لا هذا ولا هذا بل الذي خلقهم هو الله رب العالمين .

وقد سبق ابن رشد الفيلسوف (٣) شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وتلميذه ابن القيم الى الاستدلال بدليل الخلق والعناية وبين أن هذا طريق القرآن في اثبات وجود الله .

وبنى ابن رشد هذا الدليل على أصلين :-

<u>أحدهما</u> :- أن هذه الموجودات مخترعة وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات .

---

(١) انظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١٧٨/١

(٢) الطور الاية ٣٥

(٣) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ويكنى أبا الوليد ، الفيلسوف وهو ابن رشد الحفيد تميزا له عن جده محمد بن محمد أبا الوليد المتوفى سنة ٥٢٠ هـ تفقه وبرع وسمع الحديث وأتقن الطب ثم أقبل على الكلام والفلسفة حتى صار يضرب به المثل فيها ، وصنف التصانيف الكثيرة منها فصل المقال ، ومناهج الادلة ، وتهافت التهافت ، وبداية المجتهد وغير ذلك ، توفي سنة ٥٩٥ هـ انظر العبر للذهبي ١١١/٣ ، والاعلام للزركلي ٣١٨/٥ ، وتاريخ فلاسفة الاسلام محمد لطفي ص ١١٤ .

والثاني :فهو أن كل مخترع فله مخترع فصح من هذين الاصلين أن للموجود فاعلا مخترعا له (١)

وبعد أن عرض ابن رشد هذه الادلة على وجود الله تعالى وبعد نقده لطرق المتكلميين قال : (فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس بها الى معرفة وجوده ، ونبههم على ذلك بما جعل في فطرهم من ادراك هذا المعنى ، والى هذه النظرية الاولى المغروزة في طباع البشر الاشارة بقوله تعالى : ((واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا))(٢))(٣)

من كل ما تقدم من أدلة القرآن على وجود الله تعالى يتبين لنا ان هذه الادلة سمعية وعقلية تدل دلالة واضحة على وجوده تعالى ، لأن المخلوق لا بد له من خالق ، والمخترع لا بد له من مخترع ، والمصنوع لا بد له من صانع وهو الله رب العالمين .

ثانيا :- دليل العناية الالهية :-

هناك آيات كثيرة أرشد الحق سبحانه وتعالى عباده اليها في كتابه الكريم ، وبين لهم ما في هذا الكون الفسيح من بديع النظام وما تسير عليه هذه الارض والسماء من انتظام عجيب وترتيب دقيق في الحركة و الدوران ، ومن هذه الايات التي تدل على ذلك :-

قوله تعالى :((ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات الفافا)) (٤)

---

(١) انظر الكشف عن منهج الادلة لابن رشد ص ٦٦ ، وانظر هذا الكلام بالنص في بيان تلبيس الجهمية ١٧٢/١-١٧٣، ولعل ابن تيمية نقل هذا عن ابن رشد لانه يعلق بعده ص ١٧٦ بقوله " قلت "

(٢) الاعراف الاية ١٧٢

(٣) الكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ص ٦٨

(٤) النبأ الايات من ٦-١٢

وقوله تعالى : ((تبارك الذي جعل في السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا)) (١)

وقوله تعالى : ((فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم)) (٢)

وقوله تعالى : ((أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون)) (٣)

وقوله تعالى : ((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لايت لقوم يتفكرون))(٤)

وغير هذا آيات كثيرة تدل على عناية الله عز وجل بهذا العالم وبهذا الانسان ، لأنه من المعلوم أن دليل العناية يقوم على العناية الالهية بالانسان وغيره ، وقد خلق الله جميع الموجودات في الارض والسماء من أجله وكل ما في السموات والارض مسخر لراحته .

من ذلك أن الله عز وجل مهد له الارض ليسلك فيها طريقه بحثا عن طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه وجميع حاجاته ، وجعل له الجبال أوتادا وذلك حتى لا تميد به الارض .

وأنزل له تعالى الماء العذب الفرات ، ينزل على الارض فتهتز وتربو وتخرج له من كل الثمرات ، هذا بالاضافة الى ما أودع الله عز وجل فيها من المعادن والاشياء الضرورية لحياة الانسان .

وسخر له البحار والانهار يستخرج منها لحما طريا وحلية يلبسها .
وسخر الله عز وجل له الشمس والقمر كل منهما يجري في مدار لا يتخطاه وما ينشأ عن هذا الدوران من اختلاف الليل والنهار ، التي يحتاج اليها الانسان

---

(١) الفرقان الايات من ٦١-٦٢

(٢)عبس الايات من ٢٤-٣٢

(٣) يس الايات من ٧١-٧٢

(٤) الروم الاية ٢١

في حياته فيحتاج الليل ليخلد الى الراحة، ويحتاج النهار والضوء ليعمل ويشتغل بما لا غنى له عنه .

وخلق للانسان زوجه ليسكن اليه ، يقول ابن القيم - رحمه الله - (وجعل خلق الازواج التى تسكن اليها الرجال والقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون ، فان سكون الرجل الى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهور بعين الفكرة والبصيرة ، فمتى نظر بهذه العين الى الحكمة والرحمة والقدرة التى صدر عنها ذلك ، دله فكره على أنه الاله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته ، والهيته وحكمته ورحمته) (١)

فيعرف الانسان بادراك العناية الالهية في الكون أن له خالقا ومدبرا حكيما دبر وجوده وحياته وهو الله سبحانه وتعالى .

ثالثا :- <u>آيات تجمع بين الدلالتين</u> :-

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تجمع بين دليلي الخلق والعناية ، وسأذكر بعض هذه الآيات كمثال على الموضوع ، فمن هذه الآيات :-

١- قوله تعالى : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا ، والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون)) (٢)

فان قوله ((الذي خلقكم والذين من قبلكم)) تنبيه على دلالة الاختراع ، وقوله ((الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء)) تنبيه على دلالة العناية . (٣)

٢- وكذلك قوله تعالى : ((ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار ، يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١٨٦/١

(٢) البقرة الايتان ٢١-٢٢

(٣) انظر الكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ص ٦٨

العالمين)) (١)

ففي قوله ((خلق السموات والارض)) اشارة الى دليل الخلق وفي قوله ((يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا)) الى قوله ((مسخرات بأمره)) اشارة الى دلالة العناية (٢)

٣ـ وقوله تعالى : ((وآية لهم الارض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)) (٣)

ففي احيائه عز وجل للارض الميتة بالنبات تنبيه على دليل الخلق وفي اخراجه منها ما يأكله الانسان وينتفع به تنبيه على دليل العناية وهناك آيات كثيرة غير هذه ، كلها أدلة عقلية واضحة في غاية اليسر يفهمها كل من كان له أدنى عقل ، لأنها أدلة بينة واضحة خالية من التعقيد والتعجيز وتناسب جميع مستويات الناس من العلماء والعامة ، وهي الادلة التي تصلح أن يستدل بها على وجوده سبحانه وتعالى ، لأن فيها الدلالة الواضحة على ذلك ، وهذا المنهج هو الذي ارتضاه علماء السلف من هذه الامة .

وبعد أن انتهينا من الحديث عن وجود الله عند الباقلاني وعرضنا أدلته على ذلك ، وبعد مناقشتها وبيان الراجح منها ، انتقل الى المبحث الآخر الخاص باثبات الوحدانية عند الامام الباقلاني ـ رحمه الله تعالى ـ .

---

(١) الاعراف الاية ٥٤

(٢) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢١٢/١

(٣) يس الايات من ٣٣ـ٤٠

المبحث الثاني

اثبات الوحدانية عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف :-

تمهيـــــد :-

مما لا شك فيه أن التوحيد هو الاساس الذي يقوم عليه الدين وهـو وهو كما يقول شارح الطحاوية أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ،وأول مقام يقوم فيه السالك الى الله عز وجل .

قال تعالى : ((لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره)) (١)

وقال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا اللـــه واجتنبوا الطاغوت)) (٢)

وقال تعالى : ((وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليـــه أنه لا اله الا أنا فاعبدون)) (٣)

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ((اعبدوا الله مـــا لكم من اله غيره)) (٤)

وهكذا فان جميع الانبياء جاؤا بهذه الدعوة ، كل رسول يبيـــن لقومه توحيد الله ويحذرهم من الشرك ، وقال صلى الله عليه وسلم ((أمـرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله))(٥)

فالتوحيد أول ما يدخل به في الاسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا وهو أول واجب وآخر واجب . (٦)

فالتوحيد مصدر وحد يوحد توحيدا، وتوحيد الله معناه اعتقاد أنه اله واحد لا شريك له ، ونفي المثل والنظير عنه والتوجه اليه وحده بالعبادة..

فاذا قيل الله واحد أو أحد كان معنى ذلك انفراده بما له مـــن ذات وصفات ، وعدم مشاركة غيـره له فيها ، فهو واحد في الهيته فلا الـــه

---

(١) الاعراف الاية ٥٩

(٢) النحل الاية ٣٦

(٣) الانبياء الاية ٢٥

(٤) الاعراف الاية ٨٥

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة ١٠٢/١، وأبـــو داود في كتاب الجهاد باب على ما يقاتل المشركون ١٠١/٣ ، والنسائي فـــي كتاب تحريم الدم ٧٥/٧ ، من رواية أنس بن مالك .

(٦) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ١٥ ،١٦ ، ١٧

غيره ، وواحد في ربوبيته فلا رب سواه ، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي الا له . (١)

كل الفرق مجمعة على أن الله واحد ، الا أن الخلاف قائم بينهم في كيفية توحيده تعالى ، كما أنهم مختلفون في المراد بالوحدانية ،وبناء على هذا اختلفت مناهج العلماء في الوحدانية ، وسأقدم بمقدمة يسيرة عن المذاهب التي سلكتها الفرق الاسلامية في التوحيد قبل عرض أدلة الباقلاني - رحمه الله تعالى -

١- الفلاسفة :لقد سلك فلاسفة المسلمين منهجا خاصا في بيان معنى الوحدانية ، وفي طريقة اثباتها لله سبحانه وتعالى .

وقد تأثر هؤلاء الفلاسفة المسلمون بالفلسفة اليونانية ،فأرسطو(٢) قد أثبت للعالم محركا أول ، تتحرك الافلاك حوله ، بالحركة الدائرية تعشقا له ، دون أن يحركها هو أو يعلم عنها شيئا .

وقد وضع أرسطو مجموعة من الخصائص والصفات التي رآها ضرورية للاله أو المحرك الاول منها : ما أشار اليه عن وحدة هذا المحرك الاول من ناحيتين :-

الاولى : أنه واحد في ذاته بمعنى أنه غير مركب من أجزاء

الثانية : أنه واحد في فعله ، فلا ضد له وفعله هنا ليس الخلق والابداع ، وقد انتقل هذا التصور العقلي المجرد من أرسطو الى الفكر الاسلامي ، وتأثر به بعض الفلاسفة المسلميين ابتداء من الكندي (٣)

---

(١) دعوة التوحيد د/ محمد خليل هراس ص ٦

(٢) أرسطو طاليس المجذوني " المقدونني " من بلد مجذونية ويكتب أيضا اسمه أرسطا طاليس (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد) فيلسوف الروم ،تكلم في الطب وغلب عليه علم الفلسفة ،وله فيها أشعار وكتب،ولد في استافير في مقدونيا وهو مؤسس المدرسة المشائية ،من مصنفاته العالم الكبير،وله كتاب في الوصايا ،وغير ذلك انظر طبقات الاطباء والحكماء لابن جلجل ص ٢٥،وعيون الانباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ص ٨٦،وتاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم ص ١١٢

(٣) هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي،فيلسوف العرب في عصره وهو أحد أبناء الملوك من كندا ،نشأ في البصرة وانتقل الى بغداد فتعلم واشتهر بالطب و الفلسفة والهندسة والفلك،ألف وترجم وشرح كتبا كثيرة ،من مصنفاته رسالة في التنجيم ،وآلهيات أرسطو،ورسائل الكندي،توفي سنة ٢٥٥هـ على الراجح انظر طبقات الاطباء والحكماء لابن جلجل ص ٧٣،وعيون الانباء لابن أبي أصيبعة ص ٢٨٥

وابن سينا (١)والفارابي (٢)، وابن رشد (٣) ، وبنوا قولهم في توحيد الله على نظرة أرسطو العقلية للمحرك الاول ، فيرون جميعا أن الواجب لذاته لا يمكن أن يكون اثنين ، اذ لو كان كذلك لكانا مشتركين في الوجوب ومتباينين في التعيين .

فانهم قد نقلوا الصفات والخصائص التي ارتضاها أرسطو لمحرك العالم ، وحاولوا أن يصفوا بها ذات الله تعالى مع شيء من التوفيق بين هذه الخصائص وبين ما ورد في القرآن الكريم عن ذات الله تعالى وعلاقته بالعالم (٤)

فجاء مذهبهم في التوحيد عقليا محضا لا يفهمه غيرهم لأنه يقوم على الخيال والعقل ، ولا يفهم منه عامة الناس شيئا

---

(١) الحسين بن عبد الله ابن سينا أبو علي شرف الملك ، الفيلسوف الملقب بالشيخ الرئيس ،اشهر أطباء العرب ومن أعظم فلاسفتهم ،أصله من بلخ في بلاد فارس،نشأ وتعلم في بخارى ومولده فيها سنة ٣٧٠هـ،رحل كثيرا وناظر العلماء له التصانيف الكثيرة في الطب والمنطق والطبيعيات والالهيات،منها كتاب القانون في الطب ،وكتاب الشفاء ،والاشارات في الفلسفة وغير ذلك
انظر عيون الانباء لابن أصيبعة ص ٤٣٧،والعبر للذهبي ٢٥٨/٢،والاعلام للزركلي٢٤١/٢
(٢) هو محمد بن محمد بن طرخان بن أزلغ،أبو نصر الفارابي،أكبر فلاسفة المسلمين تركي الاصل،مستعرب ولد في فاراب ورحل كثيرا ،كان يحسن كثير من اللغات الشرقية واليونانية ،ويعرف بالمعلم الثاني لشرحه لمؤلفات أرسطو "المعلم الاول"،من مصنفاته آراء أهل المدينة الفاضلة ،والفصوص،وجوامع السياسة وغير ذلك،توفي في دمشق سنة ٣٣٩هـ
انظر عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ص ٦٠٣،والاعلام للزركلي ٢٠/٧،وتاريخ فلاسفة الاسلام محمد لطفي ص ١٣ .
(٣) انظر مقدمة كتاب التوحيد لابن تيمية تقديم د/ محمد السيد الجليند ص ٢٨ـ٣٤
(٤) انظر نفس المرجع ص ٣٧ـ٣٨

٢- المتكلمون :- من الملاحظ على جمهور المتكلمين أنهم لم يتفقوا على مفهوم ومعنى للوحدانية ، فمنهم من أخذ في ايراد أدلته قبل بيان معنى الوحدانية ، وكأنه وجد أن معنى الوحدانية من البداهة والوضوح بحيث لا تحتاج الى بيان ، ومن هؤلاء صاحب العقائد النسفية (١)، وصاحب المواقف (٢)، وصاحب المقاصد (٣)، ومنهم من ذكرها مثل الغزالي في الاقتصاد (٤) وامام الحرمين في الشامل (٥)، والشهرستاني في نهاية الاقدام حيث يقول : (قال أصحابنا الواحد هو الشيء الذي لا يصح انقسامه اذ لاتقبل ذاته القسمة بوجه ، ولا تقبل الشركة بوجه ، فالباري تعالى واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في افعاله لا شريك له)(٦)

أما عن أنواع التوحيد عند المتكلمين فانه ينقسم عندهم الى ثلاثة أقسام :-

- النوع الاول :- وحدة الذات : فقالوا هو واحد في ذاته لا قسيم له ، وفسروا ذلك بأنه لا يجوز وصفه بصفة ثبوتية لأنّ ذلك يقتضي الكثرة في القدماء ، وليس هناك الا قديم واحد ، ومن هنا فانهم ارجعوا جميع الصفات الى صفة العلم والحياة أو العلم والقدرة ، ثم قالوا :ان صفاته عين ذاته أو هي أحوال له كما ذهب بعض رجالات المعتزلة (٧)

- النوع الثاني :- توحيد الصفات : وهو قولهم لا شبيه له في صفة من صفاته .

---

(١) انظر المتن في كتاب شرح العقائد النسفية ص ٢٨-٣٠

(٢) انظر المواقف للايجي ص ٢٧٨

(٣) انظر شرح المقاصد ٢٧/٢

(٤) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ٤٩

(٥) انظر الشامل في أصول الدين للجويني ص ٣٤٧

(٦) نهاية الاقدام في علم الكلام للشهرستاني ص ٩٠

(٧) انظر ابن تيمية وقضية التأويل د/ محمد السيد الجليند ص ١٩٩-٢٠٠ ومقدمة كتاب التوحيد لابن تيمية ص ٥٥

النوع الثالث :- توحيد الافعال: والذي قالوا عنه أنه واحد في أفعاله لا شريك له ، وهو أشهر الانواع عند المتكلمين ، وقد انصب استدلالهم على هذا النوع من التوحيد ، وأقاموا على ذلك البراهين والحجج المختلفة حتى لا نجد استدلالا لهم على النوعين السابقين في عامة كتبهم .

واشهر الادلة التي استعملوها في الاستدلال على توحيد الافعال هو دليل التمانع الذي استدل به جمهور المتكلمين وهو قولهم :

لو افترضنا وجود الهين ، وأراد أحدهما تحريك جسم في وقت معين وأراد الآخر سكونه في نفس الوقت ، وقصد كل منهما الى تنفيذ مراده فلا يخلوا الامر من وقوع التمانع والمحال وهو أحد الاحتمالات الاتية :-

= الاحتمال الاول : أن ينفذ مراد كل منهما ، فيكون العالم متحركا وساكنا في وقت واحد ، وهذا باطل لاجتماع النقيضين على محل واحد .

= الاحتمال الثاني : أن يمتنع مراد كل منهما وهذا أيضا محال لامتناع خلو الجسم عن الحركة والسكون معا .

= الاحتمال الثالث : أن يقدر أحدهما على تنفيذ مراده ويعجز الاخر وحينئذ فالذي ينفذ مراده هو الاله دون غيره ، وهذا الدليل استدل به جمهور المتكلمين (١)

وذهبوا الى أن دليلهم هذا على اثبات الوحدانية هو ما ورد في القرآن الكريم في قول الله تعالى : ((لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا))(٢)

وقالوا :ان الآية تشتمل على دليل التمانع المذكور

٣- السلف :- ان السلف من هذه الامة ومن سار على نهجهم من العلماء والمفكرين ، يرفضون ما جاء به الفلاسفة والمتكلمون حول قضية التوحيد ، لان طريقتهم مخالفة لطريقة الانبياء ع من الاعتراف بالتوحيد الكامل لذا فان السلف يستدلون بما جاء في كتاب الله العزيز من آيات قرآنية عظيمة تدل على المطلوب ، وقسموا التوحيد الى أنواع ثلاثة ، توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية ، وتوحيد الاسماء والصفات .

وسنعرض مذهب السلف في الوحدانية تفصيلا بعد عرض آراء الباقلاني في التوحيد .

---

(١) انظر الشامل في أصول الدين للجويني ص ٣٥٢،ولمع الادلة له ص ٩٨-٩٩ واللمع للاشعري ص ٢٠-٢١،وشرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٢٩، ونهاية الاقدام للشهرستاني ص ٩١-٩٢، والتوحيد للماتريدي ص ٢٠-٢١، وأصول الدين للبغدادي ص ٨٥-٨٦، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠

(٢) الانبياء الاية ٢٢

أدلة الامام الباقلاني على الوحدانية :ـ

لقد سار الامام الباقلاني في اثباته لوحدانية الله تعالى على منهج المتكلمين ، وقال في بيان مفهوم الوحدانية : (ويجب أن يعلم أن صانع العالم جلت قدرته واحد أحد) (١)

وقد وضح معني الوحدانية بقوله : (ومعنى ذلك : أنه ليس معه اله سواه ، ولا من يستحق العبادة الا اياه ، ولا نريد بذلك أنه واحد من جهة العدد ، وكذلك قولنا أحد ، وفرد ، وجود ذلك انما نريد به أنه لا شبيه له ولا نظير ، ونريد بذلك أن ليس معه من يستحق الالهية سواه ، وقد قال تعالى : ((انما الله اله واحد)) (٢) ومعناه لا اله الا الله) (٣)

وينقل شيخ الاسلام ابن تيمية عن القاضي أبي يعلى في المعتمد قول القاضي أبي بكر الباقلاني في معنى الوحدانية وتقسيم التوحيد عنده الى أنواع ثلاثة انه قال : وأما الواحد ، والفرد ، والوتر فمعناه استحالة التجزئة والانقسام والتبعيض عليه ، ثم قال : ونفي الشريك عنه ، ونفي الثاني عنه فيما لم يزل ونفي المثل عنه تعالى وعن صفاته الازلية ، فجعل في هذا الموضع أسم الواحد يعم هذه المعاني الثلاثة .

وينقل عنه انه في موضع آخر فسر الواحد بما لا شريك له ، وجعل هذه المعاني الثلاثة أقوال فقال : وأما وصفه بأنه واحد فمعناه الذي لا شريك له ، القهار ويقهر كل جبار ، والاحد والواحد بمعنى واحد وقيل معناه شيء وكل شيء واحد ، وكل واحد شيء (٤)

ثم أخذ الباقلاني بعد ذلك يستدل بالادلة السمعية والعقلية على اثبات وحدانيته سبحانه وتعالى .

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٣٣

(٢) النساء الاية ١٧١

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٣٣ـ٣٤

(٤) انظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/٤٧٠ـ٤٧١

١ـ <u>الدليل السمعي</u> :ـ

قال الباقلاني بعد بيان معنى الوحدانية عنده والدليل على أن صانع العالم على ما قررناه : قوله تعالى : ((لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا)) (١) ثم قال: (والدليل المعقول : مستنبط من هذا النص المنقول فانا نرى الامور تجري على نمط واحد ، في السموات والارض وما فيهما من شمس وقمر وغير ذلك ، ولو كانا اثنين أو أكثر فلا بد أن يجري خلاف أو تغير من احدهما على الآخر ، وقد بينه سبحانه وتعالى فقال : ((قل لو كان معه الهة كما يقولون اذا لا بتغوا الى ذي العرش سبيلا)) (٢))(٣)

٢ـ <u>أما دليله العقلي</u> :ـ

على اثبات وحدانية الله فهو نفس دليل جمهور المتكلمين وهو دليل التمانع (٤)الذي استنبطه كما يقول من قوله تعالى : ((لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا)) (٥)

وقرره على النحو التالي : (لو جاز أن يكون صانع العالم اثنين أو أكثر فيريد أحدهما شيئا ويريد الاخر ضده ، فلا يخلو أن يتم مرادهما ، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر ، ولا يجوز أن يتم مرادهما ،لأن في اتمام مراد أحدهما عجز الآخر ، لأنه تم ما لا يريد ، وفي ذلك تعجيز لكل واحد منهما ، لأنه تم ما لا يتم مراد واحد منهما ، فقد ثبت عجزهما أيضا

---

(١) الانبياء ، الاية ٢٢
(٢) الاسراء ، الاية ٤٢
(٣) الانصاف للباقلاني ص ٣٤
(٤) انظر اللمع للاشعري ص ٢٠ـ٢١،والتوحيد للماتريدي ص ٢٠ـ٢١، وشرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٢٧٧ـ٢٧٨ ،وأصول الدين للبغدادي ص ٨٥ـ٨٦ والشامل للجويني ص ٣٥٢، ونهاية الاقدام للشهرستاني ص ٩١ـ٩٣،وغاية المرام للاصدي ص ١٥١ـ١٥٢، وشرح العقائد النسفية ص ٢٩ـ٣٠ ، ولمع الادلة للجويني ص ٩٨ـ٩٩
(٥) الانبياء ، الاية ٢٢

ومن يكون عاجزا فليس بالاله ، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر ، فالذي تم مراده هو الاله ، والذي لم يتم ليس بالاله ، فلم يكن الا اله واحد كما ذكرنا) (١)

وقد صاغ الامام الباقلاني هذا الدليل بأسلوب آخر حيث قال: (وليس يجوز أن يكون صانع العالم اثنين ولا أكثر من ذلك ، لأن الاثنين يصح أن يختلفا ويريد أحدهما ضد مراد الآخر ، فلو اختلفا ، وأراد أحدهما احياء جسم وأراد الآخر اماتته ، لوجب أن يلحقهما العجز أو واحد منهما .

- لانه محال أن يتم ما يريدان جميعا لتضاد مراديهما فوجب أن لا يتم .

- أو يتم مراد أحدهما دون الآخر فيلحق من لم يتم مراده العجز

- أو لا يتم مرادهما فيلحقهما العجز ، والعجز من سمات الحدث والقديم لا يجوز أن يكون عاجزا) (٢)

وهذا هو دليل التمانع بعينه وان اختلفت صياغة الدليل في الموضعين .

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٣٤

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٥

أما النقد الموجه لأدلة الامام الباقلاني والمتكلمين عموما في اثباتهم لوحدانية الله فهو ينصب على ثلاث نقاط :-

أولا : نقد السلف لمفهوم الوحدانية عند الباقلاني وجمهور المتكلمين .

ثانيا : نقد السلف للادلة التي استدل بها الامام الباقلاني وغيره من المتكلمين على اثبات وحدانية الله تعالى .

ثالثا : نقد السلف لتقسيم الامام الباقلاني وغيره من المتكلمين للوحدانية الى ثلاثة أقسام لا غير .

وسنتحدث عن هذه النقاط بشيء من التفصيل .

أولا : نقد السلف لمفهوم الوحدانية عند الباقلاني والمتكلمين عموما :-

يتوجه النقد الى الباقلاني والمتكلمين فيما قرروه من مفهوم للوحدانية ، كما قرروا أن هذا هو التوحيد المطلوب ، وأن هذا هو معنى قولنا لا اله الا الله ، حتى انهم جعلوا معنى الالهية القدرة على الاختراع(١) دون أن يتعرضوا لاثبات توحيد الالهية وهو افراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة لأن معنى لا اله الا الله لا معبود بحق الا الله سبحانه ، قال تعالى ((والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم)) (٢)

فالاله هو المألوه أي المعبود الذي يستحق العبادة ، ليس الاله بمعنى القادر على الخلق ، فلو أقر الانسان بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحدا ، حتى يشهد أن لا اله الا الله فيقر بأن الله وحده هو الاله المستحق للعبادة ، دون غيره .

أما ما ذهبوا اليه فهو اثبات لنوع واحد من أنواع التوحيد وهو توحيد الربوبية بمعنى أنه لا خالق الا الله ، فالمشركون من العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ومع ذلك كانوا مشركين ، نظرا لما كانوا يعبدونه من دون الله سبحانه وتعالى . (٣)

---

(١) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ١١٧

(٢) البقرة الاية ١٦٣

(٣) انظر التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية الشيخ فالح ال مهدي ص ٣٤٢

كما في قوله : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله)) (١)

وفي قوله : ((قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ،سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون)) (٢)

ويقرر ابن تيمية أن هذه الامور الثلاثة التي عرفوها من التوحيد هي بعض ما جاء به الرسل حيث يقول : (ان التوحيد الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله وهو المذكور في الكتاب والسنة ، وهو المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام ليس هو هذه الامور الثلاثة التي ذكرها هؤلاء المتكلمون ،وان كان فيها ما هو داخل في التوحيد الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهم مع زعمهم أنهم الموحدون ليس توحيدهم التوحيد الذي ذكره الله ورسوله ، بل التوحيد الذي يدعون الاختصاص به باطل في الشرع والعقل واللغة ، وذلك أن توحيد الرسل والمؤمنين هو عبادة الله وحده ، فمن عبد الله وحده لم يشرك به شيئا فقد وحده ، ومن عبد من دونه شيئا من الاشياء فهو مشرك به ليس بموحد مخلص له الدين ، وان كان مع ذلك قائلا بهذه المقالات التي زعموا أنها التوحيد) (٣)

لأنهم لو أقروا بأن الله وحده هو خالق كل شيء ، وهو توحيد الافعال الذي يزعم هؤلاء المتكلمون أنه هو معنى الاقرار بلا اله الا الله

ويستدلون عليه بدليل التمانع دون الاقرار بتوحيد الالوهية وهوافراد الله عز وجل بالعبادة واخلاص الدين له ، فان حالهم يكون كحال مشركي العرب الذين بعث الرسول اليهم ابتداءً ، وانزل القرآن ببيان شركهم ، ودعاهم الى توحيد الله واخلاص الدين له .

---

(١) لقمان الاية ٢٥

(٢) المؤمنون الايات ٨٣ ـ ٨٩

(٣) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ٤٧٨/١

ثم بين ابن تيمية التوحيد المطلوب والذي جاء به الانبياء والمرسلون وهو (يتناول التوحيد في العلم والقول وهو وصفه بما يوجب أنه في نفسه أحد صمد لا يتبعض ولا يتفرق فيكون شيئين ، وهو واحد متصف بصفات تختص به ليس له فيها شبيه ولا كفؤ) (١)

ثم بين النوع الثاني وهو توحيد العبد لله عز وجل في الارادة و العمل ، وهو عبادته تعالى وحده لا شريك له ، وأنزل في ذلك ((قل يا أيها الكافرون)) و((قل هو الله أحد)) (٢)

<u>ثانيا</u> : نقد السلف للادلة التي استدل بها الامام الباقلاني وغيره من المتكلمين على اثبات وحدانية الله تعالى :-

قلنا أن الامام الباقلاني سلك مسلك المتكلمين في الاستدلال على وحدانية الله بدليل التمانع ، والامام ابن تيمية يوافق المتكلمين على أن هذا الدليل دليل عقلي ، وبرهان على امتناع صدور العالم عن فاعلين مانعين له ، واعترض عليهم بتوسعهم هذا في الاستدلال على توحيد الربوبية - وهو استحالة صدور العالم عن صانعين - وتوسعهم في الاستدلال عليه بدليل التمانع وكأنه هو النوع الوحيد من أنواع التوحيد مع اغفالهم الاستدلال على توحيد الالوهية الذي جاء به القرآن الكريم ليحمل الناس عليه ، لأنهم كانوا مقرين بأن الله وحده خالق السموات والارض بنص التنزيل .

وقد وجه لدليل التمانع أكثر من اعتراض ، وقد تفطن الامام الباقلاني لبعض هذه الاعتراضات على هذا الدليل فقال : فان قيل فيجوز أن لا يختلفا في الارادة ، أي يجوز أن يتفقا ولا يختلفا في أرادة تحريك الشيء أو تسكينه .

وقد ذكر ابن رشد أن (وجه الضعف في هذا الدليل أنه كما يجوز في العقل أن يختلفا ، قياسا على المريدين في الشاهد ، يجوز أن يتفقا وهو أليق بالآلهة من الخلاف) (٣)

ويجيب الامام الباقلاني على هذا الاعتراض بقوله :(وهذا القول يؤدي الى أحد امرين :-

- اما أن يكون ذلك لقول احدهما للآخر لا ترد الا ما أريد ،فيصير

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٤٧٩/١

(٢) انظر المرجع السابق ٤٧٩/١

(٣) الكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ص ٧٤

أحدهما آمرا والآخر مأمورا ، والمأمور لا يكون الها ، والآمر على الحقيقة هو الاله

- أو يكون كل واحد منهما لا يقدر أن يريد الا ما أراده الآخر ولو كان كذلك دل على عجزهما ، اذ لم يتم مراد واحد منهما الا بارادة الاخر معه ، واذا ثبت هذا بطل أن يكون الاله الا واحدا على ما قررناه) (١)

وأرى أنه لو أمكن وجود الهين فلا يمكن أن يتفقا لأن ذات الاله تقتضي التفرد بالغلبة والسلطة ، لأن الاله يجب أن يتصف بالكمال التام الذي لا نقص معه ووجود اله آخر يشاركه في ملكه ينافي الكمال المفروض للاله .

قال شارح الطحاوية : (وانتظام أمر العالم كله ، واحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره اله واحد .... ورب واحد لا اله غيره ولا رب لهم سواه) (٢)

وأما استدلال الامام الباقلاني والمتكلمين بقول الله تعالى: ((لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا)) (٣) وأن دليل التمانع الذي استدلوا به على وحدانية الله مأخوذ من هذه الاية ظنا منهم أن هذه الاية دالة على توحيد الربوبية ، وأنه لو كان هناك الهة خالقون لأدى ذلك الى فساد السموات والارض ، لما يقع بينهما من التنازع والاختلاف . (٤)

ويذكر شيخ الاسلام وابن القيم -رحمهما الله تعالى- الى أن في قوله تعالى : ((لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا)) (٥) اثبات لوحدانية الله عز وجل بمعنى أنه لو كان فيهما غير الله تعالى لفسد أمرهما ، واختل نظامهما ، وتعطلت مصالحهما ، لأنها سيقت للدلالة على

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٣٤

(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٩

(٣) الانبياء الاية ٢٢

(٤) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٠

(٥) الانبياء الاية ٢٢

توحيد الالوهية بأن الله سبحانه هو الاله المعبود بحق كما أنه هو الرب الخالق ، فالاية فيها بيان لتوحيد الالوهية ، وليس المقصود منها توحيد الربوبية وان كانت الاية متضمنة له ، والمعنى أن العبادة لا ينبغي أن تكون الا للاله الحق الواحد ، لما يترتب من الفساد على تعدد الالهة المعبودة بغير حق ، فالفساد الناشئ عن عبادة هذه الالهة دليل على بطلان القول بتعددهم وعبادتهم ، وأنه ليس هناك اله يستحق العبادة الا الله الواحد الاحد الفرد الصمد ، فالتوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الالوهية المتضمن توحيد الربوبية ، بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا (١)

فكما أن دليل التمانع دل على أن خالق العالم واحد ، لا رب غيره ولا اله سواه ، فذلك تمانع في الفعل والايجاد ، وهناك تمانع في العبادة والالهية ، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان ، كذلك يستحيل أن يكون لهم الهان معبودان (٢)

وخلاصة القول ان دليل التمانع يكفي في اثبات امتناع صدور العالم عن اثنين الذي هو توحيد الربوبية ولكنه قاصر عن اثبات توحيد الالوهية .

ومما أخذ على استنباطهم دليل التمانع من الاية ما ذكره ابن رشد من أن المحال الذي أفضى اليه دليل التمانع غير المحال الذي أفضت اليه الاية المذكورة ، اذ قسموا التوحيد ثلاثة أقسام وليس في الاية تقسيم فان المحال الذي أفضى اليه دليلهم هو أن يكون العالم اما لا موجودا ولا معدوما ، وأما أن يكون موجودا معدوما ، واما أن يكون الاله عاجزا مغلوبا وهذه مستحيلات دائمة لاستحالة أكثر من واحد ، والمحال الذي أفضى اليه دليل الكتاب ليس مستحيلا على الدوام ، وانما علقت الاستحالة فيه في وقت مخصوص ، وهو أن يوجد العالم فاسدا في وقت الوجود ، ثم استثنى أنه غير فاسد فواجب أن لايكون هنالك الا اله واحد . (٣)

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٠٦/١، ومنهاج السنة لابن تيمية ٦٢/٢

(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٩

(٣) انظر الكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ص ٧٦

وبهذا يظهر لنا أن استدلال الامام الباقلاني وغيره من المتكلمين على الوحدانية بدليل التمانع وقولهم ان هذا مأخوذ من قول الله تعالى ((لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا))(١) لا يصح الاستدلال به حسب نقد ابن رشد .

ثالثا : نقد الطف لتقسيم الامام الباقلاني وغيره من المتكلمين للوحدانية الى ثلاثة أقسام لا غير :ـ

ان الامام الباقلاني وجمهور المتكلمين ذهبوا الى تقسيم التوحيد الى ثلاثة أنواع :

الاول : وحدة الذات فقالوا : انه واحد في ذاته لا قسيم له .

الثاني : وحدة الصفات فقالوا : انه واحد في صفاته لا شبيه له .

الثالث :وحدة الافعال فقالوا : انه واحد في أفعاله لا شريك له .

ولم يتعرض المتكلمون لتوحيد الالوهية وهو الا يعبد مع الله غيره وهذا النوع من التوحيد متضمن لتوحيد الربوبية والذي ركز عليه الباقلاني و جمهور المتكلمين ، ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين هذين النوعين من التوحيد وخلطوا في دليلهم بين معنى الالوهية ومعنى الربوبية ، وظنوا أن الالوهية هي القدرة على الاختراع دون غيره ، فمن أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره ، فقد أخلص الدين كله لله (٢) وجاءت أقسام وأنواع التوحيد عندهم قاصرة عن اثبات المطلوب الاهم وهو بيان توحيد الالوهية ،وهو افراد الله عز وجل بالعبادة دون غيره .

وقد انتقدهم ابن تيمية في تقسيمهم هذا لانواع التوحيد ان غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع ، أي أن هؤلاء المتكلمين يقسمون التوحيد في عرفهم الى ثلاثة أقسام ، أشهرها عندهم توحيد الافعال ويعبرون عنها

---

(١) الانبياء الاية ٢٢

(٢) انظر ابن تيمية وقضية التأويل د/ محمد السيد الجلينـد ص ٢٠٤ـ٢٠٥ ومقدمة كتاب التوحيد لابن تيمية د/ محمد السيد الجلينـد ص ٦١

بهذه العبارات المجملة ثم قال ابن تيمية انهم يحتجون على هذا بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب وأن هذا هو معنى قولنا لا اله الا الله حتى قد يجعلوا معنى الالهية القدرة على الاختراع (١)

من هنا يتبين لنا أن تقسيم الباقلاني والمتكلمين للوحدانية الى هذه الاقسام الثلاثة دون التعرض لتوحيد الالوهية قاصر عن بيان أنواع التوحيد المطلوب .

---

(١) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ١١٧، وانظر شرحها التحفة المهدية للشيخ فالح ص ٣٤٣ ، وانظر مجموعة الفتاوى لابن تيمية ٩٨/٣

* أنواع التوحيد عند السلف وأدلتهم على ذلك :-

واذا كانت أدلة الباقلاني والمتكلمين في الوحدانية و أنواعها قاصرة ، فما هي الادلة المناسبة لاثبات وحدانية الله عز وجل وما هي أقسام التوحيد عند علماء السلف ؟

لقد ذهب السلف الى أن التوحيد نوعان :-

١- توحيد في المعرفة والاثبات وكذلك النفي : ومعناه اثبات صفات الله عز وجل وأسمائه وأفعاله وعلوه على عرشه ، واثبات عموم قضائه وقدره وأمره وحكمه ، ويعنون بهذا القسم توحيد الاسماء والصفات .

٢- والثاني توحيد في الطلب والقصد : وهو افراد الله عز وجل بالعبادة دون سواه وهذا يقتضي اخلاص الدين كله لله ، من محبته ، ورضاه ، وخوفه ، ورجائه والانابة اليه ، والتوكل عليه ، والرضى به الها واحدا لا اله الا هو رب العالمين وهذا الثاني ينقسم الى نوعين ، توحيد في الربوبية وتوحيد في الالوهية .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : (التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد ونوع في الارادة والقصد ، ويسمى الاول : التوحيد العلمي والثاني التوحيد القصدي الارادي، وهذا الثاني أيضا نوعان ، توحيد في الربوبية ، وتوحيد في الالوهية ، فهذه ثلاثة أنواع) (١)

وهكذا يتبين أن التوحيد ينقسم الى ثلاثة أقسام :-

أحدهما : توحيد الاسماء والصفات .

والثاني : توحيد الربوبية وبيان أن الرب وحده خالق كل شيء .

والثالث : توحيد الالهية وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لاشريك له (٢) ، وسنتحدث عن معنى هذه الانواع بشيء من التفصيل .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٢٤-٢٥ ، وانظر هذا التقسيم في منهاج السنة لابن تيمية ٦٢/٢ ، وانظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٣١ .

(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١٧ ، ولوامع الانوار البهية للسفاريني ١٢٨/١ .

* النوع الاول : توحيد الاسماء والصفات :-

ومعناه أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم نفيا واثباتا ، فيثبت له ما أثبته لنفسه ،وينفى عنه ما نفاه عن نفسه ، ومجمل القول هو اثبات ما أثبته الله لذاته من الصفات من غير تكييف (١) ولا تمثيل (٢) ومن غير تحريف (٣) ولا تعطيل(٤) (٥) ونفي ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، والايات الدالة على هذا النوع كثيرة جدا وأهمها سورة الاخلاص ((قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)) (٦) (٧)

يقول ابن القيم : (فسورة ((قل هو الله أحد)) متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب اثباته للرب تعالى من الاحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه ، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير)(٨)

---

(١) التكييف : أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا ،أو يسأل عنها بكيف ، انظر شرح العقيدة الواسطية د/ محمد خليل هراس ص ٢٢

(٢) التمثيل : هو اعتقاد أن صفات الله مثل صفات المخلوقين ،انظر المرجع السابق ص ٢٢

(٣) التحريف؟: وهو العدول عن اللفظ الى معنى آخر غير المطلوب الى آخر مرجوح ،وهو أقسام تحريف في اللفظ وتحريف في المعنى ،انظر شرح العقيدة الواسطية ص ٢١، والتعريفات للجرجاني ص ٧٥ ٠

(٤) التعطيل : المراد به نفي الصفات الالهية ،وانكار قيامها بذاته تعالى انظر المرجع السابق ص ٢١

(٥) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٨٦/٢،وانظر لوامع الانوار البهية للسفاريني ١٢٩/١ ،وانظر العقيدة الواسطية مع شرحها ص ٢٠-٢١

(٦) سورة الاخلاص وآياتها أربع٠

(٧) انظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٦٢/٢

(٨) زاد المعاد لابن القيم ٣١٦/١ ٠

وهناك آيات أخرى كثيرة منها :

قوله تعالى : ((الم الله لا أله الا هو الحي القيوم)) (١)

وقوله تعالى : ((فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون)) (٢)

وقوله تعالى : ((الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى)) (٣)

* أما النوع الثاني : وهو توحيد الربوبية :ـ

وهو الاقرار بأن الله عز وجل خالق كل شيء وربه ومالكه ، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والافعال ، أو أكثر من صانعين ، ومعناه اعتقاد أن لا خالق ولا رازق ولا محي ولا مميت ولا نافع ولا ضار ولا موجد ولا معدم الا الله سبحانه وتعالى .

وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، ولكن المتكلمين وغيرهم من الصوفية وأهل النظر جعلوه الغاية القصوى في اثبات التوحيد ، وجعلوا همهم كله في اثبات هذا النوع من التوحيد مع ان كل النفوس البشرية مفطورة ومعترفة بهذا النوع من التوحيد (٤) ، فقد أخبر الله عن الكفار أنهم اذا سألوا من خلقكم ومن خلق السموات والارض فسيقولون الله ، ولكنهم عبدوا معه غيره ولم يفردوه سبحانه بالعبادة ، قال تعالى : ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون)) (٥) ، وقال تعالى : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله)) (٦)

وبما أن هذا النوع من التوحيد حق لا ريب فيه فان هناك من الادلة الكثيرة في القرآن الكريم تبين هذا النوع من التوحيد التي استشهد بها

---

(١) آل عمران الايات ١ـ٢

(٢) البقرة الاية ٢٢

(٣) طه الاية ٨

(٤) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١٨،ولوامع الانوار للسفاريني ١/١٢٨ـ١٢٩

(٥) الزخرف الاية ٨٨

(٦) لقمان الاية ٢٥

علماء السلف ـ رحمهم الله ـ منها ما استدل به شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وهو قوله تعالى : ((ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)) (١)

ويقرر ابن تيمية أن في الاية برهانين يقينين على امتناع أن يكون مع الله اله آخر .

الاول : أنه لو كان مع الله اله آخر لذهب كل اله بما خلق فيتحقق الفرض الاول وهو قوله ((اذا لذهب كل اله بما خلق))

الثاني : أنه لو كان مع الله اله آخر ((لعلا بعضهم على بعض))
وبما أن اللازم منتفي فيهما ـ وهو ذهاب كل اله بما خلق وعلو بعضهم على بعض ـ فقد انتفى الملزوم وهو ثبوت اله مع الله تعالى (٢)

ويوضح هذا الدليل شارح الطحاوية بقوله : (واذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه ، فلا بد من أحد ثلاثة أمور :ـ

ـ اما أن يذهب كل اله بخلقه وسلطانه .

ـ واما أن يعلو بعضهم على بعض .

ـ واما أن يكونوا تحت قهر اله واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ، ولا يتصرفون فيه ، بل يكون وحده هو الاله الحق ، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه) (٣)

وانتظام امر العالم كله ، واحكام أمره دليل على أن خالقه ومصرف أمره واحد لا اله الا هو رب العالمين .

وهناك آيات اخرى كثيرة تدل على توحيد الربوبية ، نذكر منها على سبيل المثال :ـ

قوله تعالى : ((قل لو كان معه الهة كما يقولون اذا لا بتغوا الى ذي العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا)) (٤)

---

(١) المؤمنون الاية ٩١

(٢) انظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٢/٦٨،وابن تيمية السلفي لهراس ص ٨٣ـ٨٤ وانظر العقيدة الاسلامية بين السلفية والمعتزلة د/ محمود خفاجي ص ٢٠٧ـ٢٠٨

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٨ـ٢٩

(٤) الاسراء الايتان ٤٢ـ٤٣

وقوله تعالى : ((والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون والهكم اله واحد))(١) وغير ذلك كثير .

* أما النوع الثالث : وهو توحيد الالهية :-

بمعنى أن يعبد الله وحده ولا يشرك بعبادته أحد من خلقه ، والتأله له سبحانه وتعالى والخضوع والذل والحب والافتقار وكمال التوجه اليه تعالى(٢)

وجميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم الى آخرهم بعثوا لدعوة الناس الى هذا النوع من التوحيد .

قال تعالى : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)) (٣)

وقال تعالى : ((وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اله انه لا اله الا أنا فاعبدون)) (٤)

وكما في سورة ((قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولأنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين)) (٥)

والايات الدالة على توحيد الله وافراده بالعبادة كثيرة جدا في القرآن الكريم ، ونكتفي بذكر أمثلة على ذلك .

وهذا النوع من التوحيد متضمن لتوحيد الربوبية .

---

(١) النحل الآيات ٢٠-٢٢

(٢) انظر لوامع الانوار البهية للسفاريني ١٢٩/١

(٣) البقرة الاية ٢١

(٤) الانبياء الاية ٢٥

(٥) سورة الكافرون وآياتها ست .

المبحث الثالث

تنزيه الله عز وجل عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف

الحقنا هذا المبحث في هذا الفصل لأنّ الكلام على التنزيه فرع من الكلام على الوحدانية .

والكلام في هذا المبحث ينقسم الى قسمين :-

أولا :- تنزيه الله تعالى عن مشابهته للحوادث عند الباقلاني :-

ذهب الامام الباقلاني الى تنزيهه تعالى عن مشابهه للحوادث - أي للاشياء الحادثة المخلوقة - فقال: (ولا يجوز أن يكون صانع المحدثات مشبها لها) (١)

ثم بين الامام الباقلاني عدم جواز مشابهة الله تعالى للحوادث بقوله : (لانّه لو اشبهها لكان لا يخلو أن يشبهها في الجنس أو في الصورة)(٢)

ثم ينفي الباقلاني أن يشبه الله تعالى الحوادث في الجنس أو الصورة ، ويستدل على عدم مشابهته تعالى للحوادث في الجنس ، لانّه لو أشبهها في الجنس لجاز أن يكون محدثا كالعالم المحدث ، أو يكون العالم قديما كهو ، لأنّ حقيقة المشتبهين المتجانسين : ما سد أحدهما مسد الاخر وناب منابه ، وجاز عليه ما يجوز عليه (٣).

واستدل الامام الباقلاني على عدم مشابهته تعالى للحوادث في الصورة بقوله : (ولا يجوز أن يكون يشبه العالم في الصورة ، لأنّ حقيقة الصورة هي الجسم المؤلف ، والتأليف لا يكون الا من شيئين فصاعدا ، ولانّه لو كان صورة ، لاحتاج الى مصور صوره ، لأنّ الصورة لا تكون الا من مصور) (٤)

(ولوجب أن يكون من جنس الجواهر المتماسة ، وأن يكون محدثا كهي وذلك محال) (٥)

ثم استدل على دعواه هذه من القرآن الكريم بقوله تعالى:((أفمن يخلق كمن لا يخلق)) (٦)

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٤،وانظر الانصاف للباقلاني ص ٣٢

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٤،وانظر الانصاف [illegible] ٣٢

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٢، والتمهيد [illegible] ٢٤

(٤) الانصاف للباقلاني ص ٣٢

(٥) التمهيد تحقيق مكارثي ص ٢٥

(٦) النحل الاية ١٧

واستشهد ببعض أقوال الصالحين والمحققين فقال : وقد سأل بعض أهل التحقيق عن التوحيد ما هو؟ فقال : هو أن تعلم أنه باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم ، وقول الجنيد (١) رحمه الله : التوحيد افراد القدم عن الحدوث (٢) ،

هذا ما قدمه الباقلاني من أدلة على تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث .

<u>ثانيا</u> : تنزيه الله تعالى عن الجسمية والعرضية والمكانية والزمانية :-

يرى الامام الباقلاني - رحمه الله تعالى - أن الله عز وجل منزه عن المكانية والزمانية وعن الجسمية والعرضية .

فيقول في تنزيهه تعالى عن المكانية : (فان قال قائل : أين هو ؟ قيل له : الأين سؤال عن المكان، وليس هو ممن يجوز أن يحويه مكان ولا تحيط به أقطار) (٣)

ويقول في تنزيهه تعالى عن الزمانية (فان قال قائل : فمتى كان ؟ قيل له : سؤالك عن هذا يقتضي كونه في زمان لم يكن قبله، لأن " متى" سؤال عن الزمان ، وقد عرفناك أنه قديم كائن قبل الزمان ، وأنه الخالق للمكان والزمان وموجود قبلهما ، وتوقيت وجود الشيء بعام أو مائة عام

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي أبو قاسم القواريري نسبة لعمل القوارير،وعرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز،صوفي من العلماء الزهاد،مولده ومنشأه ووفاته ببغداد ،صحب السري القطي والحارث المحاسبي،من مصنفاته المقامات والكرامات ،ودواء الارواح وغير ذلك،توفي سنة ٢٩٨ هـ

انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٦٤،والعبر للذهبي ٤٣٥/١،والاعلام للزركلي ١٤١/٢

(٢) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٢،وانظر هذا القول في شرح حديث النزول لابن تيمية ص ١٢٣

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٤

يفيد أن الموقت وجوده معدوم قبل الزمان الذي وقت به وذلك مما يستحيل عليه تعالى) (١)

أما ما يتعلق بتنزيهه تعالى عن الجسمية فمن المعلوم أن الكثير من المتكلمين ينفون أن يكون الباري تعالى جسما ومنهم الامام الباقلاني والسبب في ذلك أنه وجد من قال بأن الله جسم ، أمثال هشام بن الحكم (٢) الذي قال : ان الله جسم محدود عريض عميق طويل ، وحكي عنه انه قال : هو جسم لا كالاجسام ومعنى ذلك أنه شيء موجود (٣)

فان الامام الباقلاني ينكر أن يكون الله تعالى جسما وينزهه عن ذلك ، لأن حقيقة الجسم عنده كما يقول : (مؤلف مجتمع بدلالة قولهم : رجل جسيم وزيد أجسم من عمرو، ولا يقصد من هذا المبالغة ....شيء من صفات الجسم سوى التأليف، فلما لم يجز أن يكون القديم تعالى مجتمعا مؤتلفا وكان شيئا واحدا ثبت أنه تعالى ليس بجسم)(٤)

ومعنى هذا أن للجسم معنى عنده وهو المؤلف المجتمع من أجزاء وهذا يستحيل في حق الله تعالى ، فلا يمكن أن يكون مؤلفا مجتمعا ، ويدلل على هذا بأدلة :-

أحدهما :أنه لو جاز أن يكون القديم سبحانه مجتمعا ومؤلفا

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٥

(٢) هو أبو محمد هشام بن الحكم الشيباني بالولاء،الكوفي وانتقل منها الى بغداد ،متكلم مناظر،كان شيخ الامامية في وقته وانقطع في بغداد الى يحيى بن خالد البرمكي،فكان القيم بمجالس كلامه ونظره ،وصنف كتبا منها : الامامة والقدر ،والشيخ والغلام ،والدلالات على حدوث الاشياء وغيرذلك،توفي في الكوفة سنة ١٩٠ هـ،وهو من المجسمة المشبه ومن أقواله المنكرة : انه شبه معبوده بالانسان وأنه جسم ذو حد ونهاية تعالى اللهعن ذلك .

انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٤٩ ، والاعلام للزركلي ٨٥/٨ ،والتبصير في الدين للاسفرايني ص ٣٩-٤٠ ،والفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٧١

(٣) انظر مقالات الاسلاميين للاشعري ٢٨١/١

(٤) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٩١

لوجب أن يكون ذا حيز واشغال في الوجود وأن يستحيل أن يماس كل بعض من ابعاضه وجزء من أجزائه غير ما ماسه من الابعاض، وأجزاء الجواهر أيضا من جهة ما هما متماسان ، لأنّ الشيء المماس لغيره لا يجوز أن يماسه ويماس غيره من جهة واحدة ، وليس يقع هذا التمانع من المماسة الا للتحيز والاشغال فوجب أن تكون سائر الابعاض المجتمعة ذا حيز واشغال ، وما هذه سبيله فلا بد أن يكون حاملا للاعراض ، ومن جنس الجواهر والاجسام ، ولا يجوز أن يكون القديم سبحانه من جنس شيء من المخلوقات ، لانه لو كان كذلك ، لسد مسد المخلوق وناب منابه ، واستحق من الوصف لنفسه ما يستحقه ما هو مثله لنفسه ولما لم يجز أن يكون القديم سبحانه محدثا ، والمحدث قديما ، ثبت أنه لا يجوز أن يكون القديم سبحانه مؤلفا مجتمعا ، ومن ثم بطل أن يكون جسما ٠

الثاني :واستدل الامام الباقلاني على استحالة كون القديم ذا أبعاض مجتمعة بأنه لو كان كذلك ، لوجب أن تكون ابعاضه قائمة بأنفسها ومحتملة للصفات ، ولم يخل كل بعض منها أن يكون حيا عالما قادرا ، أو غير حي و لا عالم ولا قادر ، فان كان واحد منها فقط الحي العالم القادر دون سائرها وجب أن يكون ذلك البعض منه هو الاله المعبود المستوجب للشكر دون غيره وهذا يوجب أن تكون العبادة والشكر واجبين لبعض القديم سبحانه دون جميعه

وان كانت سائر ابعاضه حية عالمة قادرة ، وجب جواز تفرد كل شيء منها بفعل غير فعل صاحبه ، وأن يكون كل واحد منها الها لما فعله دون غيره ، وهذا يوجب أن تكون الالهة أكثر من اثنين وثلاثة على ما تذهب اليه النصارى ، وذلك خروج عن قول الامة ٠

الثالث :أنه لو كان القديم سبحانه ذا أبعاض لجاز أن تتمانع هذه الابعاض ويريد بعضها تحريك الجسم في حال ما يريد الآخر تسكينه ، فلا يخلو الامر من أن يتم مرادها جميعا ، أو لا يتم مراد أي واحد منها أو يتم مراد بعض دون بعض ، وذلك يوجب الحاق العجز بسائر الابعاض ، أو بعضها والحكم لها بسائر الحدث ، ولا يجوز أن يكون صانع العالم محدثا ولا شيء منه ، فوجب استحالة كونه مؤلفا مجتمعا (١)

---

(١) انظر التمهيد تحقيق مكارثي ص ١٩١ـ١٩٣ ٠

ومعنى هذه الادلة أن القول بأن الله جسم يؤدي الى احتمالات كثيرة ، منها أن يكون سبحانه مؤلفا من أجزاء ، لأن هذا هو حقيقة الجسم وأن يكون حاملا للاعراض فيكون من جنس الجواهر والاجسام ، وأن يحصل بين أبعاضه تمانع يؤدي الى الحاق العجز ببعضها دون بعض ، والذي يظهر أن الامام الباقلاني كان يرد فيما تقدم على من قال ان الله جسم بمعنى الجسمية الحقيقية كقول هشام بن الحكم ٠

أما قول من قالوا بأن الباري سبحانه وتعالى جسم لا كالاجسام فقد أنكر الامام الباقلاني عليهم هذا القول ، لأن حقيقة الجسم معروفة وهي المؤلف المجتمع كما بيناه ، ويقدر الامام الباقلاني بأن يعترضوا عليه بقولهم : اذا كان الله عندكم شيء لا كالاشياء ، فلماذا تنكرون أن يكون جسما لا كالاجسام ؟

ويجيب الامام الباقلاني على هذا الاعتراض بأن قولنا شيء لم يبن ولم يميز ولم يوضح لجنس دون جنس ولا لافادة التأليف ، بل هو يطلق على كل موجود بلذلك جاز اطلاق لفظ شيء عليه سبحانه دون لفظ جسم لأنه موضوع في اللغة للمؤلف دون ما ليس بمؤلف، كما أن قولنا انسان أسم لما له هذه الصورة ومحدث اسم لما وجد عن عدم ٠

فكما لم يجز أن نثبت القديم سبحانه محدثا لا كالمحدثات ،وانسانا لا كالناس قياسا على أنه شيء لا كالاشياء ، لم يجز أن نثبته جسما لا كالاجسام لأنه نقض لمعنى الكلام واخراج له عن موضوعه وفائدته ٠ (١)

ومعنى هذا أن لفظ الشيء لم يوضع لحقيقة معينة دون غيرها ، بل هو موضوع وضعا عاما لكل ما هو موجود ، وما دام أن الله عز وجل موجود فلا مانع من القول بأن الله تعالى شيء لا كالاشياء ، أما الالفاظ التي وضعت

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٩٣ـ١٩٤

لمعاني محددة لبعض الحقائق كالانسان والجسم والمحدث ، فلا يجوز اطلاقها على الله تعالى .(١)

ويعقب الباقلاني بأنه لا يجوز أن يطلق على الله تعالى أنه جسم الا بدليل من الشرع لأن أسماءه تعالى توقيفية ،ولا يوجد في شيء من دلائل السمع من الكتاب والسنة واجماع الامة وما يستخرج من ذلك ما يدل على جواز هذه التسمية . (٢)

---

(١) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٥٢١ .
(٢) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ١٩٤ .

فأجابه الامام أحمد بأن هذا اللفظ لا يدرى مقصود المتكلم بـــه وليس له أصل في الكتاب والسنة والاجماع ، فليس لأحد أن يلزم الناس أن ينطقوا به ولا بمدلوله ، وقال له اني أقول : هو أحد ، صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فبين أنه لا يقول : هو جسم ولا ليس بجسم ، لأن كلا الامرين بدعة محدثة في الاسلام . (١)

لذا فان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول في ذلك :(فالواجـب أن ينظر في هذا الباب ، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه ، وما نفاه اللـــه ورسوله نفيناه .... فنثبت ما أثبتته النصوص من الالفاظ والمعاني ، وننفي مـا نفته النصوص من الالفاظ والمعاني ، وبالنسبة للالفاظ التي تنازع فيها مـن ابتدعها من المتأخرين مثل لفظ الجوهر والمتحيز والجهة والجسم ،ونحـــو ذلك فلا تطلق نفيا ولا اثباتا حتي ينظر في مقصود قائلها ـ لأنها ألفــاظ مجملة محتملة ـ فان كان قد أراد بالنفي أو الاثبات معنى صحيحا موافقا لما أخبر به الرسول صلى اللـــه عليه وسلم صوّب) (٢) وقُبل وإلا رد .

وقد بين ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن ما أورده المتكلمون مـــن نفي الجسم باطل شرعا وعقلا ، أما شرعا : فمعلوم أنه لم ينقل عن أحد مـــن الانبياء ولا الصحابة ولا التابعين ولا سلف الامة ، أن الله جسم أو أن اللــه ليس بجسم ، بل النفي والاثبات بدعة في الشرع .

وأما عقلا : فبينهم نزاع فيما اتفقوا على تسميته جسما ،كالسماء والارض والريح والماء ونحو ذلك مما يشار اليه ويختص بجهة وهو متحيز ، فقد تنازعوا هل هو مركب من جواهر لا تقبل القسمة ، أو من مادة وصورة أو لا من هذا ، ولا من هذا ، والرأي الاول هو للمتكلمين ، والرأي الثاني للفلاسفـــة وأكثر العقلاء على القول الثالث وهو أنه ليس مركبا من هذا ولا من هـــــذا

---

(١) انظر درء التعارض لابن تيمية ٢٣٠/١ ،وشرح حديث النزول له ص ٧٦

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٢٤٩/١

وانكار - كون الجسم مركب من جواهر أو من مادة وصورة - معروف عند جمهور العقلاء والعلماء . (١)

لذا فيجب أن يلتزم في ذلك بما يوافق الكتاب والسنة ، ويستفصل في ذلك ، فان كان مرادهم بنفي الجسم معنى حق يدل عليه اللفظ في اللغة فالجسم مثلا في اللغة هو البدن والله منزه عن ذلك ، أو ان أرادوا أنه المركب كما يقول المتكلمون انه المركب من أجزاء منفردة أو من المادة و الصورة ، فمن قصد نفي هذا التركيب عن الله تعالى فقد أصاب في نفيه ، فان الله منزه عن هذه المعاني ، فهو سبحانه وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وان كان مرادهم بالجسم ، ما يشار اليه بأنه هنا أو هناك ، أو ما يرى بالابصار ، أو ما يشار اليه بمعنى أنها ترفع الايدي اليه تعالى أو يراد به القائم بنفسه الموجود ، فلا ريب أن الله موجود قائم بنفسه وهو عند السلف وأهل السنة ترفع الايدي اليه في الدعاء ، وهو فوق العرش فان كان هذا المراد بنفيهم للجسم فلا يقبل نفي الجسمية بهذا المعنى (٢).

وكذلك يقال في المكانية والزمانية ونحو ذلك مما يحتمل أكثر من معنى فيسأل عن المعنى المراد ان كان مما أثبته الله ورسوله قبل وان كان مما نفاه الله ورسوله لم يقبل .

---

(١) انظر شرح حديث النزول لابن تيمية ص ٨٠-٨١، ومجموع الفتاوى له ٥/٤٣٤-٤٣٥

(٢) انظر شرح حديث النزول ص ٦٩-٧٥ .

الـفـصـل الـخـامـس

××× رأي الامام الباقلاني في :ـ

الايمان والاسلام ـ وأسماء الله عز وجل في ضوء عقيدة السلف .

وفيـه مباحـث :ـ

المبحث الاول :ـ

في حقيقة الايمان .

المبحث الثاني :ـ

العلاقة بين الاسلام والايمان .

المبحث الثالث :ـ

زيادة الايمان ونقصانه .

المبحث الرابع :ـ

الاستثناء في الايمان .

المبحث الخامس :ـ

طريق ثبوت أسماء الله تعالى .

المبحث السادس :ـ

حقيقة الاسم والمسمى .

المبحث الاول :-

رأي الامام الباقلاني في حقيقة الايمان .

تمهيــــد :-

وقع خلاف بين الفرق الاسلامية في حقيقة الايمان ما هو ؟
فذهب السلف الى أن حقيقة الايمان قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمــل بالاركان (١) وسيأتي بيان مذهبهم هذا مع أدلتهم عليه بشيء من التفصيــل .

أما الخوارج (٢) : فذهبوا الى أن الايمان هو الطاعات المفترضة مع ترك الكبائر (٣)

أما المرجئة (٤) : فهم أكثر من فرقة ، وقد بين ابن تيمية انهم على ثلاثة أقوال ، فمنهم من يقول الايمان مجرد ما في القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة ، ومنهم من لا يدخلهـــا كالجهم بن صفوان ، وهذا هو الذي نصره الاشعري وأكثر أصحابه .

ومنهم من يقول هو قول اللسان فقط وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية
ومنهم من يقول تصديق القلب وقول اللسان ، وهذا المشهور عن أهل الفقه (٥)

وهذا يجعلنا نتعرض لرأي الامام أبي حنيفة في حقيقة الايمان وهي مسألة خطيرة ظهرت على مسرح البحث والمناقشة بين العلماء ، وهي قضيــــة اتهام أبي حنيفة بالارجاء وأن مذهبه في الايمان هو عين مذهب المرجئة ، وفي

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٠ ، والايمان لابن منده ٣٣١/١ ،والفصل لابن حزم ٢٢٧/٣ ، ولوامع الانوار ٤٠٤/١، وكتاب الايمان لنعيم ياسين ص ١٦٩

(٢) وهم الذين خرجوا على الامام علي رضي الله عنه وهم فرق كثيرة يجمعهم القول أن عليا وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين وكل من رضى بحكمهم كفــار ويزعمون أن كل من اذنب ذنبا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافــر خالد مخلد في النار ، ومما يجمعهم تجويزهم الخروج على الامام الجائز.
انظر التبصير في الدين ص ٤٥ ، والملل والنحل ١١٤/١-١١٥

(٣) انظر اصول الدين للبغدادي ص ٢٤٩، والايمان لابن منده ٣٣١/١ ، والمواقف للايجي ص ٣٨٥ .

(٤) وهم الذين يؤخرون العمل عن الايمان وكانوا يقولون لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وأكثرهم كان يقول الايمان لا يزيد ولا ينقص انظر مقالات الاسلاميين للاشعري ٢١٣/١-٢١٤ ، والفرق بين الفرق ص ١٥١-١٥٥

(٥) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٨٤

الحقيقة أن مذهب أبو حنيفة في الايمان قد اشتهر وهو قوله أن الايمان عبارة عن أمرين لا ثالث لهما تصديق بالقلب واقرار باللسان (١) ، قال شارح الفقه الاكبر : (والايمان في الشرع هو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان) (٢)

من هذا يتبين أن مذهبه في حقيقة الايمان أنه عبارة عن أمرين اقرار وتصديق ، ويرى أن الايمان لا يكون صحيحا الا اذا اجتمع فيه هذان الشرطان ، أما العمل فلم يجعله من أركان الايمان ، ولأجل هذا فقد رمى جماعة من العلماء أبا حنيفة بالارجاء وعدوه من جملة المرجئة ، ومن هؤلاء الذين رموه بالارجاء أبو الحسن الاشعري في المقالات (٣) وكذلك شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الايمان (٤)

وقد برروا موقفهم هذا من أبي حنيفة بأنه جعل الايمان اقرارا وتصديقا فقط ، واخر العمل عن الركنية فيه ، فقالوا : ان أبا حنيفة قد أخر العمل عن الركنية في الايمان ، ولم يجعله جزءا منه وقال لا يزيد ولا ينقص والناس فيه سواء وهذا بعينه ما ذهبت اليه المرجئة .

والاحرى أن نقول أن الامام أبي حنيفة لم يكن يقصد رأي المرجئة القائلين بأنه لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فلا يجوز وصفه بالارجاء المطلق ، مع أنه قد خالف السلف في هذه المسائل ، ولا يسعنا الا أن نقول رحمه الله وغفر له ، ونقول هذا من بدع الاقوال لا من بدع العقائد فان كثيراً من النزاع فيها لفظي لهذا لم يكفر أحد من العلماء أحدا من مرجئة الفقهاء (٥)

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٠ ،وشرح الفقه الاكبر للماتريدي ص١٦ وشرحه للملا علي القاري ص ٦٨ ،وشرحه للمغنساوي ص ١٤٨ ،وشرح وصية الامام أبي حنيفة ص ٥٢

(٢) شرح الفقه الاكبر للمغنساوي ص ١٤٨،ونظم الدرر شرح الفقه الاكبر لعبيد الله ص ١٠٢-١٠٣

(٣) انظر مقالات الاسلاميين للاشعري ٢١٩/١-٢٢١

(٤) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٨٣-١٨٤ وايضا ص ١١٤

(٥) انظر لوامع الانوار ٤٢٥/١،ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٩٤/٧

وفي هذا يقول شارح الطحاوية : (والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والائمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري ، فان كون اعمال الجوارح لازمة لايمان القلب ، أو جزءاً من الايمان مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الايمان ، بل هو في مشيئة الله ، ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد) (١)

كما يرى ذلك ايضا شيخ الاسلام ابن تيمية حيث قال : (ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي والا فالقائلون بأن الايمان قول ، من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان (٢) وهو أول من قال ذلك ، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد ، وان قالوا : ان ايمانهم كامل كايمان جبريل ، فهم يقولون ان الايمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب كما تقوله الجماعة ويقولون ايضا بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة) (٣)

أما ما ذهب اليه الكرامية (٤) من أن الايمان هو الاقرار باللسان فقط ، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الايمان ومع ذلك فهم مخلدون في النار

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٢

(٢) حماد بن أبي سليمان مسلم الاشعري مولاهم أبو اسماعيل الكوفي الفقيه صدوق من الخامسة ،رمي بالارجاء وقال عنه النسائي : ثقة الا انه مرجئ مات سنة عشرين أو قبلها .

انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٣/١٦ـ١٧ ، وتقريب التهذيب ١/١٩٧

(٣) كتاب الايمان لابن تيمية ص ٢٨١ـ٢٨٢ ، وانظر شرح العقيدة الاصفهانية ص ١٤٣

(٤) اتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني توفي سنة ٢٥٥ هـ وهم يوافقون السلف في اثبات الصفات،ولكنهم يبالغون في ذلك الى حد التشبيه والتجسيم ، ويوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعقل .

انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٤/٢١ـ٢٢ ، والفصل لابن حزم ٥/٧٣ـ٧٤ ، والتبصير في الدين ص ١١١ـ١١٤

لأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به (١)

أما الجهمية أتباع الجهم بن صفوان فقد ذهبوا الى أن الايمان مجرد معرفة بالقلب ، وان لم يتكلم به ، فالايمان عندهم هو المعرفة بالقلب فقط ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الامة ، بل قال العلماء كأحمد وغيره بكفر من قال بهذا وهو ظاهر الفساد لأنه يلزم منه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فانهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما السلام ، ولم يستجيبوا لهما ، وكذلك أهل الكتاب كانوا يعرفون صدق النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا معادين له (٢)

أما جمهور الاشاعرة فقد ذهبوا الى أن الايمان الشرعي شيء واحد فقط لا تعدد فيه وهو التصديق القلبي بالله تعالى ، وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتصديقه فيما أخبرنا به عن الله عز وجل وصفاته ، وانبيائه وغير ذلك ، وهذا هو المذهب المشهور عندهم (٣)

وقد عبر عن رأيهم هذا صاحب المواقف بقوله : (اعلم أن الايمان في اللغة التصديق ، قال الله تعالى حكاية عن اخوة يوسف : ((وما أنت بمؤمن لنا)) أي مصدق ، وقال عليه الصلاة والسلام ((الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)) أي تصدق ، وأما في الشرع وهو متعلق ما ذكرنا من الاحكام فهو عندنا - يعني أتباع أبي الحسن الاشعري - وعليه أكثر الأئمة

---

(١) انظر التبصير في الدين ص ١١٥-١١٦،والفصل لابن حزم ٢٢٧/٣،٧٣/٥،والايمان لابن منده ٣٣١/١،والارشاد للجويني ص ٣٩٦ ،وكتاب الايمان لابن تيمية ص ١٣٤ والرسالة التدمرية له ص ١٢٢ ،ورسالة الفرقان ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٤٢/١ وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٠

(٢) انظر الايمان لابن منده ٣٣١/١ ،والفصل لابن حزم ٢٢٧/٣،٧٣/٥ ،وكتاب الايمان لابن تيمية ص ١٨٤ ،ورسالة الفرقان ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٣٥/١-٣٦ وشرح الطحاوية ص ٣٦٠-٣٦١ ،ولوامع الانوار ٤٢٢/١ ،وشرح الرسالة التدمرية ص ٣٥٣

(٣) انظر الفصل لابن حزم ٢٢٧/٣،٧٣/٥ ،وأصول الدين للبغدادي ص ٢٤٨،والملل والنحل للشهرستاني ١٠٢/١-١٠٣،وغاية المرام للامدي ص ٣١١-٣١٢ ،واللمع للاشعري ص ١٢٣،وشرح العقائد النسفية ص ٧٧ ،وشرح جوهرة التوحيد للبيجوزي ص٤٢-٤٣

كالقاضي (١) والاستاذ (٢) التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورةفتفصيلا فيملا علم تفصيلا ، واجمالا فيما علم اجمالا) (٣)

وقال امام الحرمين : (والمرضي عندنا - أي الاشاعرة - أن حقيقة الايمان التصديق بالله تعالى) (٤)

من كل ما تقدم يتبين لنا أن التعريف الشرعي للايمان عند جمهور الاشاعرة هو بعينه التعريف اللغوي ، الا أن التعريف الشرعي خاص فيما أمرنا بالتصديق به من الامور الشرعية واللغوي عام ·

وستأتي أدلتهم على ذلك عند عرض أدلة الامام الباقلاني لأنها عين أدلتهم ·

والحاصل أن الآراء في حقيقة الايمان خمسة ، وهي تنقسم الى نوعين بسيط ومركب ·

* أما البسيط فثلاثة أقوال :-

١- التصديق وحده وهو الذي ذهب اليه المرجئة و المختار عند الاشاعرة وغيرهم ·

٢- الاقرار باللسان وحده وهو ما ذهبت اليه الكرامية ·

٣- المعرفة وهذا رأي الجهم بن صفوان ·

* أما المركب فاثنان :-

١- التصديق مع الاقرار وهو قول المتكلمين من الاحناف وغيرهم ·

٢- والتصديق مع الاقرار والعمل وهذا ما ذهب اليه جمهور السلف من الامة ·

---

(١) يعني أبا بكر الباقلاني

(٢) يعني أبا اسحاق الاسفرايني سبقت ترجمته ص ٢٩

(٣) المواقف للايجي ص ٣٨٤

(٤) الارشاد للجويني ص ٣٩٧

رأي الامام الباقلاني في حقيقة الايمان وأدلته على ذلك :-

ذهب الامام الباقلاني الى أن حقيقة الايمان هو التصديق - كما ذهب الى ذلك جمهور الاشاعرة - فالايمان عنده هو التصديق ، والايمان الشرعي هو بعينه الايمان اللغوي ، لانه مبقى على أصله اللغوي لم ينقل الى معنى شرعي آخر وفي ذلك يقول : (فان قال قائل : خبرونا ما الايمان عندكم ؟قلنا الايمان هو التصديق بالله تعالى ، وهو العلم ، والتصديق يوجد بالقلب)(١)

وقال في موضع آخر : (وأن يعلم أن الايمان بالله عز وجل هو التصديق بالقلب ، بأنه الله الواحد الفرد الصمد ، القديم الخالق العليم)(٢)

وقال : (واعلم أن حقيقة الايمان هو التصديق) (٣)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :(وقد رأيت لابن الهيصم فيه مصنفا في أنه قول اللسان فقط ، ورأيت لابن الباقلاني فيه مصنفا أنه تصديق بالقلب فقط) (٤)

وقد استدل الامام الباقلاني على مذهبه هذا بأجماع أهل اللغة وقال في بيانه بعد تعريفه لحقيقة الايمان : (فان قال : وما الدليل على ما قلتم ؟ قيل له : اجماع أهل اللغة قاطبة على أن الايمان في اللغة قبل نزول القرآن وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، هو التصديق لا يعرفون في لغتهم ايمانا غير ذلك .

ومما يدل على ذلك : قوله تعالى : ((وما أنت بمؤمن لنا ولوكنا صادقين)) (٥) ، أي : ما أنت بمصدق لنا ، ومنه قولهم " فلان يؤمن بالشفاعة " وفلان لا يؤمن بعذاب القبر" أي : لا يصدق بذلك ، فوجب أن يكون الايمان في الشريعة هو الايمان المعروف في اللغة ، لأن الله عز وجل ما غير لسان العرب ولا قلبه ، ولو فعل ذلك لتواترت الاخبار بفعله ، وتوفرت دواعي الامة على نقله ، ولغلب اظهاره واشهاره على طيه وكتمانه ، وفي علمنا بأنه لم يفعل

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٤٦

(٢) الانصاف للباقلاني ص ٢٢

(٣) نفس المصدر ص ٥٥

(٤) رسالة الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٤٣/١

(٥) يوسف الاية ١٧

ذلك بل أقر أسماء الاشياء والتخاطب بأسره على ما كان فيها ، دليل على أن الايمان في الشرع هو الايمان اللغوي ، ومما يدل على ذلك ويبينه قول الله تعالى : ((وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه)) (١) وقوله تعالى((انا جعلناه قرآنا عربيا)) (٢) ، فخبر أنه أنزل القرآن بلغة القوم وسمى الاشياء بتسمياتهم ، فلا وجه للعدول بهذه الايات عن ظواهرها بغير حجة ولاسيما مع قولهم بالعموم وحصول التوقيف على أن الخطاب نزل بلغتهم ، فدل ما قلناه على أن الايمان هو ما وصفناه ، دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات) (٣)

وقال : (وقد اتفق أهل اللغة قبل نزول القرآن وبعث الرسول عليه السلام على أن الايمان في اللغة هو التصديق دون سائر أفعال الجوارح والقلوب) (٤)

فقد بين الامام الباقلاني أن التصديق محله القلب وهو أن يصدق القلب بأن الله اله واحد وأن الرسول حق وأن جميع ما جاء به الرسول حق وأما ما يوجد من اللسان وهو الاقرار وما يوجد من الجوارح وهو العمل فانما ذلك عبارة عما في القلب ودليل عليه .

وقد بين الامام الباقلاني أن الايمان قد يطلق على العمل والاقرار لأنّ الايمان منه ما هو ايمان حقيقي على وجه ، ومجازي على وجه ، ومعنى هذا : أن العبد اذا صدق بقلبه وأقر بلسانه وعملت جوارحه فهو المؤمن الحقيقي عند الله وعند الناس ، وأما من كذب بقلبه وأقر بلسانه بالوحدانية ونطق الشهادة وعمل الطاعات بجوارحه فهذا ليس بمؤمن حقيقة وانما هو مؤمن مجازا لأنّ ايمانه هذا يمنع دمه وماله في احكام الدنيا ، لأنّه من حيث الظاهر مؤمن ، ولا ينفعه هذا عند الله عز وجل فهو عنده غير مؤمن (٥)

واستدل على ذلك بقوله تعالى : ((اذا جاءك المنافقون قالوا

---

(١) ابراهيم الاية ٤

(٢) الزخرف الاية ٢

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٣٤٦-٣٤٧،وانظر الانصاف له ص ٢٢و ص ٥٥

(٤) الانصاف للباقلاني ص ٢٢

(٥) انظر الانصاف للباقلاني ص ٥٥

نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون)) (١)

وقال في وجه استدلاله بهذه الاية : (فأخبر سبحانه بكذبهم ونحن نعلم وكل عاقل أنه ما كذب اقرار السنتهم ، وانما كذب قلوبهم حيث ابطنوا خلاف ما أظهروا ، لأنّ الاخرس المصدق بقلبه ايمانه صحيح وان كان لا يقدر على النطق والاقرار بلسانه ، وكذلك بالعكس من هذا فان المؤمن المصدق بقلبه مؤمن عند الله تعالى وان نطق بالكفر،يدلك على صحة ذلك قوله تعالى:((من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا ....)) الاية (٢) فأخبر أن نطق اللسان بالايمان لا ينفع مع اصرار القلب على الكفر واقرار اللسان بالكفر لا يضر مع تصديق القلب)(٣)

ولا يفوتني أن اذكر أن الامام الباقلاني بعد أن بين رأيه في حقيقة الايمان وأنه التصديق فقط واستدل له وأفاض في ذلك وعند نهاية كلامه ذكر مذهب السلف في حقيقة الايمان وبين أنه لا ينكره الا انه لم يبين أن هذا مذهبه أو أنه يلتزم به ، وهذا يؤكد أن الامام الباقلاني كان مترددا في هذه المسألة بين مذهب الاشاعرة والسلف وكأنه يشعر بميله الى مذهب السلف وان لم يصرح بذلك فقد قال : (واعلم : أنا لا ننكر أن نطلق القول بأن الايمان عقد بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان على ما جاء في الاثر لأنه صلى الله عليه وسلم انما أراد بذلك أن يخبر عن حقيقة الايمان الذي ينفع في الدنيا والاخرة ، لان من أقر بلسانه وصدق بقلبه وعمل بأركانه حكمنا له بالايمان وأحكامه في الدنيا من غير توقف ولا شرط وحكمنا له ايضا بالثواب في الاخرة وحسن المنقلب من حيث شاهد الحال وقطعنا له بذلك في الاخرة ، بشرط أن يكون في معلوم الله تعالى أنه يحييه على ذلك ويميته عليه ، ولو أقر بلسانه وعمل بأركانه ولم يصدق بقلبه نفعه ذلك في أحكام الدنيا ولم ينفعه في الآخرة) (٤)

---

(١) المنافقون الاية ١

(٢) النحل الاية ١٠٦

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٥٦

(٤) الانصاف للباقلاني ص ٥٦

والذي يهمنا أنه مع اقراره هذا بمذهب السلف لم يلتزم به بل اختار أنه تصديق القلب فقط .

مما تقدم يمكن أن نلخص مذهب الامام الباقلاني في حقيقة الايمان بعدة نقاط :-

١- أن تعريف الايمان شرعا مطابق للايمان في اللغة وهو التصديق .

٢- ان التصديق محله القلب فقط ، وان الاقرار والعمل لا دخل لهما في التصديق .

٣- ان العمل خارج عن الايمان ومغاير له ، بدليل عطف العمل على الايمان ، والعطف يقتضي المغايرة كما في قوله تعالى : ((الذين آمنوا وعملوا الصالحات)) (١) (٢)

٤- أن القرآن الكريم ولغة العرب ، والاجماع ، تدل على بقاء الايمان على أصله اللغوي .

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن الامام الباقلاني بتعريفه لحقيقة الايمان وأدلته على ذلك موافق لجمهور الاشاعرة وأدلته هي عين أدلتهم (٣)

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أن الاشعري وعامة أصحابه قد ذهبوا الى نصرة قول جهم في الايمان حيث قال : (وأبو الحسن الاشعري نصر قول جهم في الايمان ، مع أنه نصر المشهور عن أهل السنة أنه يستثني في الايمان فيقول أنا مؤمن ان شاء الله ، لأنه نصر مذهب أهل السنة في أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ولا يخلد في النار ، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك ، وهو دائما ينصر في المسائل التي فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم قول أهل الحديث ، ولكنه لم يكن خبيرا بمآخذهم كما فعل في مسألة الايمان فنصر فيها قول جهم ، ولهذا خالفه كثير من أصحابه في الاستثناء ..... واتبعه أكثر أصحابه على نصر قول جهم في ذلك) (٤)

---

(١) الرعد الاية ٢٩

(٢) انظر المواقف للايجي ص٣٨٥،وشرح العقائد النسفية ص٨٠،وحاشية الدواني ٣٨٦/٢

(٣) انظر اللمع للاشعري ص١٢٣،واصول الدين للبغدادي ص٢٤٧-٢٤٩،والارشاد للجويني ص٣٩٦-٣٩٧،وغاية المرام للامدي ص٣٠٩-٣١٠،والمواقف للايجي ص٣٨٤-٣٨٥،وشرح العقائد النسفية ص٧٧-٧٨،وشرح رمضان افندي على النسفية ص٢٥٥-٢٥٦،وحاشية الدواني على العضدية ٢٨٥/٢-٢٨٦،وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص٤٣-٤٤

(٤) الايمان لابن تيمية ص ١١٥

وقال في موضع آخر : (والقاضي أبو بكر الباقلاني نصر قول جهم في مسألة الايمان متابعة لابي الحسن الاشعري ، وكذلك أكثر أصحابه ، فأما أبو العباس القلانسي ..... وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ القاضي أبي بكر وصاحب أبي الحسن ، فانهم نصروا مذهب السلف ، وابن كلاب نفسه وغيره كانوا يقولون هو التصديق والقول جميعا موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبي سليمان ومن اتبعه مثل أبي حنيفة وغيره) (١)

وقد سبق شيخ الاسلام ابن تيمية بهذا الامام ابن حزم حيث قرر ان قول الاشاعرة في الايمان هو مذهب الجهمية حيث قال : (اختلف الناس في ماهية الايمان ، فذهب قوم أن الايمان هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وان أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته ، فاذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة ، وهذا قول أبي محرز جهم بن صفوان ، وأبي الحسن الاشعري البصري وأصحابهما) (٢)

وفي الحقيقة أن هذا هو مذهب الاشاعرة وهو الذي استدلوا له وقرروه في كتبهم المعتمدة وهو ان الايمان تصديق فقط ، أما الاقرار باللسان والعمل بالجوارح فلم يجعلوهما من الايمان .

ومع ذلك فانهم لم يهملوهما ، بل جعلوا لهما اعتبارهما في الوجود فجعلوهما شرطا به يتحقق الايمان ، ويأثم تاركهما اثما كبيرا لانهما دليل على صدق الايمان الباطن ، وفي هذا يقول الايجي بعد أن ذكر مذهبهم في الايمان : (..... والتلفظ بكلمتي الشهادتين مع القدرة عليه شرط ، فمن أخل به فهو كافر مخلد في النار ولا تنفعه المعرفة القلبية من غير اذعان وقبول ، فان من الكفار من كان يعرف الحق يقينا ، وكان انكاره عنادا واستكبارا ، قال الله تعالى : ((وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا)) (٣))(٤)

---

(١) الايمان لابن تيمية ص ١١٤

(٢) الفصل لابن حزم ٢٢٧/٣ ، ٧٣/٥

(٣) النحل الاية ١٤

(٤) العقائد العضدية بحاشية الدواني ٢٨٥/٢-٢٨٦ ، وانظر شرح رمضان افندي على شرح العقائد النسفية ص ٢٥٥-٢٥٦

فالعمل عندهم له مكانة كبيرة ، فتاركه أو تارك شيء منه يكون مذنبا معرضا للعقاب ، هذا يجعلنا نقول ليس هناك مبرر لرميهم بهذه الالقاب وعدهم من جملة الجهمية والمرجئة ، لأن الخلاف في هذه المسألة بينهم وبين علماء السلف خلاف لفظي لانه ينحصر في الشرطية التي قال بها علماء السلف والشرطية التي قال بها الاشاعرة ، والكل متفق على ضرورة الاتيان بالعمل والاقرار دون تفريط أو تقصير ، والمقصر فيهما - أي الاقرار والعمل - مؤاخذ على تقصيره ومعرض للعقاب ان شاء الله عذبه وان شاء غفر له ، فالاشاعرة يخرجون الاقرار والعمل عن الركنية في الايمان مع التشدد في الاتيان بهما كشرط لتحقق الايمان وكماله ٠

وقال بعضهم أن الايمان قد يطلق على العمل اطلاقا مجازيا (١) وعلى ذلك وجهوا الايات والاحاديث التي ورد فيها اطلاق الايمان على العمل ٠

وهم لما ذهبوا الى القول بأن الايمان هو التصديق ، وكان ثمة التباس في أن التصديق هو المعرفة ، وهذا الذي حمل بعض العلماء على ادخالهم في زمرة الجهمية القائلة بأن الايمان هو المعرفة كما فعل ابن حزم وابن تيمية وغيرهم ٠

الا أن الاشاعرة دفعا لهذا التوهم قد فرقوا بين الامرين المتطابقين بأن ضدهما واحد ، وضد المعرفة غير ضد التصديق ، لأن ضد المعرفة النكارة وضد التصديق التكذيب ، على ما صرح به الامام الغزالي حيث فسر التصديق بالتسليم فيكون مقابلا للانكار (٢) (وليست حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة الصدق الى الخبر أو المخبر ، عن غير اذعان وقبول ، بل هو اذعان وقبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم) (٣)

وعلى أي حال فان الاشاعرة عموما والباقلاني خاصة قالوا : بأن الايمان الشرعي هو بعينه الايمان اللغوي وهو التصديق فقط ٠

وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية قول الامام الباقلاني في حقيقة الايمان وأدلته على ذلك وقال : (وهذا عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة

---

(١) غاية المرام للامدي ص ٣١١-٣١٢

(٢) انظر حاشية رمضان افندي على شرح العقائد النسفية ص ٢٥٥-٢٥٦ ، وشرح العقائد النسفية ص ٧٧-٧٨

(٣) شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٧٨

الايمان) (١)

ثم رد عليه وعلى كل من يقول بقوله من الاشاعرة وغيرهم وساق ردود علماء السلف عليهم حيث قال : (وللجمهور من أهل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة) (٢)

وسأذكر بايجاز ردود علماء السلف - التي ذكرها ابن تيمية - على الامام الباقلاني في قوله في حقيقة الايمان :

اولا : يقال للباقلاني في قوله ان أهل اللغة قاطبة أجمعت على ان الايمان قبل نزول القرآن هو التصديق ، من اين لك هذا الاجماع ؟ ومن نقله ؟ وفي أي كتاب ذكر؟ .

ثانيا : ثم يقال له ماذا تعني بأهل اللغة قاطبة هل هم نقلتها كأبي عمرو (٣) والاصمعي (٤) والخليل (٥) أو المتكلمين باللغة ؟ فان أردت

---

(١) كتاب الايمان لابن تيمية ص ١١٦

(٢) نفس المصدر ص ١١٦

(٣) زبان بن عمار التميمي المازني البصري أبو عمرو ويلقب أبوه بالعلاء من أئمة اللغة والادب وأحد القراء السبعة ، ولد بمكة سنة ٧٠ هـ على أصح الاقوال ،ونشأ بالبصرة ،وتوفي بالكوفة سنة ١٥٤هـ،وفي اسمه واسم ابيه خلاف كبير على نحو عشرين قولا وهذا الاسم هو الذي رجحه العلماء

انظر نزهة الالباء ص ٣٠-٣٤،واشارة التعيين ص١٢١،والاعلام للزركلي ٤١/٣

(٤) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي أبو سعيد الاصمعي ،راوية العرب وصاحب النحو واللغة والاخبار،مولده سنة ١٢٥هـ ووفاته بالبصرة سنة ٢١٠هـ أو نحوها له المصنفات الكثيرة منها الابل،والاضداد ،وخلق الانسان،وغير ذلك

انظر نزهة الالباء ص٩٠-١٠٠، واشارة التعيين ص١٩٣-١٩٤،والاعلام للزركلي١٦٢/٤

(٥) الخليل بن أحمد بن عمرو تيم الفراهيدي الازدي اليحمدي،أبو عبد الرحمن من أئمة اللغة والادب ،وواضع علم العروض ،وهو استاذ سيبويه النحوي،ولد في البصرة سنة ١٠٠هـ ومات بها سنة ١٧٠هـ ،من مصنفاته كتاب العين في اللغة ومعاني الحروف وغير ذلك

انظر نزهة الالباء ص ٤٥-٤٧،واشارة التعيين ص١١٤،والاعلام للزركلي ٣١٤/٢

الاول فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الاسلام باسناد ، وانما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم ، ولم نسمع أنهم نقلوا لفظ الايمان ولا أنهم أجمعوا على أنه التصديق .

وان أردت من تكلم باللغة قبل الاسلام فهؤلاء ايضا لم ينقل أحد عنهم ذلك

ثالثا : انه لا يعرف عن أهل اللغة أن الايمان في اللغة هو التصديق ولا انهم أجمعوا على ذلك .

رابعا : ثم يقال له على فرض أنهم قالوا أن الايمان هو التصديق فالذي قاله هو واحد أو اثنان ، فيبقى آحاد لا يثبت به التواتر ، فمن أين لنا أن نجزم انهم كانوا لا يعرفون للايمان معنى غير التصديق ، وأنهم أجمعوا على ذلك قاطبة .

فان قالوا : هذا يقدح في العلم باللغة قبل نزول القرآن يقال لهم : لا حاجة بنا مع بيانه صلى الله عليه وسلم للقرآن وما بعثه الله تعالى به أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن .(١)

خامسا : ثم ان الامام الباقلاني لم يذكر ولا شاهدا واحدا من كلام العرب على ما ادعاه من اجماعهم على أن الايمان هو التصديق،واستدل على كلامه من غير القرآن بكلام الناس بأن فلان يؤمن بالشفاعة وفلان يؤمن بالجنة والنار وفلان لا يؤمن بذلك ، ومن المعلوم أن هذا ليس من الفاظ العرب قبل نزول القرآن ، بل هو مما تكلم به الناس بعد عصر الصحابة والتابعين لما ظهر أهل البدع ووجد من ينكر الشفاعة وعذاب القبر .

سادسا :- ثم اذا قال الناس فلان يؤمن بعذاب القبر أو بالجنة والنار فليس مرادهم التصديق بدون خوف ولا رجاء ، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه ويصدق بالشفاعة ويرجوها ، أما اذا صدق بعذاب القبر ولم يخف من ذلك لا يسمى مؤمنا به ، كما لا يسمى مؤمنا بالجنة والنار الا من رجا الجنة وخاف من النار .

فلا يوجد في كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف أو يرجى ولم يخفه أو يرجوه بل يجحده ويكذب به أنهم يقولون هو مؤمن به فلا يوجد شاهد واحد في كلام العرب يدل على ما ادعاه .

---

(١) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١١٧-١١٩

أما استدلاله بقوله تعالى: ((وما أنت بمؤمن لنا)) (١) فان هذا استدلال بالقرآن لكن ليس في الاية ما يدل على أن المصدق هو المؤمن أو مرادف للمؤمن (٢)

سابعا : ثم يقال للباقلاني حينما قال لا يعرفون في اللغة ايمان غير ذلك ، من أين لك هذا النفي الذي لا يمكن الاحاطة به ·

ثامنا : ويقال له ان القرآن لم يرد فيه ايمان مطلق غير مفسر بل لفظ الايمان ورد في القرآن اما مقيدا واما مطلقا مفسرا ، مثال المقيد قوله تعالى : ((يؤمنون بالغيب)) (٣) وقوله تعالى : ((فما آمن لموسى الا ذرية من قومه)) (٤)

ومثال المطلق المفسر قوله تعالى : ((انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم))(٥) وقوله تعالى :((انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله)) (٦)

وغير ذلك من الايات ، وكل ايمان ورد في القرآن الكريم مطلقا بين فيه أن الرجل لا يكون مؤمنا الا بالعمل مع التصديق (٧)

تاسعا : أما ما قاله الامام الباقلاني من أن الايمان المعروف في الشرع هو الايمان المعروف في اللغة لأن الله ما غير لسان العرب ولا قلبه ولو فعل ذلك لتواترت الاخبار به ، ولنقلته الامة وأظهرته بدل كتمانه ·

- فيقال له :- نعم قد تواتر أنه أراد بالصلاة والصيام والزكاة معانيها المعروفة ، وأراد بالايمان ما بينه الله عز وجل بكتابه وسنة رسوله من أن العبد لا يكون مؤمنا الا بالعمل كقوله تعالى : ((انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)) (٨) وهذا متواتر في القرآن والسنة ·

---

(١) يوسف الاية ١٧

(٢) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١١٩-١٢٠

(٣) البقرة الاية ١ (٤) يونس الاية ٨٣

(٥) الانفال الاية ٢ (٦) الحجرات الاية ١٥

(٧) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٢١-١٢٢

(٨) الانفال الاية ٢

عاشرا : أما قول الباقلاني لا وجه للعدول بالايات التي تدل على أنه عربي عن ظاهرها وأدلته التي ساقها لاثبات ذلك ، فيقال له : الآيات التي فسرت الايمان وسلبت الايمان عن من لم يعمل أكثر من هذه الآيات وأدل وأصرح (١)

وبعد هذه الردود من علماء السلف يتبين أن الصحيح هو أن الايمان اقرار وتصديق وعمل وليس تصديقا فقط .

وخلاصة القول أن الخلاف بين الاشاعرة والسلف في ذلك :

أن السلف يجعلون العمل ركنا داخلا في الايمان ، وأطلقوا عليه اسم الايمان ، أما الاشاعرة فقالوا ليس ركنا في الايمان ولا يطلق عليه اسم الايمان ، واستدلالهم على اخراج العمل عن الايمان بقوله تعالى : ((والذين آمنوا وعملوا الصالحات)) (٢) اذ قالوا أن العطف دليل على المغايرة فالايمان غير العمل ، يجاب عنه بأن دلالة العطف على المغايرة ليست في كل حال من أحوال العطف ، والعطف هنا لا دليل لهم فيه ، اذ أنه من باب عطف الخاص على العام وأمثلته في القرآن كثيرة جدا منها :

قوله تعالى : ((من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين)) (٣)

فلا أحد ينكر أن جبريل وميكال من جنس الملائكة ، ولو كان العطف يقتضي المغايرة في جميع أحواله ، لدلت هذه الاية على أن جبريل وميكال جنس آخر غير الملائكة ، وكذلك قوله تعالى : ((حافظوا على الصلوت والصلاة الوسطى))(٤)

وغير ذلك من الامثلة التي أجاب بها علماء السلف (٥)

---

(١) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٢٣ـ١٢٤

(٢) الرعد الاية ٢٩

(٣) البقرة الاية ٩٨

(٤) البقرة الاية ٢٣٨

(٥) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٨٦ـ١٨٧ ، ومجموع الفتاوى له ٧/٦٤٧ـ٦٤٨

مذهب السلف في حقيقة الايمان وأدلتهم على ذلك :-

لقد حصر شيخ الاسلام ابن تيمية أقوال السلف والأئمة في تفسير الايمان في أربع عبارات ، فبعضهم يقول : هو قول وعمل ، وبعضهم يقول : هو قول وعمل ونية ، وبعضهم يقول : قول وعمل ونية واتباع السنة ، وبعضهم يقول : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، قال وكل هذا صحيح(١)

وقد بين شيخ الاسلام مقصود السلف في عباراتهم هذه بقوله (والمقصود هنا أن من قال من السلف : الايمان قول وعمل ،أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه الا القول الظاهر ، أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال : قول وعمل ونية قال : القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ، ومن زاد اتباع السنة ، فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله الا باتباع السنة ، واولئك لم يريدوا كل قول وعمل انما أرادوا ما كان مشروعا من الاقوال والاعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة أقسام فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري (٢) عن الايمان ما هو ؟ فقال : قول وعمل ونية وسنة ، لأن الايمان اذا كان قولا بلا عمل فهو كفر ، واذا كان قولا وعمل بلا نية فهو نفاق ، واذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة) (٣)

فقد بين ابن تيمية عبارات السلف في حقيقة الايمان ودفع ما قد يتوهم من خلاف بين عبارات السلف ، لأنها كلها تلتقي عند مفهوم واحد وهو أن الايمان لا بد فيه من التصديق القلبي واظهار هذا التصديق بالقولباللسان والعمل بالجوارح .

---

(١) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٦٢

(٢) سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد ،أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتمسكين بالكتاب والسنة ،ولد سنة ٢٠٠هـ ،وتوفي سنة ٢٨٣هـ بالبصرة انظر وفيات الاعيان ٤٢٩/٢-٤٣٠،والاعلام للزركلي ١٤٣/٣

(٣) كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٦٣

وفي هذا يقول ابن القيم في قصيدته النونية :ـ

وأشهد عليهم أن ايمان الورى ×××× قول وفعل ثم عقـــد جنان (١)

قال شارح النونية عند هذا البيت : (مذهب أهل السنة والجماعة أن الايمان تصديق بالجنان وعمل بالاركان وقول باللسان) (٢)

وهذا التعريف للايمان مما أجمع عليه السلف ، وقد نقل هذا الاجماع على أن الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية الامام الشافعي حيث قال : (وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم : أن الايمان قـــول وعمل ، ونية لا يجزيء واحد من الثلاثة الا بالآخر)(٣)

وممن نقل هذا الاجماع الامام ابن عبد البر (٤) في التمهيد حيـث قال : (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الايمان قول وعمل ، ولا عمل الا بنية والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والطاعات كلها عندهم ايمان الا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فانهم ذهبوا الى أن الطاعات لا تسمـــى ايمانا ، قالوا : انما الايمان التصديق والاقرار ٠٠٠٠٠)(٥)

قال شارح الطحاوية : (ذهب مالك والشافعي وأحمد والاوزاعي (٦)

---

(١) القصيدة النونية الكافية الشافية لابن القيم ص ٢٧

(٢) شرح القصيدة النونية لابن عيسى ١٣٩/٢

(٣) نقل هذا اللالكائي في شرح أصول **الاعتقاد** ٨٨٦/٥ـ٨٨٧،وقال ان هذا قـــول الشافعي في كتاب الأم في باب النية في الصلاة وبعد الرجوع الى نسخة الأم المطبوعة لم أجد هذا النص فيها ،انظر الأم للشافعي ٩٩/١ـ١٠٠ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة الأولى ١٣٨١هـ

(٤) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبـــي المالكي الامام العالم النظار شيخ علماء الاندلس ، من كبار حفاظ الحديـث مؤرخ وأديب ، يقال له حافظ المغرب،ولد سنة ٣٦٨هـ وتوفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ ألف كتبا كثيرة منها التمهيد شرح الموطأ ،والاستذكار،والاستيعاب،والكافي في الفقه وغير ذلك

انظر الديباج المذهب لابن فرحون ص ٣٥٧ـ٣٥٩،وشجرة النور الزكية ص ١١٩

(٥) التمهيد لابن عبد البر ٢٣٨/٩

(٦) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي من قبيلة الاوزاع أبو عمرو امام الشام في الفقه والحديث،ولد في بعلبك سنة ٨٨ هـ ونشأ في البقاع وتوفـــي في بيروت سنة ١٥٧ هـ، عرض عليه القضاء فامتنع،من مصنفاته السنن في الفقه والمسائل وغير ذلك

انظر وفيات الاعيان ١٢٧/٣،وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٧٨/١،والاعلام ٣٢٠/٣

واسحاق بن راهوية (١) وسائر أهل الحديث وأهل المدينة - رحمهم الله - وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين الى أنه - أي الايمان - تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالاركان) (٢)

وممن ذكر قول السلف أن الايمان قول وعمل ولا قول الا بنية جمهور العلماء من التابعين وعلماء السلف (٣)

وقد ذكر اللالكائي (٤) عند حديثه على عقائد الائمة من السلف أنهم يقولون الايمان قول وعمل (٥)

---

(١) اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي أبو يعقوب ابن راهوية من سكان مرو، ولد سنة ١٦١هـ وتوفي سنة ٢٣٨هـ وهو أحد كبار الحفاظ وروى عنه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن معين والنسائي وغيرهم

انظر وفيات الاعيان ١/١٩٩-٢٠٠، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/١٠٩، والاعلام للزركلي ١/٢٩٢

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٠

(٣) انظر الشريعة للآجري ص١١٩، والشرح والابانة لابن بطة ص١٧٦-١٧٧، والايمان لابن أبي شيبة ص ٥٠، والايمان لابي عبيد القاسم بن سلام ص٩-١٠، وتعظيم قدر الصلاة للمروزي ١/٣٦٧، وكتاب الايمان للعدني ص٧٩، والاعتقاد للبيهقي ص٩٥-٩٦، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١/١٢٣، والجامع لابن أبي زيد ص١١٠، ومقدمة الرسالة له ص٧، وشرح الطحاوية ص٣٦٠، والفوائد لابن القيم ص١٠٧، وقطف الثمر لصديق خان ص٨٥، وحد الاسلام للشاذلي ص ٢٠٣-٢٠٤

(٤) الامام أبو القاسم اللالكائي، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الحافظ الفقيه الشافعي، تفقه على أبي حامد الاسفراييني، وصنف كتابا في السنة وهو مطبوع بعنوان شرح أصول اعتقاد أهل السنة، وكتاب رجال الصحيحين، وكتاب في السنن وغير ذلك

انظر البداية والنهاية ١٢/٢٦، وشذرات الذهب ٣/٢١١، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص٤٢١

(٥) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة عقيدة سفيان الثوري ١/١٥١، واعتقاد سفيان بن عيينة ١/١٥٦، واعتقاد الامام أحمد بن حنبل ١/١٥٩ واعتقاد علي بن المديني ١/١٦٦، واعتقاد أبي زرعة وأبي حاتم ١/١٧٦، ١٨١، واعتقاد المزني ٥/ ٨٨٧-٨٨٨

كما أن الامامين الجليلين ، صاحبا أصح كتابين بعد كتاب الله تعالى اللذين اتفقت الامة بأسرها على صحتهما ، قد قالا بهذا القول واستدلا عليه استدلالا واضحا ، فقد رتب الامام البخاري كتاب الايمان من صحيحه ترتيبا ينم عن عقيدته في القول بركنية العمل في الايمان وقد استهل كتاب الايمان بقوله : (وهو قول وفعل ويزيد وينقص) (١) ثم سرد أدلته على ذلك من الكتاب والسنة ، وللامام ابن حجر تعليقات نفيسة على هذا (٢)

أدلة السلف على أن حقيقة الايمان اقرار وتصديق وعمل :-

كما تعلم فان السلف يستمدون أدلتهم قبل كل شيء من الكتاب والسنة وتمشيا مع هذا المبدأ الذي التزم به السلف فقد جاءت أدلتهم على حقيقة الايمان مستمدة من الكتاب والسنة .

* فمن القرآن : استدلوا على أن الايمان ما لزم القلب وهو التصديق الجازم بقوله تعالى : ((يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم - الى قوله - أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الاخرة عذاب عظيم)) (٣)

وقوله تعالى : ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم)) (٤)

وغير ذلك من الايات التي أضافت الايمان الى القلب ، فهذا مما يدل على أن تصديق القلب بالايمان لا ينفع اذا لم يكن القلب مصدقا بما ينطق به اللسان مع العمل (٥)

كما استدلوا على فرض الايمان باللسان :-

---

(١) صحيح البخاري ٧/١

(٢) انظر فتح الباري لابن حجر ٤٦/١-٤٧

(٣) المائدة الاية ٤١

(٤) الحجرات الاية ١٤

(٥) انظر الشريعة للآجري ص ١١٩

بقوله تعالى : ((قولوا آمنا بالله وما انزل الينا ، وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ....)) الاية (١)

وقوله تعالى : ((قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل ....)) الاية (٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ... الحديث)) (٣)

فهذه أدلة على وجوب الايمان نطقا (٤)

كما استدلوا على أن الايمان يطلق على ما فرض على الجوارح تصديقا بما آمن به القلب ونطق به اللسان بقوله تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)) (٥)

وقوله تعالى :((وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)) (في غير موضع من القرآن ومثله فرض الصيام على جميع البدن ومثله فرض الجهاد بالبدن وبجميع الجوارح) (٦)

ومن أهم الادلة على أن الاعمال من الايمان تسميته سبحانه وتعالى للصلاة ايمانا في قوله تعالى :((وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم)) (٧)

واخبار النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الاية نزلت في الذين توفوا من أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وهم على الصلاة الى بيت المقدس(٨)

وأدلة السلف من القرآن على أن الاعمال ركن في الايمان كثيرة

---

(١) البقرة الاية ١٣٦

(٢) آل عمران الاية ٨٤

(٣) سبق تخريجه في الفصل الرابع ص ١٤١

(٤) انظر الشريعة للاجري ص ١٢٠

(٥) الحج الايتان ٧٧ـ٧٨

(٦) الشريعة للاجري ص ١٢٠

(٧) البقرة الاية ١٤٣

(٨) اخرجه البخاري في كتاب الايمان باب الصلاة من الايمان ١/١٥ من حديث البراء بن عازب ، وانظر كلام ابن حجر عليه في الفتح ١/٩٥ـ٩٨

جدا وقد حصرها الاجري ـ رحمه الله ـ في ستة وخمسين موضعا حيث قال: (واعلموا ـرحمنا الله واياكم ـ اني قد تصفحت القرآن فوجدت فيه ما ذكرته في ستة وخمسين موضعا من كتاب الله عز وجل ٠٠٠٠). (١) ثم سردها جميعا (٢)

أما أدلتهم من السنة على دخول الاعمال في الايمان فمنها : حديث وفد عبد القيس الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : ((آمركم بالايمان بالله وحده أتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم)) (٣)

قال شارح الطحاوية بعد استدلاله بهذا الحديث : (ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الاعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب ، لما قد أخبر في مواضع أنه لا بد من ايمان القلب ، فعلم أن هذه مع ايمان القلب هو الايمان ، وأي دليل على أن الاعمال داخلة في مسمى الايمان فوق هذا الدليل؟ فانه فسر الايمان بالاعمال ولم يذكر التصديق ، للعلم بأن هذه الاعمال لا تفيد مع الجحود) (٤) والادلة على ذلك من السنة كثيرة ٠

وخلاصة القول : أن السلف وان قالوا بأن العمل جزء من الايمان وأن التصديق بالقلب والاقرار باللسان أجزاء اخرى ، الا انهم قالوا ايضا بتجزء الايمان فيمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه الآخر ، فيذهب بعض الايمان بترك الاعمال الواجبة ، ما لم يكن مستحلا لتركها وفي بيان ذلك يقول الامام ابن

---

(١) الشريعة للآجري ص ١٢٢

(٢) انظر نفس المصدر ص ١٢٢ـ١٣٢

(٣) اخرجه البخاري في كتاب الايمان ، باب أداء الخمس من الايمان ١٩/١ ومسلم في الايمان ، باب الامر بالايمان بالله تعالى ٤٧/١ـ٤٨، والترمذي في الايمان ، باب ما جاء في اضافة الفرائض الى الايمان ٩/٥ـ١٠ ، وأبو داود في كتاب الاشربة ، باب في الاوعية ٩٤/٤ ، والنسائي في الاشربة ، باب الاخبار التي اعتل بها من أباح شرب المسكر ٨٣٣/٨ ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ٠

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨١

منده (١) : (وقال أهل الجماعة : الايمان هو الطاعات كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، غير أن له أصلا وفرعا ، فأصله : المعرفة بالله والتصديق له وبه وبما جاء من عنده بالقلب واللسان مع الخضوع له ، والحب له والخوف منه والتعظيم له ، مع ترك التكبر والاستنكاف والمعاندة ، فاذا أتى بهذا الاصل فقد دخل في الايمان ولزمه اسمه وأحكامه ، ولا يكون مستكملا له حتى يأتي بفرعه ، وفرعه : المفترض عليه أداء الفرائض واجتناب المحارم وقد جاء الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((الايمان بضع وسبعون أو ستون شعبة أفضلها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان)) (٢)

فجعل الايمان شعبا بعضها باللسان والشفتين ، وبعضها بالقلب وبعضها بسائر الجوارح ، فشهادة أن لا اله الا الله فعل اللسان ، تقول شهدت أشهد شهادة ، والشهادة فعله بالقلب واللسان لا اختلاف بين المسلمين في ذلك ، والحياء في القلب واماطة الاذى عن الطريق فعل سائر الجوارح)(٣)

وبهذا القول يندفع قول من يقول بأن راي السلف هذا يؤدي الى قول الخوارج والمعتزلة في حكم العصاة ومرتكبي الكبائر ، اذ السلف يقفون من رأي الخوارج والمعتزلة موقف المضاد ، لأنّ الخوارج والمعتزلة يعتبرون الايمان كلا لا يتجزأ ، وان تركب من الامور الثلاثة ، لذلك قالوا بتخليد مرتكب الكبيرة في النار ، وسلبوا عنه اسم الايمان ، وأطلق عليه الخوارج الكفر ، والمعتزلة قالوا بأنه في منزلة بين المنزلتين .

---

(١) الحافظ محمد بن اسحاق بن محمد بن يحيى بن منده أبو عبد الله الاصفهاني كان ثبت الحديث والحفظ ،ورحل كثيرا في طلب العلم ،ويعتبر من كبار حفاظ الحديث ،ولد سنة ٣١٠هـ وتوفي سنة ٣٩٥هـ ،من مصنفاته الرد على الجهمية والتوحيد ، والايمان ، وغير ذلك

انظر البداية والنهاية ٣٥٩/١١، وتذكرة الحفاظ ١٠٣١/٣ ، وطبقات الحفاظ ص٤٠٨ والاعلام للزركلي ٢٩/٦

(٢) اخرجه البخاري في كتاب الايمان ،باب امور الايمان ٨/١ ، ومسلم في كتاب الايمان ،باب بيان عدد شعب الايمان ٦٣/١ ، من حديث أبي هريرة بنحوه .

(٣) كتاب الايمان لابن منده ٣٣١/١ـ٣٣٢

الا أن السلف وان جعلوا الاعمال جزأ من الايمان ، فانهم كما قال ابن منده قالوا : اذا أتى بأصل الايمان وهو الاقرار مع التصديق يدخل في اسم الايمان ، ولا يكون مستكملا له حتى يأتي بأعمال الجوارح ، لذا فقد ذهب السلف في حكم مرتكب الكبيرة وفي تارك الاعمال أنه فاسق ، وأنه لا يخرج من الايمان بمجرد فسقه ، ولا يخلد في النار في الآخرة ، بل هو تحت مشيئة الله تعالى ، ان شاء غفر له بفضله ، وان شاء عذبه بعدله .

المبحث الثاني

العلاقة بين الاسلام والايمان عند الباقلاني

العلاقة بين الاسلام والايمان عند الباقلاني :-

يرى الامام الباقلاني أن العلاقة بين الاسلام والايمان هي علاقة تغاير ، فالايمان والاسلام متغايران ذاتا ومفهوما ، ومع اختلاف حقيقتي الايمان والاسلام فعنده أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن .

وفي ذلك يقول : (ويجب أن يعلم أن كل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايمان ، لأنّ معنى الاسلام الانقياد ، ومعنى الايمان التصديق ، ويستحيل أن يكون مصدقا غير منقاد ، ولا يستحيل أن يكون منقادا غير مصدق ، وهذا كما يقال كل نبي صالح وليس كل صالح نبيا) (١)

وقال في موضع آخر :(فان قال قائل : ما الاسلام عندكم ؟ قيل له : الاسلام هو الانقياد والاستسلام ، وكل طاعة انقاد العبد بها لربه تعالى واستسلم فيها لامره فهي اسلام ، والايمان خصلة من خصال الاسلام ، وكل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايمانا)(٢)

وفي الحقيقة أن هذا ما ذهب اليه بعض الاشاعرة وعزاه البيجوري الى جمهور الاشاعرة (٣) وهو رأي امام الحرمين الجويني حيث يقول:(فان قيل : هل تفرقون بين الايمان والاسلام فرقا ؟ قلنا : قد يطلق الاسلام والمراد به الايمان ، وقد يطلق والمراد به الادعان والاستسلام ظاهرا من غير اضمار حقيقة الايمان ، قال الله تبارك وتعالى : ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا)) (٤) فالمؤمن اذا المستسلم وقد لا يكون المستسلم مؤمنا ، فكل مؤمن على ذلك مسلم وليس كل مسلم مؤمنا) (٥)

وقد استدل الامام الباقلاني على مذهبه هذا مفرقا بين الايمان والاسلام وان الايمان غير الاسلام من الكتاب والسنة :

فاستدل من القرآن بقوله تعالى : ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا)) (٦)

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٥٩

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٣٤٧

(٣) انظر شرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص ٤٧

(٤) الحجرات الاية ١٤

(٥) العقيدة النظامية للجويني ص ٨٨

(٦) الحجرات الاية ١٤

قال : (فنفى عنهم الايمان وأثبت أن ذلك منهم اسلام لا ايمان)(١)

وقال ايضا في استدلاله بهذه الآية : (فنفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام وانما أراد بما أثبته الانقياد والاستسلام .... وكل من استسلم لشيء فقد أسلم ، وان كان أكثر ما يستعمل ذلك في المستسلم لله عز وجل ولنبيه صلى الله عليه وسلم) (٢)

كما استدل بقوله تعالى : ((يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين))(٣)

قال : (فغاير بين الاسلام والايمان) (٤)

واستدل من السنة بحديث جبريل (٥)

ووجه استدلاله بهذا الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم فرق هو وجبريل بين الاسلام والايمان عندما سأله جبريل عليه السلام ما الايمان ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره)) ثم قال له فما الاسلام ؟ فقال :((أن تشهد أن لا اله الا الله واني رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وتغتسل من الجنابة)) ثم بين الباقلاني أن هذا واضح في انهما غيرين ، وأن محل الايمان القلب وهو التصديق ومحل الاسلام الجوارح (٦)

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٥٩

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٣٤٩

(٣) الحجرات الاية ١٧

(٤) الانصاف للباقلاني ص ٥٩

(٥) اخرجه مسلم في كتاب الايمان ،باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ٣٦/١-٣٧ والترمذي في كتاب الايمان ،باب في وصف جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم الايمان والاسلام ٨/٥-٩، وأبو داود في السنة ،باب في القدر ٦٩/٥-٧٣، والنسائي في الايمان،باب نعت الاسلام والايمان ٩٧/٨ ، من حديث عمر بن الخطاب ، واخرجه من رواية أبي هريرة البخاري في كتاب الايمان،باب سؤال جبريل عليه السلام عن الايمان ١٨/١ ، ومسلم في كتاب الايمان،باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ٣٩/١-٤٠ ، وابن ماجه في المقدمة باب في الايمان ٢٥/١

(٦) انظر الانصاف للباقلاني ص ٥٩

وقد رد الامام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على كلام الباقلاني السابق في تغاير الاسلام والايمان ، وأدلته على ذلك وقوله بأن كل مؤمن مسلم وليس العكس ، ان هذا كلام باطل ومخالف للكتاب والسنة ومع ذلك فانه متناقض ايضا .

فان الامام الباقلاني جعل الايمان خطة من خصال الاسلام ، وجعل الطاعات اسلام ليس فيها ايمان الا التصديق فقط .

ومما يظهر التناقض في كلامه بأن الايمان خطة من خصال الاسلام أنه يلزم من قوله هذا أن من أتى بالايمان انما أتى بخطة من خصال الاسلام لا بالاسلام الواجب جميعه ، فلا يكون مسلما حتى يأتي بالاسلام كله ، كما لا يكون مؤمنا حتى يأتي بالايمان كله ، فمن أتى ببعض الايمان على كلامه هذا لا يكون مؤمنا ، فيجب عليه أن يقول كذلك في الاسلام وقد قال : أن كل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايمانا ، وهذا ان اراد به أن كل ايمان هو الاسلام الذي أمر الله به ناقض قوله أن الايمان خطة من خصال الاسلام ، فقد جعل الامام الباقلاني الايمان بعض الاسلام ولم يجعله اياه ، وان أراد أن كل ايمان فهو اسلام أي طاعة ، وهو جزء من الاسلام وهذا مراده فيقال له : فعلى هذا يكون الاسلام متعددا بتعدد الطاعات فتكون الشهادتان اسلاما وحدها ، والصلاة وحدها اسلاما وهكذا في كل الطاعات (١)

ويتابع شيخ الاسلام ابن تيمية رده على الباقلاني بقوله :(فان المطم ان كان لا يكون مسلما الا بفعل ما سميتموه اسلاما ، لزم أن يكون الفساق ليسوا مسلمين مع كونهم مؤمنين ، فجعلتم المؤمنين الكاملي الايمان عندكم ليسوا مسلمين ، وهذ شر من قول الكرامية ، ويلزم أن الفساق من أهل القبلة ليسوا مسلمين ، وهذا شر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم ، بل يكون من ترك التطوع ليس مسلما ان جعلتم كل طاعة سواء كانت فرض أو نفلا اسلاما)(٢)
ثم بين ابن تيمية أن قوله هذا على خلاف ما احتج به من قوله تعالى:((قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)) (٣)

---

(١) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٤٨ـ١٤٩

(٢) كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٤٩

(٣) الحجرات الاية ١٤

وقوله انه أثبت لهم الاسلام دون الايمان ، فاخراجه الفساق من اسم الاسلام أعظم شناعة من اخراج المعتزلة لهم من اسم الايمان (١)

ويتابع ابن تيمية رده على الامام الباقلاني بقوله : (وان قلتم بل كل من فعل طاعة سمي مسلما ، لزم أن يكون من فعل طاعة من الطاعات ولم يتكلم بالشهادتين مسلما ، ومن صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه أن يكون مسلما عندكم ، لأن الايمان عندكم اسلام فمن أتى به ، فقد أتى بالاسلام ،ويكون مسلما عندكم من تكلم بالشهادتين وما أتى بشيء من الاعمال) (٢)

وأما بالنسبة لاحتجاج الامام الباقلاني بالاية وهي قوله تعالى ((قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)) (٣) وقول الباقلاني نفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام .

فقد أجابه ابن تيمية على ذلك بأن هذه الاية حجة عليكم لا لكم لأنه لما أثبت لهم الاسلام مع انتفاء الايمان ، دل هذا أن الايمان ليس بجزء من الاسلام ، لأنه لو كان بعضه لما كانوا مسلمين ان لم يأتوا به ، وان أراد بقوله أثبت لهم الاسلام أي اسلاما ما فيلزمه ما تقدم من أن تكون كل طاعة اسلاما لأنّ كل طاعة من الاسلام اسلاما عند السلف (٤)

وأما قول الامام الباقلاني بأن كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنا ، وقوله أن هذا من حيث الاطلاق ، والا فالتفصيل ما ذكرنا من أن الايمان خطة من خصال الاسلام وليس هو جميع الاسلام والدين ، فان الاسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة للامر والايمان أعظم خطة من خصال الاسلام فاسم الاسلام عنده شامل لكل طاعة انقاد بها العبد لربه من ايمان وتصديق وفرض ونفل .

واذا كان هذا قوله ، فقوله كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا يناقض قوله المتقدم فان المسلم هو المطيع لله ، ولا تصح الطاعة الا مع الايمان ، فيمتنع أن يفعل أحد شيئا من الاسلام الا وهو مؤمن ، وعلى هذا فيجب أن يكون كل مسلم مؤمنا ، سواء أريد بالاسلام فعل جميع الطاعات أو

---

(١) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٤٩

(٢) نفس المصدر ص ١٤٩

(٣) الحجرات الاية ١٤

(٤) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٥٠

واحدة منها ، لأن ذلك كله لا يصح الا مع الايمان فتكون الاية حجة عليه لا له (١)

وايضا فان قولة : كل مؤمن مسلم ان اريد بالايمان تصديق القلب فقط فيلزم أن يكون الرجل معلما ولو لم يتكلم بالشهادتين ، وان لم يأتي بشيء من الاعمال ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة ، بل عامة اليهود والنصارى يعلمون أن الرجل لا يكون معلما حتى يأتي بالشهادتين أو ما يقوم مقامهما وقوله كل مؤمن مسلم لا يريد أنه أتى بالشهادتين ولا بشيء من أصول الاسلام الخمسة ، بل أتى بما هو طاعة ، وقد تكون طاعة باطنة وليس هذا هو المسلم المعروف في الكتاب والسنة .

والاعراب انما أتوا باسلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين فأثبت الله لهم الاسلام دون الايمان ، فيظن من لا يعرف حقيقة مذهب السلف أن قوله أن كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمن هو قول السلف الذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة والحقيقة أن بينهما تباين عظيم فان قولهم هذا في غاية المباينة لقول السلف (٢)

مذهب السلف في الصلة بين الايمان والاسلام وأدلتهم على ذلك :-

اختلف السلف - رحمهم الله تعالى - في هذه المسألة نظرا لاختلاف فهمهم لبعض النصوص الواردة في هذا الموضوع وكلامهم يدور حول ثلاثة آراء :-

الرأي الاول : أن الايمان والاسلام مترادفان وأنهما اسمان لمسمى واحد ، وهذا الرأي قال به جماعة من السلف منهم الامام البخاري - رحمه الله - حيث قال في صحيحه باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة وبيان النبي صلى الله عليه وسلم الى أن قال : (جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم فجعل ذلك كله دينا ، وما بين النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس من الايمان وقوله تعالى ((ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه)))(٣)

---

(١) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٥٠

(٢) انظر نفس المصدر ص ١٥١-١٥٢

(٣) صحيح البخاري ١/١٨

ثم ساق حديث جبريل عليه السلام ، من هذا يتبين أن رأي الامام البخاري أن الاسلام والايمان أمر واحد ، وممن قال بهذا الرأي أيضا من السلف الامام ابن منده حيث قال : (ذكر الاخبار الدالة على أن الايمان والاسلام اسمان لمعنى واحد) (١) ثم سرد الادلة على ذلك من الكتاب والسنة (٢)

الرأي الثاني : وهو الذي يقول بالتفريق بين مسمى الاسلام والايمان وأن الاسلام هو الكلمة والايمان العمل ، وقد ذكر هذا الرأي أيضا الامام ابن منده وبين أنه قول الزهري (٣) ، ورواية عن الامام أحمد وقال بهذا القول جماعة من الصحابة والتابعين منهم عبد الله بن عباس والحسن ومحمد بن سيرين (٤)

ولهم أدلتهم على ذلك وأشهر دليل لهم هو قوله تعالى : ((قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ...)) الاية (٥) (٦)

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية ضعف هذين القولين حيث قال :
(والمقصود هنا أن هذين القولين متطرفين ، قول من يقول الاسلام مجرد الكلمة ، والاعمال الظاهرة ليست داخلة في مسمى الايمان ، وقول من يقول مسمى الاسلام والايمان واحد وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل عليه السلام وسائر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم) (٧)

---

(١) الايمان لابن منده ١٢٣/١ ، وانظر نفس المصدر ٣٢١/١

(٢) انظر كتاب الايمان لابن منده ٣٢١/١-٤٢٤

(٣) هو أبو بكر بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري،أحد الاعلام وهو أول من دون الحديث،وأحد كبار الحفاظ والفقهاء،وهو تابعي من أهل المدينة ولد سنة ٥٠هـ وتوفي سنة ١٢٤هـ
انظر وفيات الاعيان ١٧٧/٤-١٧٨ ، والعبر للذهبي ١٢١/١، والاعلام للزركلي ٩٧/٧

(٤) محمد بن سيرين،البصري الانصاري بالولاء أبو بكر،ولد سنة ٣٣هـ وتوفي سنة ١١٠هـ بالبصرة،وكان امام وقته في علوم الدين بالبصرة واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ،وروى الحديث .
انظر وفيات الاعيان ١٨١/٤-١٨٢ ، وتهذيب التهذيب ٢١٤/٩، والاعلام للزركلي١٥٤/٦

(٥) الحجرات الاية ١٤

(٦) انظر الاستدلال بهذه الاية والردعليه في شرح الطحاوية ص ٣٨٥

(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧٥/٧

وإذا كان هذين القولين ضعيفين فما هو المذهب الراجح في هذه المسألة ؟

المذهب الراجح في هذه المسألة هو الذي قرره العلماء وهو الذي تجتمع عليه النصوص الواردة في هذا الموضوع ، أن بين الاسلام والايمان تلازما مع افتراق اسميهما ، وان حالة اقتران الاسلام بالايمان غير حالة افراد أحدهما عن الآخر ، فمثل الاسلام من الايمان كمثل الشهادتين احدهما من الاخرى ، فشهادة أن لا اله الا الله غير شهادة أن محمد رسول الله ، فهما شيئان في الاعيان ، وأحدهما مرتبطة بالاخرى في المعنى والحكم كشيء واحد فكذلك الايمان والاسلام ، فلا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان له لأنه لا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه (١)

قال شارح الطحاوية : (كذلك الاسلام والايمان اذا قرن أحدهما بالآخر كما في قوله تعالى : ((ان المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات) (٢) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ((اللهم لك أسلمت وبك آمنت)) (٣) ، كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر .... واذا انفرد أحدهما ، شمل معنى الآخر وحكمه) (٤) فاذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا .

وقال شيخ الاسلام ايضا : (وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال ، قيل هو الايمان وهما اسمان لمعنى واحد ، وقيل هو الكلمة ..... لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة ، والايمان بالايمان بالاصول الخمسة ، فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما اذا افرد اسم الايمان فانه

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣٣/٧ ، وشرح الطحاوية ص ٣٨٥ـ٣٨٦ ولوامع الانوار للسفاريني ٤٢٩/١

(٢) الاحزاب الاية ٣٥

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب التهجد من الليل ٤١/٢ـ٤٢ ، ومسلم في صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل ٥٣٢/١ـ٥٣٣ ومالك في الموطأ كتاب الدعاء باب ما جاء في الدعاء ٢١٥/١ـ٢١٦، وابن ماجة في كتاب اقامة الصلاة باب ما جاء في الدعاء ٤٣٠/١ـ٤٣١، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٦ ، وانظر لوامع الانوار ٤٢٩/١ـ٤٣٠

يتضمن الاسلام ، واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نازع ،وهذا هو الواجب ، وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن ؟ قد تقدم الكلام فيه...)(١)

ويرى ابن تيمية أن كل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، قال:
(والمشهور عند الجماعة من السلف والخلف أن المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله ، فكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم ، وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف بل وبين فرق الامة كلها ، يقولون : ان المؤمن الذي وعد بالجنة لا بد أن يكون مسلما ،والمسلم الذي وعد بالجنة لا بد أن يكون مؤمنا ، وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الاولين والآخرين فهو مؤمن مسلم)(٢)

مما تقدم يتبين أن لكل من الايمان والاسلام حقيقة شرعية مستقلة كما أن لكل منهما حقيقة لغوية وعلى تقدير أن الايمان يستلزم الاسلام فغاية ما يقال أنهما متلازمان ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، ويراد بهذا أن كل مسلم يدخل الجنة معه الايمان الواجب ، وكل مسلم يثاب على أعماله الحسنة لا بد أن يكون معه أصل الايمان ، فما من مسلم الا وهو مؤمن، وان لم يكن هو الايمان الذي نفاه النبي عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

فاذا ورد أحدهما - أي الاسلام والايمان - منفردا في نص من النصوص لا يمكننا أن نتصوره وحده ، فيكون الآخر داخلا فيه على سبيل التلازم والارتباط فان الاسلام والايمان كمثل الروح والبدن فلا توجد روح الا مع البدن ،ولا يوجد بدن حي الا مع الروح ، وليس أحدهما هو الآخر ، فالايمان كالروح ، فانه قائم بها ومتصل بالبدن والاسلام كالبدن ، ولا يكون البدن حيا الا مع الروح، وهذا هو التلازم لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر (٣)

وهذا الرأي الاخير يعتبر جامعا لكل الآراء التي تقدم ذكرها عن السلف ، وهو أبعد عن التعبيرات التي قد توهم اعتقادا لم يقصده السلف وهو انكار الحقيقة الشرعية المستقلة على الرأي الاول ، وتوهم التغاير بينهما على الرأي الثاني مما يؤدي الى انكار النصوص الشرعية الواردة في بيان المذهب الصحيح الذي نحن بصدده .

---

(١) كتاب الايمان لابن تيمية ص ٢٤٦

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٦٦/٧

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٦٧/٧

وقد استدل اصحاب هذا الرأي بحديث جبريل المشهور (١) ، كما استدلوا بحديث وفد عبد القيس (٢) الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس ((آمركم بالايمان بالله وحده ، أتدرون ما الايمان بالله؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم ...الخ))

ووجه الاستدلال بهذين الحديثين : أن الرسول صلى الله عليه وسلم فرق بين الايمان والاسلام في حديث جبريل ، فجعل الاسلام الاعمال الظاهرة وجعل الايمان الاعتقاد الباطن ، وهذا يدل على اختلافهما من حيث الحقيقة الشرعية

ودفعا لتوهم التباين بينهما فقد فسر الايمان في حديث عبد القيس بما فسر به الاسلام في حديث جبريل .

ودفعا لتوهم التعارض بين الحديثين ، فقد جمع بينهما على أن الايمان والاسلام اذا ذكرا مجتمعين كما في حديث جبريل ، فانه يراد من كل منهما غير ما يراد من الآخر ، فيراد من الايمان ما في القلب من الاعتقاد ويراد من الاسلام الشهادتين والاعمال الظاهرة ، واذا ذكرا مفرقين أي ذكر أحدهما دون الآخر ، دخل الآخر فيه كما في حديث وفد عبد القيس .

بعد هذا يتبين لنا أن الخلاف في هذه المسألة بين السلف خلاف لفظي ، فالكل مجمع على دخول العمل في الايمان .

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٩٤

(٢) تقدم تخريجه ص ١٩٠

المبحث الثالث

زيادة الايمان ونقصانه عند الباقلاني

زيادة الايمان ونقصانه عند الامام الباقلاني :-

الكلام على زيادة الايمان ونقصانه تابع للكلام على حقيقة الايمان فمن قال ان الايمان التصديق بالقلب منع من زيادته و نقصانه ، يقول البغدادي : (كل من قال : أن الطاعات كلها من الايمان أثبت فيه الزيادة والنقصان ، وكل من زعم : أن الايمان هو الاقرار الفرد منع من الزيادة والنقصان فيه ، وأما من قال : انه التصديق بالقلب فقد منعوا من النقصان فيه ، واختلفوا في زيادته فمنهم من منعها ومنهم من أجازها) (١)

وقال صاحب المواقف : (المقصد الثاني : في أن الايمان هل يزيد وينقص ؟ أثبته طائفة ، ونفاه آخرون ، قال الامام الرازي وكثير من المتكلمين: هو فرع تفسير الايمان ، فان قلنا هو التصديق فلا يقبلهما ، لأنّ الواجب هو اليقين وأنه لا يقبل التفاوت لأنّ التفاوت انما هو لاحتمال النقيض وهو ولو بأبعد وجه ينفي اليقين ، وان قلنا هو الاعمال فيقبلهما وهو ظاهر)(٢)

من هذا يتبين أن من قال الايمان هو التصديق ، قال لا يزيد ولا ينقص ، وعللوا ذلك بأن الواجب هو اليقين وهو لا يقبل التفاوت ، فلو تفاوت التصديق وهو اليقين بزيادة ونقصان لانتفى اليقين .

ومن قال هو التصديق مع الاقرار والعمل قال بزيادته ونقصانه فزيادة الايمان ونقصانه فرع عن تصور حقيقة الايمان .

والامام الباقلاني بناء على قوله في حقيقة الايمان أنه التصديق فقط ، فقد أقر أن الزيادة والنقصان في الاعمال والاقوال لا في التصديق القلبي ، ويرى أن الزيادة والنقصان ترجع في الايمان الى أحد أمرين :-

الامر الاول : وهو ما عبر عنه بقوله :(اما أن يكون ذلك — أي الزيادة والنقصان - راجعا الى القول و العمل دون التصديق لأنّ ذلك يتصور فيهما مع بقاء الايمان ، فأما التصديق فمتى انخرم منه أدنى شيء بطل الايمان)(٣)

وقد بين ذلك بأن المصدق بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام اذا ترك الصلاة أو الصيام أو غير ذلك من الواجبات لا يوصف بالكفر بمجرد الترك مع كمال التصديق ، وبالعكس من ذلك لو فعل جميع الطاعات ، وأقر

---

(١) أصول الدين للبغدادي ص ٢٥٢

(٢) المواقف للايجي ص ٣٨٨

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٥٧

بجميع الواجبات الا تحريم الخمر أو نكاح الام ولو لم يفعل واحد منهما فانه يوصف بالكفر ولا ينفعه عمله مع انخرام تصديقه في هذا الحكم الواحد وعلى هذا فيجوز نقص الايمان وزيادته من طريق الاقوال والافعال ولا يجوز من طريق التصديق ٠

واستدل على ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم بين هذا لأصحابه بقوله : ((لا يكمل ايمان العبد حتى يحب لأخيه المسلم الخير)) (١) وبقوله : ((حتى يأمن جاره بوائقه))(٢)

ووجه استدلاله بهذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بهذا الكف عن الاذى ولم يرد التصديق ، لأن المسلم اذا استحل أذى جاره لم يكن له ايمان لا زائد ولا ناقص (٣)

أما الامر الثاني : الذي يجوز فيه زيادة الايمان ونقصانه عند الباقلاني ، أن تكون الزيادة والنقصان راجعة الى الحكم لا الى الصورة ، ويكون ذلك في الجميع من التصديق والاقرار والعمل وبين ذلك بقوله : (الامر الثاني في جواز اطلاق الزيادة والنقصان على الايمان يتصور أيضا أن يكون من حيث الحكم لا من حيث الصورة ، فيكون ذلك في الجميع من التصديق والاقرار والعمل ، ويكون المراد بذلك في الزيادة والنقصان راجعا الى الجزاء والثواب والمدح والثناء دون نقص وزيادة في تصديق من حيث الصورة) ((٤)

وقد بين الباقلاني المراد بقوله من حيث الحكم لا من حيث الصورة بأن (من صلى صلاة الظهر في بلد من البلاد غير مكة والمدينة ، وأتى بجميع شرائطها ، وآخر صلى بمكة والمدينة على الوجه الذي صلى عليه الآخر لا يقال ان احدى الصلاتين أزيد من الاخرى من طريق الصورة والعين ولكن احدهما أزيد من طريق الحكم في تحصيل الفضل والثواب ٠٠٠٠)(٥)

واستدل على ذلك من الكتاب والسنة :-

أما الكتاب : فقوله تعالى : ((لا يستوي من أنفق من قبل الفتح وقاتل اولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير)) (٦)

---

(١) عزاه صاحب الكنز لأبي نعيم في معرفة الصحابة ولم اقف عليه ،انظر كنز العمال ٤٣/١

(٢) اخرجه بنحوه ابن منده في الايمان ٤٤٦/٢وهو حسن،وعزاه في الكنز لابن عساكر انظر كنز العمال ٤١/١،واصله في الصحيح بلفظ "لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ،انظر صحيح مسلم ٦٨/١

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ٥٧ ، (٤) نفس المصدر ص ٥٧-٥٨

(٥) الانصاف للباقلاني ص ٥٨ ، (٦) الحديد الاية ١٠

ووجه استدلاله بهذه الاية أن الله تعالى لم يرد أن تصديق من آمن من قبل الفتح يزيد على تصديق من آمن بعد الفتح ، لأن كل واحد منهما من حيث الصورة مصدق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن تصديق من أنفق من قبل الفتح أكمل من حيث الحكم وأزيد في الثواب والدرجة (١)

واستدل من السنة بقوله صلى الله عليه وسلم : ((لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه))(٢)

ووجه استدلاله بهذا الحديث كما يقول : (معلوم أن انفاق مثل أحد ذهبا ما أنفقه أحد من الصحابة ؛ لكن ايمانهم ونفقتهم في الحكم والثواب والجزاء والدرجة أزيد وأكمل من نفقة غيرهم ، فهي وان كانت في الصورة أكثر لكنها أنقص من حيث الحكم لا من حيث العين) (٣)

والامام الباقلاني بقوله هذا موافق لما عليه بعض الاشاعرة ، وقد رد عليهم صاحب المواقف بعد أن اختار هو القول بأن التصديق يقبل الزيادة والنقصان (٤)

وبين لأصحابه من الاشاعرة القائلين بأن الايمان هو التصديق ولا يزيد ولا ينقص أن قولهم هذا غير صحيح حيث قال : (قولكم الواجب اليقين والتفاوت لا يكون الا لاحتمال النقيض - وهو الشك - قلنا : لا نسلم أن التفاوت لذلك - فقد يجوز أن يكون بالقوة والضعف دون احتمال النقيض - ثم ذلك يقتضي أن يكون ايمان النبي وآحاد الامة سواء وانه باطل اجماعا)(٥)

أما قوله ان زيادة الايمان ونقصانه راجع الى الحكم لا الى

---

(١) انظر الانصاف للباقلاني ص ٥٨

(٢) اخرجه بنحوه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب لو كنت متخذا خليلا ٤/١٩٥ ، ومسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة ٤/١٩٦٧ وأبو داود في السنة باب النهي عن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ٥/٤٥ ، والترمذي في المناقب باب رقم ٥٩ ٥/٦٥٣ ، وابن ماجه في المقدمة ١/٥٧ ، وأحمد في المسند ٣/١١ ، كلهم من طريق الاعمش من رواية أبي سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما .

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٥٨

(٤) المواقف للايجي ص ٣٨٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٨٨

الصورة وهذا أيضا قول بعض الاشاعرة ، فان الامام الباقلاني مع قوله هذا لم يقل كما قال السلف بأن الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية (١)

وذلك لأن الاعمال عنده ليست ايمانا ، ويكفي في الرد عليه ما تقدم من أدلة على دخول العمل في الايمان ، فيكون الايمان يزيد وينقص من جهة العمل وبالتالي تكون زيادة التصديق نتيجة للمحافظة على الاعمال ونقصانه نتيجة للتقصير فيها ، والمعروف من مذهب السلف أن الايمان بشقيه التصديق والعمل يزيد وينقص .

مذهب السف في زيادة الايمان ونقصانه وأدلتهم على ذلك :_

ذهب السلف الى أن الايمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية (٢) ويتفاضل الناس فيه ، فمن أتى بجميع ما أمره الله به من الاقوال والاعمال ، واجتنب جميع ما نهي عنه ، كان أكمل ايمانا ممن فرط في شيء من ذلك ، وعلى هذا فان ايمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أكمل من ايمان غيرهم ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكمل الامة ايمانا بل أكمل البشرية .

والقول بزيادة الايمان ونقصانه هو قول الائمة أحمد بن حنبل والشافعي ، والليث بن سعد (٣) واسحاق بن راهوية .... جميعهم يقولون أن

---

(١) انظر الشرح والابانة لابن بطة ص ١٧٧_ ١٧٨ ، وعقيدة السلف للصابوني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١/١٢٣

(٢) انظر الشرح والابانة لابن بطة ص ١٧٧_١٧٨،وعقيدة السلف للصابوني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١/١٢٣،والجامع للقيرواني ص١١٠،ومقدمة الرسالة له ص ٧،ومجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٥٠٥،وقطف الثمر لصديق خان ص ٨٥

(٣) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي بالولاء أبو الحارث،امام أهل مصر في عصره حديثا وفقها ،أصله من خراسان ومولده في قلقشنده سنة ٩٤هـ وتوفي في مصر سنة ١٧٥هـ،وكان من الكرماء الاجواد

انظر وفيات الاعيان ٤/١٢٧_١٢٨،وتذكرة الحفاظ ١/٢٢٤_٢٢٦،والاعلام للزركلي ٥/٢٤٨

الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية (١)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف ، وهو مذهب أهل الحديث ، وهو المنسوب الى أهل السنة أن الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وأنه يجوز الاستثناء فيه) (٢)

والقول بزيادة الايمان ونقصانه مما أجمع عليه السلف وأصحاب الحديث حيث كانوا يقولون الايمان قول وعمل يزيد وينقص (٣)

وقد نقل بعض الائمة الاجماع على ذلك ومنهم الامام ابن القيم حيث قال :(الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهو اجماع السلف) (٤)

وقدنقل الاجماع على ذلك ايضا الامام الاشعري (٥)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه - أي في الايمان - من الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة ، فروى الناس من وجوه كثيرة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :((الايمان يزيد وينقص قيل له : وما زيادته وما نقصانه ؟ قال: اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحانه فتلك زيادته ، واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه)) (٦)) (٧)

---

(١) انظر لوامع الانوار للسفاريني ٤١٦/١ ،ورسالة أهل الثغر للاشعري ص ٩٣

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٠٥/٧

(٣) انظر شرح أصول الاعتقاد للالكائي ،اعتقاد سفيان الثوري١٥١/١،واعتقاد الامام أحمد ١٥٩/١،واعتقاد علي بن المديني ١٦٧/١،واعتقاد أبي زرعة وأبي حاتم ١٧٦/١،وانظر الايمان لابن منده ٣٤١/٢،والايمان لابن أبي شيبة ص٥٠،والايمان لابي عبيد القاسم بن سلام ص٢٤،والايمان للعدني ص٩٤،والشريعة للاجري ص١١١ والشرح والابانة لابن بطة ص ١٧٧-١٧٨،والايمان لابن تيمية ص ٢١٠،وشرح اصول الاعتقاد ٩٤٨/٥-٩٦٤

(٤) مدارج السالكين لابن القيم ٤٢١/١

(٥) رسالة أهل الثغر للاشعري ص ٩٣

(٦) اخرجه الاجري في الشريعة ص ١١١،وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ٣١٥/١ وذكر ابن حجر أن البغوي أخرج هذا الاثر موقوفا وكذلك ابن شاهين من وجه آخر انظر الاصابة لابن حجر ٣٠/٣

(٧) كتاب الايمان لابن تيمية ص ٢١١

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ((الايمان يزيد وينقص)) (١)

وقال : ان من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد ايمانه أم ينقص ، وان من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أن تأتيه (٢) (٣)

وروى اسماعيل بن عياش عن أبي هريرة قال : ((الايمان يزيد وينقص)) (٤) ، وكلام الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وأئمة السلف في هذا كثير جدا ، وقال الامام البخاري في صحيحه : (باب زيادة الايمان ونقصانه وقول الله تعالى وزدناهم هدى ، ويزداد الذين آمنوا ايمانا)(٥) وسرد الادلة على ذلك ٠

فهذه أقوال وردة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، واضحة الدلالة منطوقا ومفهوما على أنهم كانوا يعتقدون زيادة الايمان ونقصانه ، ولا شك أنهم أعلم بدلائل النصوص الشرعية وأكثر فهما لها ٠

والادلة التى استدل بها السلف على قولهم هذا كثيرة جدا من الكتاب والسنة ٠

فمن الكتاب :ـ أن الزيادة قد نطق بها القرآن الكريم في أكثر من آية ، منها :

قوله تعالى : ((انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا))(٦)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الايات ازداد قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان ما لم يكن حتى كأنه لم يسمع الاية الا حينئذ ، ويحصل في قلبه الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته ، وهذه زيادة

---

(١) اخرجه ابن ماجة في المقدمة ٢٨/١،عن الحارث عن مجاهد عن أبي الدرداء

(٢) ذكره صاحب الكنز وعزاه للاذرعي في كتاب الوسوسة،انظر كنز العمال ٤٠٠/١

(٣) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ٢١١،وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٧ ولوامع الانوار للسفاريني ٤١١/١

(٤) أخرجه الاجري في الشريعة ص ١١١،وابن ماجة في المقدمة ٢٨/١

(٥) صحيح البخاري ١٦/١

(٦) الانفال الاية ٢

الايمان) (١)

وقوله تعالى : ((الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا)) (٢)

وقوله تعالى:((واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا))(٣)

وقوله تعالى:((هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم))(٤)

وقوله تعالى:((ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا))(٥)

وقوله تعالى((ويزيد الله الذين اهتدوا هدى))(٦)

الى غير ذلك من الايات المصرحة بالزيادة (٧)

فهذه أدلة السلف من القرآن الكريم على أن الايمان يزيد بصريح اللفظ ، كما أن هذه الايات تدل بطريق الالتزام أنه ينقص ، لأنّ الشيء الذي تعتريه الزيادة لا بد وأنه ينقص ، والا فلاِ معنى للزيادة اذ لا يمكن أن يتصور شيء قابل للزيادة غير قابل للنقصان ، واذا كانت النصوص تدل على زيادة الايمان ونقصه ، فلا يجوز الخروج على ما صرحت به هذه النصوص ٠

أما من السنة فاستدلوا بأحاديث أهمها قوله صلى الله عليه وسلم ((الايمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق)) (٨)

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الايمان له أعلى وأدنى ، وفي هذا اشارة الى أن مراتبه متفاوتة ٠

---

(١) الايمان لابن تيمية ص ٢١٥

(٢) آل عمران الاية ١٧٣

(٣) التوبة الاية ١٢٤

(٤) الفتح الاية ٤

(٥) المدثر الاية ٣١

(٦)مريم الاية ٧٦

(٧) انظر في الاحتجاج بهذه الايات على مذهب السلف كتاب الايمان لابي عبيد ص ٢٤ ، والشرح والابانة لابن بطة ص ١٧٨ - ١٧٩ ، والشريعة للآجري ص ١١٦ وكتاب الايمان لابن تيمية ص ٢١٥-٢١٦ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤-٣٧٥ ولوامع الانوار ٤١٢/١-٤١٣ ، وقطف الثمر لصديق خان ص ٨٥ ،وشرح اصول الاعتقاد ٨٩٤/٥-٨٩٦

(٨) تقدم تخريجه ص ١٩١

وايضا ما روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان فيخرجون منها قد سودوا فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل , ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية)) (١)

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله غليه وسلم قال:((يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير)) (٢)

وأدلة السلف على زيادة الايمان ونقصانه كثيرة ، نكتفي بما ذكرنا ليكون مثالا واضحا على الادلة التي استدلوا بها وكلها أدلة صحيحة صريحة في الدلالة على الموضوع ·

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب الايمان باب تفاضل أهل الايمان في الاعمال ١١/١

(٢) اخرجه البخاري في كتاب الايمان باب زيادة الايمان ونقصانه ١٦/١

المبحث الرابع

الاستثناء في الايمان عند الباقلاني

الاستثناء في الايمان عند الامام الباقلاني :-

الاستثناء في الايمان هو قول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله ، يرى الامام الباقلاني أن الاستثناء في الايمان يجوز لكن في المستقبل أي فيما يختم للانسان به فيجوز أن يستثنى من أجل أنه لا يدري ما يوافي الله عز وجل به من الايمان لأن خاتمته مجهولة مع رجائه أن تكون حسنة .

أما الاستثناء في الماضي والحال فلا يجوز عنده ، لأن ذلك يكون شكا في الايمان وفي ذلك يقول : (ويجوز أن يقول " أنا مؤمن ان شاء الله " ويعني به في المستقبل ، فأما في الماضي وفي الحال فلا يجوز أن يقول" ان شاء الله " لأن ذلك يكون شكا في الايمان ولأن الاستثناء انما يصح في المستقبل ولا يصح في الماضي) (١)

واستدل على هذا بأن الله تعالى قد بين أن ذلك يصح في المستقبل في قوله لرسوله صلى الله عليه وسلم :((ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله))(٢)وقال صلى الله عليه وسلم : ((انا غدا ان شاء الله نازلون بخيف بني كنانة)) (٣) (٤)

قال : (ولأن المشيئة لله تعالى سابقة لكل موجود فلولا المشيئة لما وجد الموجود ، فكما لا يجوز أن يستثنى في الحال فلا يجوز أن يقطع في المستقبل) (٥)

فهو يرى أن الايمان الذي يتصف به في الحال مقطوع به لا يجوز الاستثناء فيه وانما يجوز الاستثناء في الايمان باعتبار الموافاة في المستقبل .

وهذا ما ذهب اليه أكثر الاشاعرة وقد ذكر البغدادي اختلافهم في ذلك فقال : (والقائلون بأن الايمان هو التصديق من أصحاب الحديث مختلفون في الاستثناء فيه : فمنهم من يقول به وهو اختيار شيخنا أبي سهل

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٦٠

(٢) الكهف الآيتان ٢٣-٢٤

(٣) اخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب في المشيئة والارادة ١٩٤/٨،من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٤) انظر الانصاف للباقلاني ص ٦٠

(٥) نفس المصدر ص ٦٠

محمد بن سليمان الصعلوكي (١) ، وأبي بكر بن الحسين بن فورك ، ومنهم من ينكره وهذا اختيار جماعة من شيوخ عصرنا منهم أبو عبدالله بن مجاهد والقاضي أبو بكر محمد بن الطيب) (٢)

بعد أن عرفنا مذهب الباقلاني في جواز الاستثناء يمكن أن نجيب على قوله بعدم جواز الاستثناء في الحال لأنه أمر مقطوع به فيكون شكا في الايمان ، بأن هذا غير صحيح ، لأنّ الايمان وان كان مقطوعا به فان السلف يرون جواز الاستثناء فيما هو مقطوع به لورود الاستثناء في الامور المقطوع بها — كما سيأتي عند عرض أدلة السلف — ومنها قوله تعالى : ((لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين)) (٣)

وأما ما ذهب اليه من جواز الاستثناء باعتبار الموافاة في المستقبل فان السلف في تجويزهم الاستثناء لم يجوزوه بهذا الاعتبار بل جوزوه باعتبار أن الاعمال جزء منه ، والاعمال لا يستطيع الانسان أن يجزم باستكمالها فيعلق الايمان بهذا الاعتبار ، وفي بيان ذلك يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (ثم أكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء في الايمان ، ويقولون الايمان في الشرع : هو ما يوافي به العبد ربه ، وان كان في اللغة أعم من ذلك ، فجعلوا في مسألة الاستثناء مسمى الايمان ما ادعوا أنه مسماه في الشرع ، وعدلوا عن اللغة ، فهلا فعلوا هذا في الاعمال ودلالة الشرع على أن الاعمال الواجبة من تمام الايمان لاتحصى كثرة ، بخلاف دلالته على أنه يسمى ايمانا ، الا ما مات الرجل عليه ، فانه ليس في الشرع ما يدل على هذا ، وهو قول محدث لم يقله أحد من السلف) (٤)

---

(١) هو الامام أبو سهل محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان العجلي الحنفي الصعلوكي الفقيه الشافعي المفسر المتكلم الاديب ،ولد سنة ٢٩٦هـ وتوفي سنة ٣٦٩ هـ

انظر وفيات الاعيان ٢٠٤/٤،والعبر للذهبي ١٣٢/٢،وطبقات الفقهاء للشيرازي ص١١٥

(٢) أصول الدين للبغدادي ص ٢٥٣

(٣) الفتح الآية ٢٧

(٤) كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٣٧— ١٣٨

ثم بين ابن تيمية أنّ هؤلاء ظنوا أن الذين استثنوا في الايمان من السلف قد استثنوا بهذا الاعتبار ، فان هؤلاء لم يكونوا خبيرين بكلام السلف وكثير منهم لا يكون عارفا حقيقة مذهب السلف ولا ما جاءت به الاثار ، فينصر ما ظهر من قول السلف دون فهم كلامهم ولا باعتباراتهم بل باعتبارات اخر قد تلقوها عن غيرهم من أهل البدع كالجهمية الذي هم أفسد الناس مقالة في الايمان .

فانه لما اشتهر عن أهل السنة انهم يستثنون في الايمان رأى هؤلاء أنه لا يمكن الاستثناء الا اذا جعل الايمان هو ما يموت العبد عليه وما يوافى به ربه ، وظنوا أن الايمان عند السلف هو هذا فأخذوا يقولون هذا عن السلف وهذا لم يقل به أحد من السلف . (١)

وعلى كل فالسلف حينما جوزوا الاستثناء في الايمان لم يجوزه عن شك فيه ، فالانسان يستثني في ايمانه اذا سئل عنه قاصدا تجنب تزكية النفس بادعاء استكمال الايمان ، لأن الايمان عندهم عبارة عن تصديق قلبي مع اقرار واعمال ، والاعمال لا يستطيع الانسان ادعاء استكماله لها ، والا فان الانسان قاطع بتصديقه القلبي ، غير أن الاستثناء ورد في النصوص فيما هو مقطوع به ايضا ، وتحريم الاستثناء كلية بدعوى أنه شك لا يصح لأنّه اذا صح فان معنى ذلك أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم شاكا حين قال في تسليمه على الموتى ((وانا ان شاء الله بكم لاحقون)) وهذا ما لا يقوله مسلم .

فالاستثناء جائز باعتبار الاعمال ، لا في الاعتقاد القلبي ،ولا في القول اللساني ، فان السلف يكرهون الجواب عن سؤال أمؤمن أنت بالاطلاق لان فيه ادعاء استكمال الايمان وتزكية للنفس وهذا لا يجوز . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (وأما مذهب سلف أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه والثوري(٢)

---

(١) انظر الايمان لابن تيمية فيه ص ١٣٨ ، ص ٤١٦

(٢) هو سفيان بن سعد بن مسروق الثوري،من بني ثور من مضر أبو عبد الله كان اماما ومحدثا ،وسيد أهل زمانه في علوم الدين والزهدوالورع،ولد ونشأ في الكوفة سنة ٩٧هـ،وتوفي في البصرة سنة ١٦١هـ

انظر وفيات الاعيان ٣٨٦/٢-٣٩٠،وتهذيب التهذيب ١١١/٤-١١٥،والاعلام للزركلي ١٠٤/٣-١٠٥

وابن عيينة (١) ، وأكثر علماء الكوفة .... وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة فكانوا يستثنون في الايمان ، وهذا متواتر عنهم ، لكن ليس في هؤلاء من قال : استثني لأجل الموافاة ، وأن الايمان انما هو اسم لما يوافي به العبد ربه ، بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء انما هو لأنّ الايمان يتضمن فعل الواجبات ، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك ، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم ..... وأما الموافاة فما علمت أحد من السلف علل بها الاستثناء ، ولكن كثير من المتأخرين يعلل بها .... كأبي الحسن الاشعري وأكثر أصحابه ، لكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث) (٢)

وأيضا فان المؤمن يرجوا اذا عمل عملا أن يتقبل الله منه ويخاف أن لا يكون تقبل منه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه)) (٣) والقبول هو أمر حاضر أو ماضي وهو يرجوه ويخافه لأنّ مآله عاقبة مستقبله قد تكون محمودة أو مذمومة والانسان يخاف ويرجوا فتعلق الخوف والرجاء بالحاضر والماضي لأنّ عاقبته المطلوبة أو المكروهة مستقبلة ، فهو يرجو أن يكون الله تقبل عمله وأثابه عليه فيرحمه في المستقبل ، ويخاف أن يكون الله قد سخط عليه في معصية فيعاقبه عليها ، فالمطلوب بالايمان من السعادة والنجاة هو أمر مستقبل فيستثني في الحاضر بذلك ، لأنّ المطلوب به مستقبل ، ثم كل مطلوب مستقبل تعلق بمشيئة الله لا يكون مستقبل الا بمشيئة الله (٤)

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي أبو محمد من الموالي ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ،وسكن مكة وتوفي بها سنة ١٩٨هـ،كان حافظا ثقة وكان محدثا في الحرم المكي الشريف

انظر وفيات الاعيان ٢/٣٩١_٣٩٣،وتذكرة الحفاظ ١/٢٦٢_٢٦٦،والاعلام للزركلي ٣/١٠٥

(٢) كتاب الايمان لابن تيمية ص ٤١٩

(٣) قطعة من حديث اخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب التوقي على العمل ٢/ ١٤٠٤ ، واحمد في المسند ٦/ ١٥٩،٢٠٥ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٩٣_٣٩٤ وصححه الالباني انظر السلسلة الصحيحه ١/٩٥

(٤)انظر كتاب الايمان لابن تيميه ص ٤٣٢_٤٣٤

مذهب السلف في جواز الاستثناء في الايمان وأدلتهم على ذلك :-

السلف يرون أن الاستثناء في الايمان استحبابا لا ايجابا ، وأن هذا الاستثناء لا يصح أن يكون عن شك في الاعتقاد لأنّ الشاك لم يعد مؤمنا ، وانما يكون هذا الاستثناء من أجل تجنب تزكية الانسان لنفسه بما يوهم استكماله للايمان لأنتزكية النفس لا تجوز لقوله تعالى : ((فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى)) (١) فيستثنى مع الجزم ٠

فيستحب الاستثناء في الايمان ويجوز تركه كأن يقول أنا مؤمن بدون استثناء ، ولكن الاستثناء أولى من تركه لما في الاطلاق من تزكية للنفس بايهامه أنه مستكمل الايمان ، أما اذاقصد بالاطلاق أنه داخل في الايمان لا مستكمل له ، فلا شيء في ذلك ٠

والاستثناء يكون في الاعمال الموجبة لحقيقةالايمان ، لا في الاعتقاد القلبي ولا في القول اللساني لأنّ الانسان يعلم هذين الأمرين قطعا لأنّ التقصير يأتي من جهة العمل ، الذي لا يكتمل ايمانه الا بكمالها ، فلا يدري الانسان لعله قصر في بعضها كما انه لا يستطيع أن يجزم بأنه أتى بجميع ما يطلب منه من أعمال ولا يدري أقبلت منه كلها أم لا ٠

وكذلك السلف يرون كراهة السؤال عن الايمان ، فيكره أن يسأل الرجل غيره أمؤمن أنت والسبب أن هذا السؤال موجه من المرجئة ، لأنّ الانسان اذا أجاب بأنه مؤمن قاصدا بذلك أنه مصدق يكون في هذه حجة للمرجئة على مذهبهم ، فلما علم السلف مقصدهم كرهوا الجواب ٠

لذا فقد سلك السلف في تجويزهم الاستثناء في الايمان وعدمه مسلك الحذر ووضعوا له القيود التي تمنع المسلم من الوقوع في المحذور،وفي بيان مذهبهم يقول الامام الآجري : (من صفة أهل الحق ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الايمان ، لا على جهة الشك ، نعوذ بالله من الشك في الايمان ، ولكن خوف التزكية لأنفسهم من الاستكمال للايمان ، لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الايمان أم لا ؟ وذلك أن أهل العلم من أهل الحق اذا سئلوا : أمؤمن أنت ؟ قال : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار وأشباه هذا والناطق بهذا ، والمصدق به بقلبه مؤمن ، وانما الاستثناء في الايمان لأنه لا يدري : أهو ممن يستوجب ما نعت الله عز وجل به عباده

---

(١) النجم الآية ٣٢

المؤمنين من حقيقة الايمان أم لا ؟ هذا طريق الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم باحسان ، عندهم أن الاستثناء في الاعمال الموجبة لحقيقة الايمان ، والناس عندهم على الظاهر مؤمنون ، به يتوارثون ، وبه يتناكحون وبه تجري أحكام ملة الاسلام ، ولكن الاستثناء منهم على حسب ما بيناه لك وبينه العلماء قبلنا)(١)

وفي الحقيقة أن هذا هو مذهب عامة السلف كما قال الامام أحمد سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما أدركت أحدا الا على الاستثناء (٢)

وقال ابن بطة :(ثم الاستثناء في الايمان وهو أن يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله كذا كان يقول عبد الله بن مسعود وبه أخذت العلماء من بعده مثل علقمة (٣) والاسود (٤) وأبي وائل ، ومسروق (٥) ومنصور (٦) ومغيرة (٧) وابراهيم النخعي (٨) والاعمش (٩) وحماد بن زيد (١٠) ٠٠٠٠٠٠٠

---

(١) الشريعة للآجري ص ١٣٦

(٢) انظر نفس المصدر ص ١٣٧

(٣) علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي،ثقة ثبت،فقيه عابد مات بعد الستين ، انظر تقريب التهذيب ٣١/٢

(٤) الاسود بن يزيد بن قيس النخعي مخضرم ،ثقة ،فقيه مات سنة أربع أو خمس و سبعين ، انظر تقريب التهذيب ٧٧/١

(٥) مسروق بن الاجدع بن مالك الهمذاني الوادعي،أبو عائشة الكوفي،ثقة فقيه عابد ،مخضرم مات سنة اثنتين وستين ، انظر تقريب التهذيب ٢٤٢/٢

(٦) منصور بن المعتمر بن عبد الله السلمي،أبو عتاب،الكوفي،ثقة ثبت،مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، انظر تقريب التهذيب ٢٧٦/٢-٢٧٧

(٧) المغيرة بن مقسم الضبي،أبو هشام الكوفي،الاعمى،ثقة متقن،مات سنة ست وثلاثين ، انظر تقريب التهذيب ٢٧٠/٢

(٨) ابراهيم بن يزيد بن قيس بن الاسود أبو عمران النخعي الفقيه الكوفي من أكابر التابعين صلاحا وصدقا ورواية ،وحفظا للحديث،مات مختفيا من الحجاج سنة ٩٦هـ ، انظر غاية النهاية لابن الجزري٢٩/١ ،والتهذيب١٧٧/١ ،والاعلام للزركلي٨٠/١

(٩) سليمان بن مهران الأسدي بالولاء مولى بني كاهل أبو محمد المعروف بالاعمش تابعي مشهور كان ثقة عالما فاضلا ولد سنة ٦١هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ بالكوفة انظر وفيات الاعيان ٢/٤٠٠-٤٠٣ ،وتذكرة الحفاظ ١٥٤/١ ،والاعلام للزركلي ١٣٥/٣

(١٠) حماد بن زيد بن درهم الازدي أبو اسماعيل البصري،ثقة ثبت فقيه مات سنة تسع وسبعين ، انظر تقريب التهذيب ١٩٧/١

وسفيان الثوري .... وجماعة سواهم يطول الكتاب بذكرهم) (١)

وقال الاوزاعي :(من قال : أنا مؤمن فحسن ، ومن قال : أنا مؤمن ان شاء الله فحسن لقوله تعالى : ((لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين))(٢) وقد علم أنهم داخلون) (٣)

وقال الآجري :(اذا قال لك رجل أمؤمن أنت ؟ فقل : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والموت والبعث من بعد الموت والجنة والنار ، وان أحببت أن لا تجيبه تقول له : سؤالك اياي بدعة فلا أجيبك وان أجبته ، فقلت : أنا مؤمن ان شاء الله على النعت الذي ذكرناه فلا بأس به ، واحذر مناظرة مثل هذا فان هذا عند السلف مذموم)(٤)

أدلة السلف على جواز الاستثناء في الايمان من الكتاب والسنة :-

رأى السلف أنه ورد في القرآن الكريم والسنة نصوص تستثنى في الامور المقطوع بثبوتها ووقوعها منها قوله تعالى : ((لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين))(٥)

فقالوا : لقد استثنى الله عز وجل ، مع أن دخولهم المسجد الحرام أمر واقع مقطوع به لا محالة ، وهذا يدل على جواز الاستثناء فيما هو مقطوع به كالايمان وغيره (٦)

واستدلوا من السنة بقوله صلى الله عليه وسلم : ((اني لأخشاكم

---

(١) الشرح والابانة لابن بطة ص ١٧٩- ١٨٠ ، وانظر قطف الثمر لصديق خان ص ١٤٧

(٢) الفتح الآية ٢٧

(٣) الايمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٢١

(٤) الشريعة للآجري ص ١٤٠

(٥) الفتح الآية ٢٧

(٦) انظر شرح الطحاوية ص ٣٨٩ ، والشريعة للآجري ص ١٣٨ ، والايمان لابن تيمية ص ٤٣٤ ، والشرح والابانة لابن بطة ص ١٨٠ ، وقطف الثمر لصديق خان ص١٤٧ وشرح أصول الاعتقاد للالكائي ٥/٩٦٥-٩٦٦

لله وأتقاكم له ٠٠٠٠ الحديث)) (١) (٢)

كذلك ما رواه الامام مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل الى البقيع فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، واتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وانا ان شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد)) (٣)

فهل كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكا في موته ؟ طبعا لا، اذا فقد استثنى في أمر مقطوع به وواقع لا محالة (٤)

وغير هذا من الادلة الكثيرة التي تدل على مذهب السلف ٠

---

(١) قطعة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الرهط الثلاثة الذين سألوا عن عبادة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقالوها ٠٠٠٠٠٠٠٠٠ أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح ١١٦/٦ ، ومسلم في كتاب النكاح باب استحباب النكاح ١٠٢٠/٢ ، والنسائي في النكاح باب النهي عن التبتل ٥٨/٦-٦٠

(٢) انظر الايمان لابن تيميه ص ٤٣٠ ، والشرح والابانة لابن بطة ص ١٨٠ ،وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٩

(٣)أخرجه مسلم في كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور ٦٦٩/٢ والنسائي في كتاب الجنائز باب الامر بالاستغفار للمؤمنين ٩١/٤-٩٤ ،ومالك في الموطأ في الجنائز باب جامع الجنائز ١ / ٢٤٢، وأحمد في المسند ١٨٠/٦ ٢٢١ ، من حديث عائشة رضي الله عنها

(٤) انظر الشريعة للآجري ص ١٣٨ ، والشرح ولابانة لابن بطة ص ١٨٠ ، ولايمان لابن تيمية ص ٤٣١ ، وشرح الطحاوية ص٣٨٩

المبحث الخامس

طريق ثبوت أسماء الله عز وجل عند الباقلاني

طريــق ثبوت أسمـا ء اللـه عـز وجـل عنـد الباقلانـي :-

تمهيد :- قبل الخوض في صفات الله تعالى لا بد لنا أن نعرض لرأي الامام الباقلاني في أسماء الله تعالى ، ولم أجد للامام الباقلاني كلاما الا في مسألتين سأتناولهما بالبحث ، الاولى طريق ثبوت أسماء الله تعالى والثانية رأيه في حقيقة الاسم والمسمى ، ولنبدأ الحديث عن المسألة الاولى .

لا شك أن ثبوت أسماء الله تعالى يكون بما ورد من أدلة صحيحة صريحة من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع الأمّة ، وهذا اصبح عند أهل السنة من المسلمات التي لا تحتاج الى الجدل ،لكن بعض الفرق المنتسبة الى الاسلام خالفت ذلك ، وأنكرت ثبوت أسماء الله الحسنى ثبوتا حقيقيا ، وقد بين الرازي مجمل الاقوال في أسماء الله تعالى حيث قال : (اعلم أن من الناس من نفى ثبوت الاسماء لله تعالى وسلم ثبوت الصفات ، ومنهم من عكس سلم ثبوت الاسماء وأنكر ثبوت الصفات ، ومنهم من اعترف بالاسماء والصفات لله تعالى) (١)

ومن بين هذه الفرق التي أنكرت ثبوت أسماء الله تعالى فرقة الجهمية الذين ذهبوا الى نفي كل اسم يرون جواز اطلاقه على المخلوق وأثبتوا بعض الاسماء التي يرون أن الله يختص بها ولا يجوز تسمية المخلوق بها كالخالق والمحي والمميت والقادر ، والموجود والفاعل (٢)

والمعروف عنهم ايضا أنهم ينفون الصفات جميعا مع ما نفوه من أسماء الله تعالى .

ومن الملاحظ عليهم أيضا أنهم لم ينكروا اطلاق الألفاظ على الله تعالى ، الا انهم يقولون أن اطلاقها عليه سبحانه وتعالى على سبيل المجاز لا الحقيقة ، ولا شك أن هذا نفي محض .

وقد قال الامام ابن القيم عن أصحاب هذا الرأي : (انهم لا يتمكنون بعد ذلك من اثبات حقيقة لله البتة لا في أسمائه ولا في الاخبار عنه بأفعاله وصفاته) (٣)

---

(١) لوامع البينات شرح أسماء الله الحسنى للرازي ص ٣٢

(٢) انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص١٥٩،ومختصر الصواعق ص ٢٦٦

(٣) مختصر الصواعق المرسلة ص ٢٩٨

أما من أنكر أسماء الله تعالى بألفاظها ومعانيها فهم الملاحدة وهؤلاء لم يعرفوا وجود الله تعالى ، فكيف يعرفون أسماءه ، ووافقهم على ذلك غلاة الفلاسفة والقرامطة (١)

ويبرر هؤلاء الجهمية رأيهم في عدم اثبات الاسماء والصفات لله تعالى على حقيقتها بأن اثباتها على حقيقتها يستلزم تشبيه الله تعالى بخلقه (٢)

ويرد عليهم الامام ابن خزيمة (٣) بقوله : (وليس في تسميتنا بعض الخلق ببعض أسامي الله بموجب عند العقلاء الذين يعقلون عن الله خطابه أن يقال : انكم شبهتم الله بخلقه ، اذ أوقعتم بعض أسامي الله على خلقه ، وهل يمكن عند هؤلاء الجهال حل هذه الاسامي من المصاحف أو محوها من صدور أهل القرآن أو ترك تلاوتها في المحاريب وفي الجدور والبيوت ؟

أليس قد أعلمنا منزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم أنه الملك ؟ وسمى بعض عبيده ملكا ، وخبرنا أنه السلام ، وسمى تحية المؤمنين بينهم سلاما في الدنيا وفي الجنة فقال : ((تحيتهم يوم يلقونه سلام))(٤) ونبينا صلى الله عليه وسلم قد كان يقول بعد فراغه من تسلم الصلاة ((اللهم أنت السلام ومنك السلام)) (٥) وقال عز وجل : ((ولا تقولوا لمن القى

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠٩/٦ (٢) انظر التوحيد لابن خزيمة ٥١/١-٥٩

(٣) محمد بن اسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي الامام أبو بكر بن خزيمة الملقب بامام الائمة ،كان بحرا من بحور العلم ورحل في طلبه كثيرا وصنف الكتب النافعة منها كتاب التوحيد واثبات صفات الله عز وجل ،وكتابه الصحيح - صحيح ابن خزيمة - من أنفع الكتب وأجلها ،ولد وتوفي بنيسابور (٢٢٣هـ - ٣١١هـ) انظر البداية والنهاية ١٦٠/١١ ،والعبر للذهبي ٤٦٢/١ ،وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣١٣ (٤) الاحزاب الآية ٤٤

(٥) قطعة من حديث رواه ابن خزيمة في صحيحه في كتاب الصلاة باب الاستغفار مع الثناء على الله بعد السلام من الصلاة ٣٦٣/١ من حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وأخرجه مسلم في المساجد باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٤١٤/١ ،والنسائي في السهو باب الذكر بعد الاستغفار ٦٩/٣ ،وابن ماجه في الصلاة باب ما يقال بعد التسليم ٢٩٨/١ ،من حديث عائشة وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اليكم السلام لست مؤمنا)) (١) فثبت بخبر الله أن الله هو السلام كما في قوله : ((السلام المؤمن المهيمن)) (٢) وأوقع هذا الاسم على الخالق البارئ ، وأعلمنا عز وجل أنه المؤمن وسمى بعض عباده بالمؤمنين ....)(٣) الى آخر ما قاله - رحمه الله - في الرد على الجهمية .

فاثبات أسماء الله تعالى كما جاءت في نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة هو ما قال به جمهور الأمة وهو أمر واجب .

والمثبتون لأسماء الله تعالى سلكوا في ذلك مسلكين :-

الأول : وهو مذهب الاشعري وجمهور الاشاعرة أنها توقيفية أي أنه لا يجوز أن يطلق عليه تعالى اسما الا بتوقيف من الشارع بأن يرد فيه نص من الكتاب أو السنة أو الاجماع (٤)

والثاني : مذهب المعتزلة وقالوا : بجواز اطلاق الاسماء اللائق معناها به تعالى ، فاذا دل العقل على أن اللفظ يحمل معنى ثابتا في حق الله ، جاز اطلاق ذلك اللفظ على الله تعالى سواء ورد التوقيف به أو لم يرد (٥)

ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات للامام الباقلاني كلاما على طريق اثبات اسماء الله تعالى عنده ، الا انني وجدت في مصنفات بعض العلماء أنه مال الى الرأي الثاني وهو رأي المعتزلة ، فقد قال الرازي بعد ذكر قول المعتزلة : (وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني من أصحابنا) (٦)

وقال الغزالي :(والذي مال اليه القاضي أبو بكر أن ذلك جائز الا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى ،فأما ما لا مانع فانه جائز) (٧)

---

(١) النساء الاية ٩٤

(٢) الحشر الاية ٢٣

(٣) التوحيد لابن خزيمة ٦٥/١-٦٦

(٤) انظر لوامع البينات للرازي ص ٤٠،والمقصد الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي ص ١٣٩ ،والنشر الطيب على شرح الشيخ الطيب للوزاني ٤١٤/١

(٥) انظر لوامع البينات للرازي ص ٤٠، والنشر الطيب للوزاني ٤١٤/١

(٦) لوامع البينات للرازي ص ٤٠

(٧) المقصد الاسنى للغزالي ص ١٣٩، وانظر النشر الطيب للوزاني ٤١٤/١

وعلى هذا ، يظهر أن الباقلاني في هذه المسألة قد وافق المعتزلة ومال الى رأيهم على ما نقل عنه العلماء وان لم يتفق مع المعتزلة في قاعدتهم المعروفة في التحسين والتقبيح العقليين ، اذ المعتزلة قالوا بالحسن والقبح العقليين - كما هو معروف عنهم - فقالوا بجواز ما يستحسن العقل اطلاقه عليه تعالى ولا يستقبحه ، لأن ما لم يكن قبيحا عند العقل جائزا شرعا عندهم .(١)

وقد استدل الاشعري وجمهور أصحابه على أن أسماء الله توقيفية وعلى منع اطلاق ما لم يرد به اذن من الشارع ، بأنه لو جاز الاطلاق من غير اذن من الشارع لجاز اطلاق مرادفات كثيرة للفظ العالم كالعارف والفقيه والداري ، والفاهم ، والموقن ، والعاقل ، والطيب واللبيب ، فلما لم يجز اطلاق هذه المرادفات عليه سبحانه وتعالى دل ذلك على أنه لا يجوز اطلاق ما لم يرد به اذن من الشرع ، فلا يصح تسمية الله تعالى عارفا ولا فقيها ولا داريا ولا فاهما ولا عاقلا ولا فطنا ولا طبيبا ولا لبيبا .

وقد اجابهم الباقلاني على هذا بأن عدم جواز اطلاق هذه الالفاظ على الله تعالى ، ليس لعدم ورود الاذن من الشارع ، بل لأن كل واحد من هذه الألفاظ يدل على ما لا يجوز ثبوته لله تعالى .

وذلك لأن المعرفة : أسم لعلم تقدمته غفلة ، لأن من أدرك شيئا من الحاضر ثم غاب عنه ونسيه ، ثم أدركه ثانيا أو علم أن هذا الذي أدركه ثانيا هو عين الذي أدركه أولا ، فهذا العلم المسمى بالمعرفة .

وأما الفقه : فهو عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه وذلك يشعر بسابقة الجهل .

وأما الدراية : فهي عبارة عن الشعور الذي يحصل بقرب من الحيلة وهو تقديم الفكر والروية ، وأصله مأخوذ من أدريت الصيد اذا احتلت عليه لاقتناصه .

وأما الفهم : فهو صريح في سابقة الجهل .

وأما اليقين : فهو مأخوذ من يقن الماء في الحوض اذا اجتمع فيه ، فاليقين اسم لعلم كان في أول الامر اعتقادا ضعيفا ، ثم اجتمعت عليه الدلائل فتأكد الاعتقاد وصار علما .

---

(١) انظر كتاب الباقلاني وآراؤه الكلاميه ص ٥١٩ .

حقيقة الاسم والمسمى عند الامام الباقلاني :-

تمهيد :- قبل أن أبدأ بعرض رأي الامام الباقلاني في علاقة الاسم بالمسمى أود أن أبين آراء الفرق في هذه المسألة بايجاز :-

بين شيخ الاسلام ابن تيمية هذه المسألة وذكر أن الخلاف فيها وقع بعد عصر الائمة أحمد بن حنبل وغيره ، وذكر أن الخلاف فيها على خمسة أقوال هي :

الاول : أن الاسم غير المسمى ، وهو رأي الجهمية والمعتزلة (١) قال الامام الباقلاني : (وزعمت المعتزلة مع سائر من وافقها من أهل الاهواء والبدع أن الاسم غير المسمى وأنه قول المسمى وتسميته لما سماه) (٢)

وقد بنى الجهمية رأيهم هذا على أن أسماء الله تعالى مخلوقة وما دامت مخلوقة فهي غيره ، وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف لأن أسماء الله من كلامه وكلامه غير مخلوق ، بل هو المتكلم به ، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الاسماء (٣)

وقد تابع المعتزلة والجهمية على هذا الرأي جماعة من الاشاعرة كالغزالي ، والرازي وغيرهما ، قال الرازي : (وقالت المعتزلة أنه - أي الاسم - غير التسمية وغير المسمى ، واختيار الغزالي ..... أن الاسم والتسمية أمور ثلاثة متباينة هو الحق عندي ..... لأن أسماء الله تعالى كثيرة والمسمى ليس بكثير فالاسم غير المسمى) (٤)

ويبين الغزالي مذهبه هذا بقوله : (والحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى وأن هذه ثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة) (٥)

وهذا الرأي هو الذي نصره ابن حزم ودافع عنه كثيرا وشنع على من قال بغيره (٦)

---

(١) انظر أصول الدين للبغدادي ص ١١٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٨٦/٦

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢٧

(٣) انظر قاعدة في الاسم والمسمى ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨٦/٦

(٤) لوامع البينات للرازي ص ٢١-٢٢

(٥) المقصد الاسنى للغزالي ص ٧

(٦) انظر الفصل لابن حزم ١٣٥/٥-١٤٥

المذهب الثاني : أن الاسم عين المسمى أو هو المسمى ، وهو رأي أكثر المنتسبين الى السنة كأبي القاسم الطبري اللالكائي ، وأبي محمد البغوي (١) وهو أحد قولي أصحاب أبي الحسن الاشعري اختاره أبو بكر بن فورك وهو الذي ارتضاه الامام الباقلاني وسيأتي الحديث عن رأيه هذا وأدلته تفصيلا (٢)

المذهب الثالث : التوقف ، والقائل بهذا القول جماعة من السلف يذكر الامام ابن تيمية عنهم انهم توقفوا في ذلك نفيا واثباتا فلا يقولون ان الاسم هو المسمى ولا غيره ، لأنّ كل من الاطلاقين بدعة - في نظرهم - وهو الذي ذكره الخلال عن ابراهيم الحربي (٣) وغيره من الأئمة (٤)

المذهب الرابع : أن الاسم للمسمى ، ويذكر ابن تيمية أنه اختيار أكثر المنتسبين الى السنة من أصحاب أحمد بن حنبل وغيره (٥)

---

(١) الحسين بن مسعود بن محمد ،أبو محمد البغوي،الفقيه الشافعي يعرف بابن الفراء ،ويلقب بمحي السنة ،كان اماما في التفسير والحديث،والفقه ،وكان جليلا ورعا زاهدا ،من مصنفاته معالم التنزيل في التفسير،وشرح السنة ،والتهذيب والمصابيح وغير ذلك،توفي بمرو سنة ٥١٦هـ

انظر طبقات المفسرين للداوودي ١٦١/١-١٦٢ ، وطبقات المفسرين للسيوطي ص٣٨-٣٩ وطبقات الحفاظ له ص ٤٥٦-٤٥٧

(٢) انظر أصول الدين للبغدادي ص ١١٤-١١٥، والفصل لابن حزم ١٣٥/٥،ولوامع البينات للرازي ص ٢١ ،والمقصد الاسنى للغزالي ص ٦،وقاعدة في الاسم والمسمى لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٨٧/٦-١٨٨ ،وشرح الطحاوية ص ٨٠

(٣) ابراهيم بن اسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادي الحربي،أبو اسحاق،من أعلام المحدثين،أصله من مرو،ولد سنة ١٩٨هـ وتوفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ،تفقه على الامام أحمد وصنف كتبا كثيرة منها غريب الحديث،ودلائل النبوة ،وغير ذلك انظر طبقات ابن أبي يعلى ٨٦/١،وتاريخ بغداد ٢٧/٦،والاعلام للزركلي ٣٢/١

(٤) انظر قاعدة في الاسم والمسمى لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٨٧/٦

(٥) نفس المصدر ١٨٧/٦

المذهب الخامس : التفصيل في ذلك ، وهو القول الثاني المشهور عن أبي الحسن الاشعري أن الاسماء ثلاثة أقسام تارة يكون الاسم هو المسمى كأسم الوجود ، وتارة يكون الاسم غير المسمى كأسم الخالق ، وتارة لا يكون هو ولا غيره كأسم العليم والقدير (١)

ولسنا بحاجة الى بيان هذه الآراء تفصيلا وأدلتها ، والذي يهمنا هو رأي الامام الباقلاني في هذه القضية ٠

يرى الامام الباقلاني أن الاسم هو المسمى نفسه ، أو صفة متعلقة به ، وأنه غير التسمية (٢) أي أن الاسم عنده عين المسمى ، قال :(ويجب أن يعلم أن الاسم هو المسمى بعينه وذاته والتسمية الدالة عليه تسمى اسما على سبيل المجاز) (٣)

واستدل على ذلك بأدلة كثيرة من الكتاب ، وتوقيف أهل اللغة ٠

أما أدلته من الكتاب :ـ

١ـ قوله تعالى : ((تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام))(٤)

ووجه استدلاله بالاية أن معناها تبارك ربك ، لأنّ من له الجلال والاكرام والانعام هو الله تعالى (٥)

٢ـ كما استدل بقوله تعالى : ((سبح اسم ربك الاعلى)) (٦)

ووجه استدلاله بالاية : أنه لا يشك عاقل أن المسبح هو الله تعالى لا قول من يقول التسبيح ، لأنّ معنى الآية سبح ربك الاعلى (٧) ٠

٣ـ واستدل بقوله تعالى : ((ما تعبدون من دونه الا أسماءسميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون))(٨)

---

(١) انظر قاعدة في الاسم والمسمى لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٨٨/٦

(٢) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢٧

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٦٠

(٤) الرحمن الآية ٧٨

(٥) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٣٠ ، والانصاف له ص ٦٠

(٦) الاعلى الآية ١

(٧) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢٩، والانصاف له ص ٦٠

(٨) يوسف الآية ٤٠

ووجه استدلاله بهذه الآية : أن الله تعالى أخبر أنهم يعبـــدون أسماء وهم انما عبدوا الاشخاص دون الكلام والقول الذي هو التسمية فدل ذلك على أن الاسم الذي ذكره هو نفس المسمى (١)

٤- واستدل بقوله تعالى : ((ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليـــــه)) (٢)

ووجه استدلاله بالآية الكريمة أن معناها ولا تأكلوا مما لم يذكر الله عليه (٣)

كما استدل بقول أهل اللغة فقال : (والذي يدل على صحة مـــا قلناه أن أهل اللغة الذين هم العمدة قد صرحوا بذلك وقالوا أن الاسم هـــو المسمى نفسه ، وبذلك كان يقول أبو عبيدة (٤) وغيره من أهل اللغة وأنشد أبو عبيدة في ذلك قول لبيد (٥) :

الى الحول ثم اسم السلام عليكمـــا ×××× ومن يبك حولا كاملا فقـــد اعتـــذر

قالوا : وانما أراد باسم السلام السلام نفسه)(٦) لأن اسم السلام هو السلام .

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢٩ ، والانصاف له ص ٦١

(٢) الانعام الآية ١٢١

(٣) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢٩

(٤) معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري أبو عبيدة النحوي من أئمة العلم بالادب واللغة ،مولده بالبصرة سنة ١١٠هـ ووفاته فيها سنة ٢٠٩هـ ،من مصنفاته اعراب القرآن،وطبقات الشعراء وغير ذلك

انظر تهذيب التهذيب ٢٤٦/١٠،ونزهة الالباء ص ٨٤-٩٠،والاعلام للزركلي ٢٧٢/٧

(٥) هو لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري وهو من الشعراء المجيدين والفرسان المشهورين في الجاهلية ،أدرك الاسلام ،وأسلم وحسن اسلامه وترك الشعر فلم يقل في الاسلام الا بيتا واحدا وهو

ما عاقب المرء الكريـــم كنفســه ×××× والمرء يصلحـــه الجليس الصالـــح

وهو أحد أصحاب المعلقات السبع ،عاش عمرا طويلا وتوفي سنة ٤١هـ

انظر شرح المعلقات السبع للزوزاني ص ٨٥،وشرح القصائد العشر للتبريزي ص ١٥٤ ، والاعلام للزركلي ٢٤٠/٥

(٦) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٢٧-٢٢٨

وقد أجاب الامام الباقلاني عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة)) (١) بأن العدد في ذلك راجع الى التسميات التي هي عبارات الاسم ، فالتسمية تدل على الذات حسب دلالة الكتابة على المكتوب ، فأسماؤه العائدة الى نفسه هي هو وما تعلق منها بصفة له ، فهي أسماء له ، فمنها صفات ذات ، ومنها صفات أفعال وبهذا فقد أول الباقلاني قوله تعالى : ((ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها)) (٢) (٣)

بهذا اتضح لنا رأي الباقلاني بأن الاسم هو المسمى وهو - كما ذكرنا - رأي جماعة من السلف منهم اللالكائي والبغوي وهو أحد قولي أصحاب أبي الحسن الاشعري ، وهو الذي اختاره أبو بكر بن فورك ، فمذهب الاشاعرة وعلى رأسهم الامام الباقلاني انهم كانوا يقولون الاسم هو المسمى ويطلقون القول بذلك ومرادهم أن الاسم هو عين المسمى ، فاسم الله عندهم هو الله فالاسم عندهم هو الذات ، وليس هو الدال عليها ، وقد نقل ابن تيمية قول ابن فورك :(أن اسم الشيء هو عينه وذاته ، وتقدير قول القائل بسم الله أفعل أي بالله أفعل ، وأن اسمه هو هو) (٤)

وقد أجاب ابن تيمية عن أدلة الامام الباقلاني وغيره ممن استدل بهذه الأدلة على هذا المذهب .

فأجاب عن استدلالهم بقوله تعالى : ((تبارك اسم ربك)) (٥) أن قوله تبارك أي تفاعل من البركة ، والمعنى أن البركة تكتسب وتنال بذكر اسمه ، فلو كان الاسم معناه المسمى لكان يكفي قوله تبارك ربك فان نفس الاسم عندهم هو نفس الرب ، فيكون في الآية تكرار على قولهم وهذا لا يصح (٦)

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب أن لله مائة اسم الا واحد ١٦٩/٨ ومسلم في كتاب الذكر والدعاء باب في أسماء الله تعالى ٢٠٦٢/٤-٢٠٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) الاعراف الآية ١٨٠

(٣) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٣٢ ،والانصاف له ص ٦١

(٤) قاعدة في الاسم والمسمى لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٩٠/٦

(٥) الرحمن الآية ٧٨

(٦) انظر قاعدة في الاسم والمسمى لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٩٣/٦

وأجاب عن استدلالهم بقوله تعالى : ((ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم)) (١)

بأن المراد ليس كما ذكره (انكم تعبدون الاوثان المسماة ، فان هذا هم معترفون به ، ..... ولكن المراد أنهم سموها آلهة ، واعتقدوا ثبوت الآلهية فيها ، وليس فيها شيء من الآلهية ، فاذا عبدوها معتقدين الهيتها مسمين لها آلهة ، لم يكونوا قد عبدوا الا أسماء ابتدعوها هم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، لأن الله لم يأمر بعبادة هذه ولا جعلها آلهة ...... فتكون عبادتهم لما تصوروه في أنفسهم من معنى الآلهية وعبروا عنه بألسنتهم وذلك أمر موجود في أذهانهم وألسنتهم لا حقيقة له في الخارج ، فما عبدوا الا هذه الاسماء التي تصوروها في أذهانهم وعبروا عن معانيها بألسنتهم وهم لم يقصدوا عبادة الصنم الا لكونه الها عندهم ، والهيته هي في أنفسهم لا في الخارج ، فما عبدوا في الحقيقة الا ذلك الخيال ، الفاسد الذي عبر عنه) (٢)

وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أن السبب الذي أدى بهم الى مجانبة الصواب أنهم لم يقتصروا على أن أسماء الشيء اذا ذكرت في الكلام أن المراد بها المسميات ، من أجل هذا فقد أنكر قولهم جمهور أهل السنة لاشتمال قولهم على أمور باطلة مثل دعواهم أن لفظ اسم الذي هو " أ س م " معناه ذات الشيء نفسه ، وأن الاسماء مثل زيد وعمرو هي التسميات ، ليست هي أسماء المسميات وهذا باطل مخالف لقول الأمة ، (فانهم يقولون أن زيدا وعمرا ونحو ذلك هي أسماء الناس والتسمية ، جعل الشيء اسما لغيره هي مصدر سميته تسمية اذا جعلت له اسما ، والاسم هو القول الدال على المسمى ، ليس الاسم الذي هو لفظ أسم هو المسمى ، بل قد يراد به المسمى ، لأنه حكم عليه ودليل له) (٣)

وهذا يعتبر منهم خرق لما دل عليه الكتاب والسنة وكلام العرب فان العرب لا تعرف التسمية الا النطق بالاسم والتكلم به ، وليست هي الاسم نفسه ، وأسماء الاشياء هي الالفاظ المعرفة بها الدالة عليها ليست هي أعيان الاشياء (٤)

---

(١) يوسف الآية ٤٠

(٢) قاعدة في الاسم والمسمى لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٩٤/٦

(٣) نفس المصدر ١٩١/٦-١٩٢

(٤) انظر نفس المصدر ١٩٥/٦

وكل ما استدلوا به لا دليل لهم فيه ، لأنه لا يوجد دليل واحد يدل على أن اسم الشيء هو ذات الشيء بعينه ، فان هذا لا يتفق مع الواقع.

وأما من أطلق من علماء السنة القول بأن الاسم هو المسمى وهذا الاطلاق موافق لاطلاق الاشاعرة ، الا انه يخالفه في المعنى ، فان من أطلق ذلك من أئمة السنة لم يريدوا أن الاسم هو عين المسمى ، بل أكثر أئمة السلف على انكار هذه المقالة نفيا واثباتا لأنّ كلا من الاطلاقين بدعة تجر الى محاذير كما جرت الجهمية الى القول بخلق الاسماء الحسنى.

والذي يظهر لي أن الرأي السليم والاصح في هذه المسألة هو التفصيل الذي ذهب اليه الامام ابن القيم حيث قال :(فالاسم يراد به المسمى تارة ، ويراد به اللفظ الدال عليه اخرى فاذا قلت : قال الله كذا ، واستوى الله على العرش أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه واذا قلت : الله اسم عربي ، والرحمن اسم عربي والرحمن من اسماء الله ونحو ذلك فالاسم ههنا للمسمى - لأنّ الاسم ههنا هو المراد لا المسمى - ولا يقال غيره لما في لفظ الغير من الاجمال ، فان اريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق ، وان اريد أن الله سبحانه كان ولا اسم حتى خلق لنفسه اسما أو حتى سماه خلقه باسماء من صنعهم ، فهذا من أعظم الضلال والالحاد)(١)في أسماء الله تعالى.

فهذا التفصيل كلام منطقي سليم بعيد عن التعقيد وهو رأي جمهور أهل السنة الذين يقولون أن الاسم للمسمى ، وهم بهذا متفقون مع نصوص الكتاب والسنة والمعقول :

فقد نطق الكتاب والسنة بأن لله تعالى الاسماء الحسنى فقال تعالى ((قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى))(٢) وقال تعالى : ((ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها)) (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم : ((ان لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة)) (٤).

وهذا أسلم الآراء لاستناده الى الدليل من الكتاب والسنة.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ٤٥٧ ،وانظر نص الكلام في شرح الطحاوية ص ٨٠-٨١
(٢) الاسراء الآية ١١٠
(٣) الاعراف الآية ١٨٠
(٤) سبق تخريجه في هذا المبحث ص ٢٢٨

الفصل السادس

مذهب الامام الباقلاني في الصفات العقلية الثبوتية في ضوء عقيدة السلف ٠

وفيه مباحث :-

المبحث الاول :- تقسيم الصفات عند الامام الباقلاني ٠

المبحث الثاني :- علاقة الصفات بالذات عند الامام الباقلاني ٠

المبحث الثالث :- رأي الامام الباقلاني في الصفات العقلية الثبوتية الذاتية والفعلية ٠

المبحث الرابع :- رأي الامام الباقلاني في مسألة كلام الله تعالى ٠

تمهيـــــد :-

الصفات العقلية هي التي يكون طريق ثبوتها لله عز وجل عـــن طريق العقل بالاضافة الى الادلة السمعية الواردة بشأنها ، بمعنى أن اللـه عز وجل وصف نفسه بها ، ووصفه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلفـــت الفرق الاسلامية في هذه الصفات بين مثبت لها ورافض لاثباتها لله عز وجـــل ٠

- أما القائلون بنفي هذه الصفات فمنهم :-

١- الجهمية : اتباع الجهم بن صفوان ، فهؤلاء ينفون عن ذات الله تعالـى صفاته نفيا قاطعا ، فلا يجوز أن يوصف الله تعالى بوصف يجوز اطلاقه على أحد من خلقه ، لأن في ذلك تشبيها لله بخلقه في رأيهم ٠

وقد بين البغدادي قولهم حيث قال : (وامتنع - أي جهم - مـــن وصف الله تعالى بأنه شيء أو حي أو عالم أو مريد ، وقال : لا أصفه بوصـف يجوز اطلاقه على غيره كشيء ، وموجود ، وحي ، وعالم ، ومريد ، ونحو ذلك)(١)

٢- المعتزلة(٢) : لقد أجمعت فرق المعتزلة على نفي صفات الله تعالـــى وقالوا أنه ليس لله عز وجل علم ولا قدرة ، ولا حياة ، ولا سمع ولا بصـــر ولا صفة أزلية (٣) وان أقروا بأن الله تعالى حي عالم قدير ٠

وقال عنهم الشهرستاني : (والذي يعم طائفة المعتزلة مـــن الاعتقاد ، القول بأن الله تعالى قديم ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفـــوا الصفات القديمة أصلا فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاتـــه لا بعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ، ومعان قائمة به ، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الالهية ، واتفقوا على أن

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٥٨ - ١٥٩

(٢) هم أتباع واصل بن عطاء الغزال الذي كان يحضر مجلس الحسن البصري فثارت مسألة هامة وهي حكم مرتكب الكبيرة ، وكانت الخوارج قد قالت بتكفير مرتكب الكبيرة ،وقال أهل السنة بانهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر فقال واصل: أنا أقول ان صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين ، واعتزل مجلس الحسن البصـــري وسمي أتباعه من يومئذ معتزلة

انظر تاريخ المذاهب الاسلامية محمد أبو زهرة ١٣٨/١،والفرق بين الفرق ص٨١-٨٢

(٣) انظر الفرق بين الفرق ص ٧٨،ومقالات الاسلاميين للاشعري ٢٣٥/١-٢٣٦

كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت ..... واتفقوا على أن الارادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته) (١)

فانهم بجعلهم الصفات عين الذات ، قد دخلوا في طائفة النفاة وان قالوا : انه قادر ، حي ، عليم ، موجود ، فقد اختلفوا فيما بينهم في كيفية استحقاقه سبحانه لهذه الصفات .

فقال أبو علي الجبائي (٢) وأبو الهذيل العلاف أن الله سبحانه عالم لذاته مريد لذاته .

وكان أبو الهذيل العلاف يقول : عالم بعلم هوهو ، وهو قادر بقدرة هي هو ، وهو حي بحياة هي هو ، وهكذا كان يقول في باقي الصفات (٣)

وأما أبو هاشم (٤) فقد قال : (هو عالم لذاته ، بمعنى أنه ذو حالة هي صفة معلومة ورّاء كونه ذاتا موجودا ، وانما تعلم الصفة على الذات لا بانفرادها ، فاثبت أحوالا هي صفات لا موجودة ولا معدومة ، ولا معلومة ولا مجهولة ، أي هي على حيالها لا تعرف كذلك بل مع الذات) (٥)

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ٤٤/١-٤٥

(٢) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي،شيخ طائفة الاعتزال،ورئيس علماء الكلام في عصره،واليه نسبت الطائفة الجبائية ،له آراء انفرد بها في المذهب ونسبته الى جبى من قرى البصرى ،ولد سنة ٢٣٥هـ ودفن فيها سنة ٣٠٠هـ له تفسير حافل وله فيه آراء غريبة وقد رد عليه الاشعري فيه .
انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣٤/١١، والاعلام للزركلي ٢٥٦/٦

(٣) انظر شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٨٢-١٨٣،ومقالات الاسلاميين للاشعري ٢٤٤/١-٢٤٥

(٤) أبو هاشم الجبائي عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب ابن أبو علي الجبائي عالم بالكلام من كبار المعتزلة ،له آراء انفرد بها وتبعته فرقة سميت البهشمية نسبة الى كنيته أبي هاشم ،له من المصنفات تذكرة العالم ،والعدة في أصول الفقه ،ولد سنة ٢٤٧هـ وتوفي سنة ٣٢١هـ
انظر البداية والنهاية ١٨٨/١١ ،والاعلام للزركلي ٧/٤

(٥) الملل والنحل للشهرستاني ٨٢/١،وانظر شرح الاصول الخمسة لعبد الجبار ص ١٨٢ .

ومجمل القول أن المعتزلة انكروا أن يكون لله صفات زائدة على ذاته ، وحجتهم على عدم زيادة صفاته تعالى على ذاته ، أنها لو كانت زائدة على الذات فاما أن تكون حادثة فيلزم قيام الحوادث بذاته تعالى ، واما أن تكون قديمة فيلزم تعدد القدماء ، وقد كفر النصارى باثبات ثلاثة فكيف بمن أثبت لله تعالى سبع صفات (١) وبهذا تتعدد الالهة على حد زعمهم وبناء على هذا فقد قالوا بنفي هذه الصفات عن ذاته تعالى ٠

٣- أما الفلاسفة : فانهم ذهبوا الى أن ذات الله واحدة لا كثرة فيها بوجه من الوجوه ، وأن الصفات ليست معاني قائمة بذاته ، بل هي ذاته ٠

وبناء على هذا فقد نفوا الصفات عن ذات الله تعالى بحجة أنه لو ثبتت له هذه الصفات لكان مركبا ، والمركب مفتقر الى غيره فلا يكون واجبا بنفسه ، لأن الله عندهم واحد بسيط لا يجوز التركيب والكثرة في ذاته فهم يتفقون مع المعتزلة في نفي الصفات وان كانت حجتهم مختلفة عن المعتزلة٠

فان الصفات عندهم ترجع الى ذات واحدة ، ويصفون الله بالوجود والوجود لا يوجب الكثرة فيه ، وغير ذلك من الصفات يرون أنها اما سلوب أو اضافات وفي ذلك يقول ابن سينا : (فاذا حققت تكون الصفة الاولى لواجب الوجود أنه موجود ثم الصفات الاخرى يكون بعضها المتعين فيه هذا الوجود مع اضافة ، وبعضها هذا الوجود مع السلب ، وليس واحدمنها موجبا في ذاته كثرة البته ولا مغايرة)(٢)

- المثبتون للصفات : -

١- السلف : جمهور أهل السنة والجماعة ، فقد اتفقوا على اثبات كل ما أثبته الله ورسوله لله تعالى من الصفات ، ونفي كل ما نفاه الله ورسوله فأثبتوا لله تعالى جميع صفاته العليا العقلية منها والخبرية ٠

٢- الاشاعرة : أتباع أبي الحسن الاشعري فقد أقروا بها ، فانهم قد أثبتوا لله تعالى سبع صفات زائدة على ذاته ، وأطلقوا عليها صفات المعاني بمعنى وجود معنى لها زائد على الذات ، وهي الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة والكلام ، والبصر والسمع ٠

ووضعوا لهذه الصفات احكاما أربعة :-

أ- ان هذه الصفات ليست هي الذات بل زائدة عليها ٠

---

(١) انظر شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٨٢ ، ونهاية الاقدام للشهرستاني ص ٢٠١

(٢) النجاة لابن سينا ص ٢٥١

٢- انها قائمة بذاته تعالى ، ولا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته سواء أكان في محل أو في غير محل .

٣- ان هذه الصفات قديمة أزلية ، لأنها لو كانت حادثة لكان سبحانه وتعالى محلا للحوادث وهو محال .

٤- أن الاسامي المشتقة لله تعالى من هذه الصفات صادقة عليه أزلا وأبدا (١)

٣- الكرامية : أتباع أبي محمد بن كرام (٢) ، فقد أثبتوا لله تعالى صفات المعاني زائدة على الذات ، فقالوا : عالم بعلم ، وقادر بقدرة ، وحي بحياة ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، وقالوا : ان جميع هذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى .

يقول البغدادي : (ان ابن كرام وأكثر أتباعه ..... زعموا أنه تعالى لم يزل خالقا رازقا منعما من غير وجود خلق ورزق ونعمة منه وزعموا أنه لم يزل خالقا بخالقية فيه ، ورازقا برازقيه فيه ، وقالوا : ان خالقيته قدرته على الخلق ، ورازقيته قدرته على الرزق)(٣)

وبعد هذا العرض الموجز لاراء المذاهب في اثبات الصفات العقلية ننتقل للموضوع الرئيسي وهو رأي الامام الباقلاني في هذه الصفات وما يتعلق بها من أحكام ، وأدلته على اثباتها .

---

(١) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ٨٤-١٠٠

(٢) أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني،شيخ الطائفةالكرامية وكان مطرودا من سجستان،فخرج منها الى نيسابور في أيام محمد بن طاهر بن عبد الله وتبعه على بدعته من أهل سواد نيسابور شر ذمة من أهل الضلالة،قال عنه البغدادي: انه دعا أتباعه الى تجسيم معبودهم وزعم أن له حد ونهاية،وقد وصف معبوده في بعض كتبه بأنه جوهر كما زعمت النصارى أن الله تعالى جوهر توفي سنة ٢٥٥هـ

انظر الفرق بين الفرق ص١٦١-١٦٢،والملل والنحل للشهرستاني ١٠٨/١،والعبر للذهبي ٣٦٦/١

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٦٤

المبحث الاول

تقسيم الصفات عند الامام الباقلاني في ضوء عقيدة السلف ٠

تقسيم الصفات عند الامام الباقلاني في ضوء عقيدة السلف :-

الصفات تنقسم الى أقسام ، وقبل أن أبدأ ببيان تقسيم الامام الباقلاني للصفات أود أن أبين تقسيم السلف ، ثم تقسيم المتكلمين من الاشاعرة ، حتى يتضح لنا أين يقف تقسيم الباقلاني من هذه المناهج .

أولا : تقسيم السلف : فقد قسموا الصفات الى قسمين :-

١- الصفات الذاتية : وهي الملازمة للذات المقدسة لا تنفك عنها ،وهي ايضا قسمان :-

- الاول: صفات ذات عقلية :كالقدرة ، والارادة ، والعلم ، ... الخ

- والثاني : صفات ذات خبرية : كالوجه ، واليدين ، والعين .... الخ .

٢- الصفات الفعلية : وهي الامور المتعلقة بمشيئة الله وارادته وهي قسمان ايضا :-

- الاول : صفات فعل عقلية : كالخلق،والرزق ، والاعطاء ، والمنع ..... الخ .

- والثاني : صفات فعل خبرية : كالاستواء ، والنزول ، والمجيء ..... الخ (١)

ثانيا : تقسيم الاشاعرة : يقسم الاشاعرة الصفات الى أربعة أقسام ، نفسية ، وسلبية ، ومعاني ، ومعنوية .

١- فالصفة النفسية : (هي كل صفة دل بها الوصف على الذات دون معنى زائد عليها) (٢) وهي الوجود .

٢- والصفة السلبية : وهي التي سلبت أمرا لا يليق بالله سبحانه وتعالى(٣) وهي عندهم خمس صفات ، القدم ، والبقاء ، ومخالفته تعالى للحوادث ، وقيامه بنفسه ، والوحدانية .

٣- صفات المعاني : وهي كل صفة دل الوصف بها على معنى زائد على الذات كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة ، والكلام ، والسمع ، والبصر .

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٥-٧٦،وشرح العقيدة الواسطية للمهراس ص ١٠٥،وشرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١١-١٢، والقواعد المثلى في صفات الله واسمائه الحسنى له ايضا ص ٢٥

(٢) الشامل في أصول الدين للجويني ص ٣٠٨

(٣) انظر حاشية الدسوقي على أم البراهين ص ٩٣

٤- الصفات المعنوية : ويقصد بها الاحوال الثابتة للذات ، اذا قامت بها المعاني ، عند من يثبت الاحوال ، وهي ملازمة للسبع الاولى (وانما سميت هذه الصفات معنوية لأن الاتصاف بها فرع عن الاتصاف بالسبع الاولى فان اتصاف محل من المحال بكونه عالما أو قادرا مثلا لا يصح الا اذا قام به العلم أو القدرة ، وقس على هذا ، فصارت السبع الاولى ، وهي صفات المعاني عللا لهذه أي ملزومة لها فلهذا نسبت هذه الى تلك فقيل فيها صفات معنوية)(١)

والاولى أن يقال أن تأخير المعنوية عن المعاني لكونها مترتبة عليها في التعقل اذ تعقل العالمية مثلا بعد تعقل قيام العلم بالذات وترتيبها عليها في التعقل لا يقتضي المهلة بينهما لأن كل منهما قديم لكنها تقع بعدها في الترتيب لأن مرتبة المعنوية دون رتبة المعاني .

وايضا فتسميتها معنوية نسبة للمعنى الذي هو واحد المعاني (٢)

وبعد هذا العرض الموجز لتقسيم السلف والاشاعرة للصفات ، نود أن نعرف على أي منهج قسم الامام الباقلاني الصفات الالهيـــة .

لقد قسم الامام الباقلاني الصفات الى قسمين لا ثالث لهما :-

١- صفات ذاتية : قال : (وهي التي لم يزل ولا يزال موصوفا بها ، وهي الحياة ،والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والارادة والبقاء ، والوجه والعينان ، واليدان ....) (٣)

٢- وصفات فعله : قال : (كل صفة كان موجودا قبل فعله لها)(٤) كالخلق ، والرزق ، والعدل ، والاحسان ، والتفضل ، والانعام ، والثواب ، والعقاب ، والحشر ، والنشر (٥)

وأرى أن الامام الباقلاني بتقسيمه هذا قد خالف تقسيم المتكلمين ووافق تقسيم السلف للصفات ، لموافقته للادلة ، ولشموله جميع الصفات الالهية غير أني أرى أنه لم يذكر لصفات الفعل ولا صفة خبرية كالاستواء ، والنزول

---

(١) شرح أم البراهين للسنوسي ص٣٢ - ٣٣ ،وانظر حاشية الصاوي على الخريدة البهية ص ٧٧

(٢) انظر حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين ص ١١٨

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٢ ،وانظر الانصاف له ص ٢٦

(٤) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٣ ، وانظر الانصاف له ص٢٦

(٥) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٢-٢٦٣

والمجيء ، مع أنه يثبتها - كما سيأتي معنا - وأقول لعله ذكر بعض الصفات العقلية الاخرى مكتفيا بها للدلالة على التقسيم فحسب لبيان الفرق بين الصفات الفعلية والصفات الذاتية ٠

وعلى كل فان تقسيم الباقلاني للصفات جاء موافقا لتقسيم السلف ولكن هل يتابعهم على ذلك في اثباتها بقسميها - أي العقلية والخبرية - أم أنه ينهج نهج غيره من الاشاعرة من تفويض بعضها وتأويل بعضها الآخر هذا ما سيتضح في هذا الفصل ، وفي الفصل الذي يليه ان شاء الله تعالى ٠

المبحث الثاني

علاقة الصفات بالذات عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف

علاقة الصفات بالذات عند الباقلاني في ضوء عقيدة السلف :-

-١- رأي الباقلاني في زيادة الصفات على الذات :

وهو موضوع هام يجب بحثه ومعرفة رأي الامام الباقلاني فيه لأنه وقع فيه نزاع كبير بين المعتزلة والاشاعرة .

فالمعتزلة اعتبروا أنفسهم أهل التوحيد ، فجردوا ذات الباري سبحانه وتعالى عن الصفات ، وقالوا بنفي الصفات الثبوتية عن ذاته تعالى فقالوا : ان الصفات عين الذات ، فالله عالم بذاته ، قادر بذاته ، ليس له علم وقدرة زائدتين على الذات (١)

وقد استدلوا على نفي الصفات بأنها اما أن تكون حادثة ، فيلزم قيام الحوادث بذاته تعالى ، وهو باطل .

واما أن تكون قديمة ، فيلزم تعدد القدماء ، وقد كفرت النصارى بزيادة قديمين ، فكيف بأكثر من ذلك كاثبات الصفات السبعة وغيرها (٢) فقالوا ان الصفات عين الذات .

وقبل أن أبدأ بعرض رأي الامام الباقلاني في ذلك ورده على المعتزلة أود أن ابين الفرق بين الصفة والموصوف عند الامام الباقلاني .

فقد فرق الامام الباقلاني بين الصفة والوصف والاحرى الموصوف :

فقال : (أما الصفة : فهي الشيء الذي يوجد بالموصوف ، أو يكون له ويكسبه الوصف الذي هو النعت الذي يصدر عن الصفة ، فان كانت مما يوجد تارة ويعدم أخرى ، غيرت حكم الموصوف وصيرته عند وجودها على حكم لم يكن عليه عند عدمها ، وذلك كالسواد والبياض والارادة والكراهة ، والعلم والجهل ، والقدرة والعجز ، وما جرى مجرى ذلك مما يتغير به الموصوف، اذا وجد به ويكسبه حكما لم يكن عليه .

وان كانت الصفة لازمة ، كان حكمها أن تكسب من وجدت به حكما يخالف حكم من ليست له تلك الصفة ، وذلك نحو حياة الباري سبحانه وعلمه وقدرته وكلامه وارادته وما عدا ذلك من صفاته الثابتة) (٣)

---

(١) انظر نهاية الاقدام للشهرستاني ص ١٠٠

(٢) انظر لوامع الانوار للسفاريني ٢١٧/١ ، وانظر شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٨٢ وما بعدها

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢١٣

ثم بين معنى الوصف فقال : (وأما الوصف ، فهو قول الواصف لله تعالى ولغيره بأنه ، عالم ، حي ، قادر ، منعم ، متفضل ، وهذا الوصف الذي هو كلام مسموع ...... غير الصفة القائمة بالله تعالى ، التي لوجودها به يكون عالما قادرا ومريدا) (١)

فالوصف غير الصفة ، لأنّ الوصف قضية يحكم عليها بالصدق أو بالكذب لأنه خبر مسموع ، بينما الصفة اسم مفرد لا تحتمل الصدق والكذب ، (ومن ثم فكل وصف صفة ، أي كل موصوف له صفة ، ولكن ليست كل صفة وصفا) (٢)

وبهذا يهدف الامام الباقلاني الى نقد رأي المعتزلة حين وحدوا بين الذات والصفات ، وجعلوا الصفات عين الذات ، اذ الذات موصوفة بصفات لازمة لها ، وهذا لا يعني أن تكون الذات هي هي الصفات أو أن يكون العلم أو القدرة أو الحياة هي هي الله .

فقد عارض الباقلاني المعتزلة في قولهم أن الصفات هي عين الذات فقرر أن صفات الباري تعالى ليست هي ذاته ، ورد على المعتزلة ردا مفصلا نجمله فيما يلي :-

لقد أنكر المعتزلة أن يكون لله سبحانه وتعالى علم زائد على ذاته ، واحتجوا على ذلك بأنه لو كان له علم ، لوجب أن يكون عرضا حادثا وغيرا له ، وحالا فيه ، وغير متعلق بمعلومين على سبيل التفصيل ، وان يكون واقعا عن ضرورة ، أو استدلال ، وأن يكون مما له ضد ينفيه ، لأنّ كل علم عقلناه في الشاهد فهذه سبيله ، واثبات علم لعالم لا يخرج عن هذا .

رد عليهم الامام الباقلاني : بأن تمسكهم بالشاهد ، والحكم عليه يلزمهم القول باستحالة وجود حي عالم قادر لنفسه ، لأنّهم لم يجدوا في الشاهد انسانا لا من نطفة ، ولا طائر لا من بيضة ، ولا بيضة لا من طائر - لأنّ ذلك أجمع مما لا يوجد ويعقل في الشاهد - فلما لم يجدوا في الشاهد موجودا يوجد من نفسه مستغنيا عن فاعل فلا بد اذا على قياسهم أن يحيلوا وجود الباري عز وجل من نفسه (٣)

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢١٤

(٢) في علم الكلام د/ أحمد محمود صبحي ٢/٧٨-٧٩

(٣) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٠٣

ثم يقال لهم : يلزم من قياسكم الغائب على الشاهد ، أن لا يكون صانع العالم جل ذكره عالما ، لأن العالم في الشاهد لا يكون الا جسما محدثا متميزا حاملا للاعراض مؤتلفا متغايرا متبعضا ذا قلب ورطوبة ، وما أنكرتم أن لا يكون الله سبحانه شيئا موجودا ؟ لأن الشيء المعقول الموجود في الشاهد لا يخرج عن كونه جسما أو جوهرا أو عرضا ، فان مروا على ذلك وتجاهلوا تركوا التوحيد ، وان أبوه تركوا تعلقهم بمجرد الشاهد (١)

فقالوا : ليس علة كون العالم عالما ، أنه جسم أو جوهر أو عرض أو مؤتلف أو متغاير ..... الخ

رد عليهم الامام الباقلاني بقوله : (فكذلك فليس علة كون العلم علما ما وصفتم ، ولا حده ، ولا معنى كونه علما أنه محدث عرض غير العالم وحال فيه ، واستحالة تعلقه بمعلومين ، وأنه ضرورة واستدلال ، لأنه قد يشركه في جميع هذه الاوصاف ما ليس بعلم ، لأن الحركة لا تتعلق بمعلومين وتقع اضطرارا أو اكتسابا ، وهي عرض محدث غير العالم وليست من العلم بسبيل) (٢)

ثم يقال لهم : (فان كنتم على الشاهد تعتمدون وعليه تعولون فأوجبوا اذا كان الباري سبحانه عالما ، أن يكون ذا علم ، وهذا أوجب لأنه غير منتف من أحد طرفيه ، لأن كل عالم منا فهوذو علم ، وكل ذي علم فهو عالم ، وليس كل محدث عرض ، غير العالم وحالا في قلب ، ومما يستحيل تعلقه بمعلومين على وجه التفصيل فهو علم ، فان جاز اثبات عالم ليس بذي علم وان كان ذلك خلاف المعقول ، جاز أيضا اثبات علم ليس بعرض محدث حالا في العالم وغيرا له ، وان كان ذلك خلاف المعروف في الشاهد)(٣)

وهكذا نرى أن الامام الباقلاني قد رد على المعتزلة في قولهم الصفات عين الذات ، وبين لهم أنه يجوز اثبات صفة العلم لله تعالى وان يكون هذا العلم ليس بعرض محدث ولا حالا فيه ولا غيرا وان كان هذا خلاف المعروف في الشاهد وهو الانسان .

والاشاعرة عموما قد صرحوا بأن الصفات زائدة على الذات (٤)

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٠٤

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٠٤

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٤-٢٠٥

(٤) انظر الاقتصاد للغزالي ص ٨٤،ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٠ .

يقول الغزالي : (ان الصفات السبعة التي دللنا عليها ليست هي الذات بل هي زائدة على الذات ، فصانع العالم تعالى عندنا عالم بعلم وحي بحياة وقادر بقدرة ، هكذا في جميع الصفات) (١) وهو رأي الاشاعرة عموما .

غير أني لم أجد في ذلك نصا صريحا عند الامام الباقلاني الا انه بين ان هذه الصفات قائمة بالذات الالهية ، ولا توجد بدونها ، لأنها معاني متعلقة بالذات لا تنفك عنها بحال .

وفسر رأيه بعد ذلك في الصفات بأنها لا يقال هي ذاته ولا هي غيره ، ليست ذاته لأنّ الصفة عنده ليست هي الموصوف - كما تقدم - ولا هي غيره لأنّ الاسم هو المسمى عنده - كما تقدم ايضا -

فبين أن هذه الصفات لا يقال لها هي هو ، ولا يقال أنها غيره واستدل على ذلك (بأنها لو كانت هي هو لكانت خالقة فاعلة مثله فلا يجوز أن يقال هي هو) (٢)

واحتج على صحة ذلك بقول علي رضي الله عنه في القرآن ليس بخالق ولا مخلوق ، لأنه لو جعله خالقا كان الها ثانيا مع الله ، ولو جعله مخلوقا ، لوجب أن يكون الباري موجودا بلا كلام ثم خلق كلامه بعده ، وذلك لا يصح لأنّ صفات ذاته قديمة بقدم ذاته .

ولا يوجد الا خالق قديم بصفات ذاته ، ومخلوق حادث بصفات ذاته التي توجد بعد أن لم تكن ، وتعدم بعد أن كانت ، وصفات القديم لا تتصف بوجود بعد عدم ولا بعدم بعد وجود .

وكذلك فان صفاته تعالى ليست بأغيار له ، ولا هو غير لصفاته ولا صفاته متغايرة في أنفسها ، لأنّ حد الغيرين ما يجوز مفارقة أحدهما للآخر اما بزمان أو بمكان ، وهذا يستحيل تصوره في ذاته تعالى وصفاته (٣)

فالامام الباقلاني يتفق مع السلف والاشاعرة في الرد على الجهمية والمعتزلة والفلاسفة في نفيهم للصفات بحجة أنها عين الذات .

و قد رد عليهم شيخ الاسلام ابن تيمية : (بأن الذات لا تنفك عن الصفات أصلا ، ولا يمكن وجود ذات خالية عن الصفات ، فدعوى المدعي وجود حي

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ٨٤

(٢) الانصاف للباقلاني ص ٣٨

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٨-٣٩

عليم قدير بصير ، بلا حياة ولا علم ولا قدرة ، كدعوى قدرة وعلم وحياة ، لا يكون الموصوف بها حيا عالما قادرا ، بل دعوى شيء موجود قائم بنفسه قديم أو محدث عري عن جميع الصفات ممتنع في صريح العقل) (١)

أما بالنسبة لحجة المعتزلة القائلة بوجوب نفي الصفات منعا من تعدد القدماء .

فيقال لهم : بأن الممنوع هو وجود ذوات قديمة متعددة ، لأن هذا هو الشرك المنافي للتوحيد ،وقد حكم الله تعالى بكفر النصارى لقولهم باثبات ثلاث ذوات مستحقة للعبادة فقالوا : ((ان الله ثالث ثلاثة)) فقال تعالى ردا عليهم : ((وما من اله الا اله واحد)) (٢) ولم يقل وما من قديم الا قديم واحد (٣) فحكم سبحانه بأن الاله واحد ، ونحن نقول بوجود ذات واحدة قديمة ، لها صفات قديمة ومتعددة ، وهذه الصفات قائمة بذاته تعالى ليس لها وجود مستقل عن ذاته .

والقول بزيادة الصفات على الذات هو قول الاشاعرة والسلف جميعا ولكن ليس علي الاطلاق .

يقول ابن تيمية : (ويمتنع حي لا حياة له ، وعليم لا علم له وقدير لا قدرة له ، كما يمتنع ذلك في نظائره ، واذا قال القائل صفاته زائدة على ذاته ، فالمراد أنها زائدة على ما أثبته النفاة ، لا أن في الامر ذاتا مجردة عن الصفات ، وصفات زائدة عليها فان هذا باطل)(٤)

لأن اثبات ذات بدون صفات أمر لا وجود له الا في الاذهان وليس له وجود في الخارج ، فان الذهن قد يفرض المحال ويتخيله ، لأنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج لا يتصف بصفة ثبوتية أصلا ، ففرض ذات بدون صفات فرض ممتنع .

ويقول الامام ابن القيم مقررا أنه لا بد من اثبات صفات الكمال لله تعالى ، وأنها معاني زائدة على الذات (أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله ، فهي مشتقة من الصفات ، فهي أسماء ، وهي أوصاف

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٣٦/٣

(٢) المائدة الاية ٧٣

(٣) انظر المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص ٩٢

(٤) منهاج السنة لابن تيمية ١٧٨/١

وبذلك كانت حسنى ..... ولانها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها) (١)

ويقول شارح الطحاوية ؛ (وكذلك مسألة الصفة : هل هي زائدة على الذات أم لا ؟ لفظها مجمل ، وكذلك لفظ الغير ، فيه اجمال ، فقد يراد به ما ليس هو اياه ، وقد يرادبه ما جاز مفارقته له .

ولهذا كان أئمة السنة - رحمهم الله - لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره ، ولا أنه ليس غيره ، لأنّ اطلاق الاثبات قد يشعر أن ذلك مباينا له ، واطلاق النفي قديشعر بأنه هو هو ، اذ كان لفظ الغير فيه اجمال ، فلا يطلق الا مع البيان والتفصيل .

فان أريد به أن هناك ذاتا مجردة قائمة بنفسها ، منفصلة عن الصفات الزائدة عليها ، فهذا غير صحيح .

وان أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة ، فهذا حق ، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات ، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها وانما يفرض الذهن ذاتا وصفة ، كلا وحده ، ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة ، فان هذا محال ، ولو لم يكن الا صفة الوجود ، فانها لا تنفك عن الموجود ، وان كان الذهن يفرض ذاتا ووجودا يتصور هذا وحده ، وهذا وحده لكن لا ينفك احدهما عن الآخر في الخارج)(٢)

فجمهور العلماء بما فيهم الاشاعرة والباقلاني يرون أن اثبات ذات مجردة عن الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج ، وان كان الذهن قد يفرض المحال ويتخيله وهذا كما يقول السلف غاية التعطيل .

ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات معطلة ، لأنّ حقيقة قولهم تعطيل ذات الاله وان كانوا هم لا يعلمون أن قولهم مستلزم للتعطيل ، بل يصفونه بالوصفين المتناقضين فيقولون هو موجود ليس بموجود ، قديم ،واجب ثم ينفون لوازم وجوده فيكون حقيقة قولهم موجود ليس بموجود ، حق ليس بحق ، خالق ليس بخالق ، فينفون

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢٨/١

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٧٧ـ٧٨

عنه النقيضين) (١)

ويقول ابن تيمية في موضع آخر : (وأسم الرب تعالى اذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما تستحقه من صفات الكمال ، فيمتنع وجود الذات عرية عن صفات الكمال ..... وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى بل هي داخلة في المسمى ، ولكنها زائدة على الذات المجردة التي تثبتها نفاة الصفات ، فأولئك - أي نفاة الصفات - لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء - أي مثبتة الصفات - بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات ، وأما في نفس الامر ، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها ، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال) (٢)

يتبين لنا مما سبق أن السلف يثبتون الصفات زائدة على الذات المجردة عن الصفات ، لا على الذات المتصفة بالصفات ، فاذا كان في معرض الرد على نفاة الصفات نقول الصفات زائدة على الذات ، أما في نفس الامر فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها .

فان أريد بالذات الذات الموجودة في الخارج ، فتلك لا تكون موجودة الا بصفاتها اللازمة ، والصفات ليست زائدة على الذات المتصفة بالصفات وان كانت زائدة على الذات التي يقدر تجردها عن الصفات .

وأما قول الباقلاني ان الصفات لا هي هو ولا هي غيره - كما مر معنا - واستدلاله على ذلك وتفريقه بين الصفة والموصوف فهذا ليس من مذهب السلف ، فقد خالف فيه الامام الباقلاني مذهب السلف ، لأن السلف لا يقولون ان الصفات لا هي هو ولا هي غيره ، لأنه لا يجوز في مسألة الصفات أن نستعمل الالفاظ التي لم يرد لها في الكتاب والسنة اثباتا ولا نفيا .

لهذا يقول ابن تيمية : (فانا لا نطلق على صفاته أنها غيره ولا أنها ليست غيره على ما هو عليه أئمة السلف كالامام أحمد بن حنبل وغيره وهو اختيار حذاق المثبتة كابن كلاب وغيره ، ومنهم من يقول أنا لا أطلق عليها أنها ليست هي هو ولا أطلق عليها أنها ليست غيره ولا أجمع بين السلبين فأقول لا هي هو ولا هي غيره)(٣)

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٢٦/٥-٣٢٧

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية ١٥٤/٢

(٣) رسالة تفصيل الاجمال فيما يجب لله من صفات الكمال لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل المجلد الثاني ص ٢٠٦

لأنّ لفظ الغير فيه اجمال ، لذا فقد حذر السلف من اطلاقه على صفات الله تعالى ، لأنّه من الالفاظ المجملة المبتدعة التي لم يرد لها نص من الكتاب أو السنة .

لهذا كان الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من سلف هذه الأمّة ، لا يطلقون لفظ الغير على صفات الله تعالى لأنّ لفظ الغير يحتمل هذا وهذا ، فكانوا لا يقولون صفات الله تعالى غيره ولا انها ليست غيره ، فلا يقولون كلام الله غير الله ، ولا يقولون ليس غير الله .

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أن للأئمة في لفظ المغايرة ثلاث طرق :-

(أحدها : وهي طريقة الأئمة كالامام أحمد وغيره ، وأظنها قول ابن كلاب وغيره ، وقد ذكر أبو اسحاق الاسفراييني أنهم لا يقولون عن الصفة أنها الموصوف ، ولا يقولون أنها غيره ، ولا يقولون ليست هي الموصوف ولا غيره ، لان لفظ الغير مجمل ، فلا ينفونه عند الاطلاق ولا يثبتونه) (١)

وقال في موضع آخر : (قالت الأئمة لا نقول الصفة هي الموصوف ولا نقول هي غيره ، لأنّا لا نقول : لا هي هو ، ولا هي غيره ، فان لفظ الغير فيه اجمال ، قد يراد به المباين للشيء ، أو ما قارن أحدهما الآخر وما قاربه بوجود أو زمان أو مكان ، ويراد بالغيران : ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر)(٢)

وقال شارح الطحاوية : (ولهذا كان أئمة السنة رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره ، ولا أنه ليس غيره لأن اطلاق الاثبات قد يشعر انه مباين له ، واطلاق النفي قد يشعر بأنه هو هو اذ كان لفظ الغير فيه اجمال ، فلا يطلق الا مع البيان والتفصيل)(٣)

والطريقة الثانية : وهي قول الامام الاشعري الذي قال : أقول مفرقا : ان الصفة ليست هي الموصوف ، وأقول : انها ليست غير الموصوف لكن لا أجمع بين السلبين ، فأقول ليست الموصوف ولا غيره .

---

(١) درء التعارض لابن تيمية ٤٩/٥

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٣٦/٣

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٧٧

والطريقة الثالثة :قول من يجمع بين السلبين فيقول ليست الموصوف ولا غيره ، كما هي طريقة ابن الباقلاني والقاضي أبي يعلى وغيرهما وهؤلاء قد يطلقون القول باثبات قديمين : أحدهما الصفة ، والآخر الموصوف ، واذا احتج عليهم المعتزلة ، بأنه اذا كانت صفاته قديمة وجب اثبات قديمين ، ولو كان علمه قديم لكان الها ، أجابوهم بأن كونهما قديمين لا يوجب تماثلهما كالسواد والبياض اشتركا في كونهما مخالفين للجوهر ، ومع هذا لا يجب تماثلهما ، وأنه ليس معنى القديم معنى الاله (١)

ويعقب ابن تيمية على ذلك بقوله : (فامتنع السلف والائمة من اطلاق لفظ الغير على الصفة نفيا أو اثباتا ، لما في ذلك من الاجمال والتلبيس ، حيث صار الجهمي يقول : القرآن هو الله أو غير الله ، فتارة يعارضونه بعلمه فيقولون علم الله هو الله أو غيره ،ان كان ممن يثبت العلم أو لا يمكنه نفيه .

وتارة يحلون الشبهة ويثبتون خطأ الاطلاقين : النفي والاثبات لما فيه من التلبيس ، بل يستفصل السائل فيقال له : ان أردت بالغير ما يباين الموصوف فالصفة لا تباينه ، فليست غيره ، وان أردت بالغير ما يمكن فهم الموصوف على سبيل الاجمال ، وان لم يكن هو فهو غير بهذا الاعتبار) (٢)

لهذا كان الذي عليه السلف والائمة اذا قيل لهم علم الله أو كلام الله هل هو غير الله أم لا ؟ لم يطلقوا النفي ولا الاثبات ، فانه اذا قيل لهم غيره أوهم أنه مباين لهم ، واذا قيل ليس غيره أوهم انه هو لذلك يستفصل السائل ، فان أراد بقوله غيره أنه منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له أو منفصلة عنه ، وان أراد بالغير أنها ليست هي هو فليست الصفة هي الموصوف ، فهي غيره بهذا الاعتبار (٣)

ويظهر لنا بعد هذا جليا أن الامام الباقلاني قد نهج منهج المتكلمين في القول بأن الصفات لا هي هو ولا هي غيره ، ولم يعتمد على منهج السلف الذي لا يقول في صفات الله تعالى الا بما جاء في الكتاب أو السنة ولايستعمل مثل هذه الالفاظ المجملة المبتدعة من الغيرية والجسمية والعرضية ....الخ

---

(١) انظر درء التعارض لابن تيمية ٤٩/٥-٥٠،وانظر نفس المصدر ٧٠/١٠-٧١ وانظر رسالة تفصيل الاجمال لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل المجلد الثاني ص ٢٠٦

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٣٧/٣

(٣) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية ١٥٤/٢

-٢- رأي الامام الباقلاني في قدم الصفات :-

قلنا أن الامام الباقلاني قسم الصفات الى قسمين :

أ - صفات الذات . ب - صفات الافعال (١)

وقد قسم الامام الباقلاني هذا التقسيم للصفات معتمدا في ذلك على ملازمة هذه الصفات للذات أو انفكاكها عنها ، فاذا كانت الصفة - على رأيه - ملازمة للذات لا تنفك عنها كانت صفة ذات ، واذا كانت تنفك عن الذات في بعض الاوقات وليست ملازمة كانت صفة فعل .

لذا فقد قال عند تعريفه للصفات الذاتية بأنها (التي لم يزل ولا يزال موصوفا بها) (٢) فهي اذا صفات أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى

أما الصفات الفعلية فقد قال في تعريفها : بأنها (كل صفة كان موجودا قبل فعله لها) (٣) مثل الخلق ، والرزق ، والعدل ، والتفضل والانعام ، والاستواء ، والنزول ، والاحياء ، والاماته ، .....الخ

ويرى الامام الباقلاني أن صفات الافعال حادثة وهو يوافق بهذا جمهور الاشاعرة .

واستدل على ذلك بقوله : (وان كان وصف الله سبحانه لنفسه وصفا بصفات أفعاله - نحو قوله تعالى : اني خالق،رازق ، وعادل ومحسن ومتفضل وما جرى مجرى ذلك - كان وصف لنفسه بهذه الصفات غير صفاته التي هي الخلق والرزق والعدل والاحسان والانعام ، لأنّ هذه الصفات هي أفعال الله تعالى ، وهي محدثات ومن صفات أفعاله ، والكلام - الذي هو قوله : اني خالق عادل متفضل محسن - من صفات ذاته ، وصفات الذات غير صفات الافعال)(٤)

والذي يفهم من هذا النص أن نفس كلام الله تعالى اني خالق رازق قديم لأنّه من صفات ذاته ، وأما نفس صفة الخلق والرزق والعدل فهي محدثة لأنّها من صفات أفعاله ، وصفات ذاته غير صفات أفعاله .

مما تقدم يتبين أن الامام الباقلاني يرى أن صفات الافعال محدثة وصفات الذات قديمة .

---

(١) انظر ص ٢٣٦ من هذا المبحث

(٢) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٢ ،وانظر الانصاف له ص ٢٦

(٣) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٣

(٤) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢١٥

فهو يرى أن الصفات العقلية السبعة قديمة وهي : الحياة ، العلم القدرة ، الارادة ، الكلام ،السمع ، البصر .

واستدل على قدمها بقوله : (ويجب أن يعلم أن الباري عالـم بعلم قديم متعلق بجميع المعلومات ، ولا يوصف علمه بأنه مكتسب ولا ضروري وأنه قادر بقدرة قديمة شاملة لجميع المقدورات ، مريد بارادة قديمة متعلقة بجميع الكائنات ، سميع بسمع قديم متعلق بجميع المسموعات ، بصير ببصر متعلق بجميع المبصرات ، متكلم بكلام وكلامه قديم متعلق بجميع المأمورات والمنهيات ، والمخبرات ..... بل صفات ذاته قديمة أزلية لم يزل موصوفا بها ولا يزال كذلك) (١)

بعد هذا تبين أن الامام الباقلاني يرى أن جميع هذه الصفات السبعة الذاتية قديمة ، وأما صفات الافعال فهي محدثة ، وهو بهذا يوافق الاشاعرة (٢)

مناقشة رأي الباقلاني في قدم الصفات وحدوثها :-

أقول : يختلف علماء السلف مع الاشاعرة بعامة والباقلاني بخاصة في قصر القدم للصفات الالهية على سبع صفات فقط ، حيث كل صفات الله تعالى عندهم قديمة .

وهذا القدم أيضا ليس على الاطلاق ، فنوعها قديم الجنس لكن آحادها حادثة ، بمعنى أن الصفة قديمة ، ولكن تحدث في ذاته تعالى آحادها وذلك مثل العلم ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

(فكلام الله تعالى مثلا قديم النوع حادث الآحاد ، ومعنى قديم النوع ان الله لم يزل ولا يزال متكلما ليس الكلام حادثا منه بعد أن لم يكن ، ومعنى حادث الآحاد أن آحاد كلامه أي الكلام المعين المخصوص حادث لأنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما شاء كيف شاء). (٣)

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٣٨

(٢) انظر الارشاد لامام الحرمين ص ١٠٩ ، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص٩١ والشامل في أصول الدين للجويني ص ٥٣٧

(٣) شرح لمعة الاعتقاد للعثيمين ص ٤١-٤٢

فقد ورد عن الامام أحمد بن حنبل أنه قال : (من قال ان الله عز وجل لم يكن موصوفا حتى وصفه الواصفون ، فهو بذلك خارج عن الدين)(١)

ومعنى هذا أن من قال ان الله لم يكن موصوفا بصفاته القديمة حتى وصفه الناس ، فهو بذلك خارج عن الدين لأنه ادعى أن الله عز وجل كان ولا صفة له · ويدل هذا النص على أن صفات الله تعالى قديمة ·

وفي ذلك يقول شارح الطحاوية : (ان الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال ، صفات الذات ، وصفات الافعال ، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده) (٢)

الا أن علماء السلف مع قولهم بقدم الصفات كلها يرون أن هذا لا يتنافى مع قيام الحوادث بذاته تعالى ، بل يرى ابن تيمية أن ذلك ضرورة لا مناص منها لفهم كثير من النصوص التي تدل على حدوث آحاد تلك الصفات بصراحة لا تقبل التأويل ·

ويرى أن الصفات قديمة الا أن منها ما هو قديم الجنس حادث الآحاد بمعنى أن الصفة قديمة ولكن تحدث في ذاته تعالى آحادها وذلك مثل العلم والسمع والبصر والكلام ، لذا فقد جوز السلف قيام الحوادث بذاته تعالى ·

وفي مقابل هذا فقد اتفق المتكلمون من الاشاعرة والمعتزلة والفلاسفة على منع قيام الحوادث بذاته تعالى بحجة أن ما تقوم به الحوادث فهو حادث ·

والذي ألجأهم الى مثل هذا القول استدلالهم على وجود الله تعالى بدليل الحدوث ـ الذي تقدم ذكره ـ ومن مقدماته أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، فطردوا هذا الدليل في صفات الله فقالوا ؛ لو أتصف الرب بالصفات الاختيارية وهي الصفات التي تكون بمشيئة الله وقدرته قالوا : فان ما يكون بمشيئته وقدرته فانه حادث ، والرب تعالى لا تقوم به الحوادث ، ويترجمون الصفات الاختيارية بمسألة حلول الحوادث حيث قالوا :

---

(١) اعتقاد الامام أحمد لابي الفضل التميمي ملحق بطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢/٢٩٣

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٧٥

في مسألة الكلام : (فلو اتصف الرب به لقامت به الحوادث ، قالوا : ولو قامت به الحوادث لم يخل منها ، وما لا يخل عن الحوادث فهو حادث)(١)

فاستدلالهم بدليل الحدوث ألجأهم الى نفي قيام الافعال والصفات الاختيارية بذاته تعالى ، لأنه في نظرهم وحسب استدلالهم بدليل الحدوث ، لو كانت الافعال المتجددة الحادثة قائمة بذاته تعالى ، ولا يؤدي ذلك الى حدوثه لأنه قديم لانتقدت دلالة حدوث العالم ، اذ هي قائمة على حدوث الجسم فلو كان ثم جسم قديم لانتقض بذلك أن يكون كل جسم حادث ، وينسد بذلك الطريق الى اثبات الصانع على حد زعمهم .

كما بين ذلك ابن تيمية ، بأنهم التزموا لاجلها نفي صفات الرب مطلقا أو نفي بعضها ، لأن الدال عندهم على حدوث هذه الاشياء هو قيام الصفات بها ، والدليل يجب طرده ، فالتزموا حدوث كل موصوف بصفة قائمة به ،ولهذا التزموا انكار علوه على العرش الى مثل ذلك من اللوازم التي التزمها من طرد مقدمات هذا الدليل الذي جعله المعتزلة ومن اتبعهم أصل دينهم (٢)

ويذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أن القول بحلول الحوادث بذاته تعالى (هو مذهب أكثر أهل الحديث ، بل قول أئمة أهل الحديث وهو الذي نقلوه عن سلف الامة وأئمتها ، وكثير من الفقهاء والصوفية أو أكثرهم وفيهم من الطوائف الاربعة - الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة - من لا يحصى عددهم الا الله تعالى)(٣)

فابن تيمية يرى أن القول بحلول الحوادث بذاته تعالى هو مذهب السلف ، واستدل على ذلك بقول الامام أحمد وغيره لم يزل الله متكلما اذا شاء ، فانه اذا كان كلامه وهو صفة قائمة به متعلقا بمشيئته واختياره دل ذلك على جواز قيام الحوادث بذاته لأن ما يتعلق بالمشيئة والاختيار لا يكون الا حادثا (٤)

ولما كان القول بقدم جنس الصفات والافعال مع حدوث آحادها وخروجها الى

---

(١) رسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل ٧/٢

(٢) انظر درء التعارض لابن تيمية ٤١/١

(٣) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ٣٠٣/١-٣٠٤

(٤) انظر ابن تيمية السلفي د/ محمد خليل هراس ص ١٢٥

الوجود شيئا بعد شيء الا الى أول مستلزما للتسلسل فقد جوزه ابن تيمية - رحمه الله - في الماضي والمستقبل وهذا هو المذهب الراجح الذي تثبت به صفات الله تعالى أزلا وأبدا ، وهذا رأي علماء السلف لانهم لا يقولون بقدم الصفات مطلقا ، كما لا يقولون بحدوثها مطلقا ، بل انها مترددة بين القدم والحدوث ، فنوعها هو قديم ، وآحادها هي الحادثة - كما مر معنا - فالرب تعالى لم يزل متكلما اذا شاء والفعل من لوازم الحياة ، فالرب لم يزل حيا فعالا لما يريد .

والاشاعرة بناء على قولهم بقدم صفات الذات ، وحدوث صفات الفعل منعوا تسلسل الحوادث في جانب الماضي .

وقد بين ابن تيمية آراء الفرق في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل وهو عبارة عن تسلسل الآثار كوجود حادث بعد حادث . وهذا فيه ثلاثة أقوال :-

١- منعه في الماضي والمستقبل جميعا وهو قول الجهم بن صفوان

٢- منعه في الماضي فقط وهو قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة والاشاعرة .

٣- تجويزه في الماضي والمستقبل ، وهو مذهب أكثر أهل الحديث والفلاسفة وهو الذي ارتضاه ابن تيمية - رحمه الله تعالى - (١)

ولكل فريق أدلته على هذا (٢) والذي نرى أنه الراجح هو المذهب الثالث الذي يؤدي الى اثبات كمالات الله عز وجل واثبات صفاته وأفعاله الاختيارية ، فانه سبحانه لم يزل حيا ، والفعل من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلا لما يريد .

ويفصل شارح العقيدة الطحاوية مسألة حلول الحوادث التي نفاها علماء الكلام بقوله : (وحلول الحوادث بالرب تعالى ، المنفي في علم الكلام المذموم ، لم يرد نفيه ولا اثباته في كتاب ولا سنة ، وفيه اجمال فان اريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته

---

(١) انظر منهاج السنة لابن تيمية ١٢١/١،وانظر شرح الطحاوية ص ٨٣ - ٨٤

(٢) استدل المتكلمون على بطلان تسلسل الحوادث في جانب الماضي بعدة أدلة أهمها برهان التطبيق ،وقد أبطله الامام ابن تيمية في أكثر من موضع من كتبه منها منهاج السنة النبوية ١٢٠/١-١٢٣

المحدثة ، أو لا يحصل له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفي صحيح .

وان أريد به نفي الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء اذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ولايوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان - كما يليق بجلاله وعظمته - فهذا نفي باطل .

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث ، فيسلم السني للمتكلم ذلك على ظن أنه نفي عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله ، فاذا سلم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية ، وصفات الفعل ، وهو غير لازم له وانما أتي السني من تسليم هذا النفي المجمل)(١)

فلفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به النقائص والاعراض والله منزه عن ذلك .

وقد يراد به ما يقوم به تعالى مما يشاء ويقدر عليه من كلامه وافعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة فهذا حق .

وفي الحقيقة قد تمخض عن هذا القول الذي قاله جمهور المتكلمين من الاشاعرة والمعتزلة ، وهو نفيهم قيام الحوادث بذاته تعالى ، مشكلة خطيرة وهي نفيهم قيام الافعال والصفات الاختيارية بذاته تعالى بناء على قولهم بعدم حلول الحوادث بذاته تعالى .

الصفات الفعلية الاختيارية :- وهي الامور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته ، مثل كلامه ، وسمعه ، وبصره ، وارادته ومحبته ، ورضاه ، ورحمته ، وغضبه ، وسخطه ، ومثل خلقه واحسانه ، وعدله ومثل استوائه ، ومجيئه ، واتيانه ، ونزوله ، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة المشرفة (٢)

والافعال نوعان : متعد ولازم

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٧٦-٧٧

(٢) انظر رسالة في الصفاة الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ٣ ، وشرح الرسالة التدمرية للشيخ فالح بن مهدي ص ٢٦٧

أ ـ فالمتعدي : مثل الخلق والاعطاء ..... ونحو ذلك

ب ـ واللازم : مثل الاستواء والنزول والمجيء والاتيان ونحو ذلك (١)

وقد بين ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أقوال الفرق في الصفات الفعلية الاختيارية منهم :

١ـ الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم يقولون : لا يقوم بذاته شيء من هذه الصفات ، ولا غيرها (٢) فقالوا لا يقوم به صفة ولا فعل وعبروا عن ذلك بأنه لا تقوم به الاعراض والحوادث (٣)

والجهمية والمعتزلة بنو هذا على أصلهم الفاسد من أن الرب لا يقوم به صفة ، لأنّ ذلك بزعمهم ، يستلزم التجسيم والتشبيه الممتنع ، لأنّ الصفة عرض ، والعرض لا يقوم الا بجسم (٤)

قال ابن تيمية : (ولا ريب أن النفاة نوعان : أحدهما : وهم الاصل المعتزلة ونحوهم من الجهمية فهؤلاء ينفون الصفات مطلقا ، وحجتهم على نفي قيام الافعال به من جنس حجتهم على نفي قيام الصفات به ، وهم يسوون في النفي بين هذا وهذا كما صرحوا بذلك وليس لهم حجة تختص بنفس قيام الحوادث) (٥)

وان كان أصل قولهم في هذا هو دليل الحدوث ، وقولهم ان ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، لامتناع حوادث لا أول لها .

وهذا الاصل الذي يحتجون به ليس معهم به دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر عن الصحابة والتابعين ، بل الكتاب والسنة والاثار عن الصحابة والتابعين بخلاف ذلك ، والنص والعقل دل على أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق حادث بعد أن لم يكن ، ولكن لا يلزم مع حدوث كل فرد فرد مع كون الحوادث متعاقبة حدوث النوع (٦)

---

(١) انظر رسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ٢٢ ، ومجموع الفتاوى له ٢٣٣/٦

(٢) انظر رسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص٣ ، ومجموع الفتاوى ٢١٧/٦

(٣) انظر منهاج السنة لابن تيمية ١١٨/١

(٤) انظر رسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ٧

(٥) شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ص ٧٠

(٦) انظر منهاج السنة لابن تيمية ١١٨/١

٢ـ أما القول الثاني : هو قول الكلابية أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب ومن تبعه كالاشعري ، فقالوا : بنفي قيام الافعال الاختيارية بذاته تعالى ، ووافقهم على ذلك الحارث المحاسبي وبسبب اتباعه مذهب ابن كلاب هجره الامام أحمد وقيل انه تاب منه ورجع عن ذلك ، وصار النزاع في هذا الاصل بين طوائف الفقهاء فما من طائفة من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الا وفيهم من يقول بقول ابن كلاب في هذا الاصل كأبي الحسن التميمي والقاضي أبي بكر الباقلاني ، والقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي الجويني وابن عقيل ، وابن الزاغوني وغيرهم (١)

من أجل هذا الاصل وهو قول الباقلاني بنفي قيام الصفات والافعال الاختيارية بذاته تعالى حمل عليه الشيخ أبي حامد الاسفراييني حملة شديدة فقد كان شديد الانكار على الباقلاني وأصحاب الكلام عموما .

وكان الشيخ أبي حامد الاسفراييني يقول لاصحابه اشهدوا علي بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قاله الامام أحمد لا كما يقوله الباقلاني وكان يتبرأ من مذهب الباقلاني في كلام الله تعالى .

وينهي تلاميذه من الدخول على ابن الباقلاني وسماع كلامه وقيل عن بعض العلماء والائمة في بغداد أن الباقلاني كان يخرج الى الحمام متبرقعا خوفا من الشيخ أبي حامد الاسفراييني .

وأصل هذا اتباعه لابن كلاب في مسألة الافعال الاختيارية ، فقد كان السلف يثبتون ما يقوم بذاته تعالى من الصفات والافعال مطلقا والجهمية والمعتزلة وغيرهم ينكرون ذلك مطلقا ، فوافق ابن كلاب السلف والائمة في اثبات الصفات ، ووافق الجهمية في نفي قيام الافعال به تعالى وما يتعلق بمشيئته وقدرته .

ولهذا وغيره تكلم الناس فيمن اتبعه كالقلانسي والاشعري بأن في أقوالهم بقايا من الاعتزال ، وهذه البقايا أصلها هو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركات ، فان هذا الاصل هو الذي أوقع المعتزلة في نفي الصفات والافعال ، والذي وقع للباقلاني من الاسفراييني وغيره هو بسبب قوله بهذا الاصل مع ما في الباقلاني من الفضائل العظيمة والمحاسن الكثيرة والرد على الزنادقة والملحدين وأهل البدع ، حتى انه لم يكن في المنتسبين

---

(١) انظر منهاج السنة لابن تيمية ١١٨/١ ،ودرء التعارض له ١٨/٢ـ٢٠ ،وشرح العقيدة الاصفهانية له ص ٦٨ ،ورسالة في الصفات الاختيارية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ٤ ، ومجموع الفتاوى له ٢١٧/٦

الى ابن كلاب والاشعري أجل منه ولا أحسن كتبا وتصنيفا وكان منتسبا الى الامام أحمد وأهل السنة وأهل الحديث والسلف ٠

ثم انه مامن هؤلاء الا وله في الاسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة وله في الرد على كثير من أهل البدع والالحاد ما لا يخفى على من عرفهم ، لكن لما التبس عليهم هذا الاصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة وهم فضلاء عقلاء احتاجوا الى طرده والتزام لوازمه ، فلزمهم بسبب ذلك من الاقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين (١)

وهؤلاء الصفاتية القائلين بهذا الاصل كابن كلاب والاشعري والباقلاني أثبتوا الصفات ونفوا الافعال الاختيارية القائمة به تعالى ٠

وحجتهم على ذلك أنه لو اتصف الرب بصفات الافعال الاختيارية وهي حادثة لقامت به الحوادث ، ولو قامت به الحوادث لم يخل منها ، لأنّ القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث (٢)

وقالوا : ولان كونه قابلا لتلك الصفات الاختيارية فان كانت من لوازم ذاته كان قابلا لها في الازل ، فيلزم وجودها في الازل ، والحوادث لا تكون موجودة في الازل ، لانه يلزم من ذلك وجود حوادث لا أول لها وهو محال عندهم ـ كما مر معنا ـ (٣) (قالوا : وبذلك استدلالنا على حدوث الاجسام وبه عرفنا حدوث العالم ، وبذلك أثبتنا وجود الصانع ، وصدق رسله ، فلو قدحنا في ذلك لزم القدح في أصول الايمان والتوحيد) (٤)

وقد أجابهم ابن تيمية عند ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : ان استدلالكم بقيام الافعال على حدوثه هو من جنس استدلال المعتزلة بقيام الصفات به على حدوثه ، فالمعتزلة قالوا أن الصفات أعراض والاعراض لا تقوم الا بجسم ففرقتم أنتم أيها النافون للافعال الاختيارية بين الصفات والاعراض بأن الصفات هي اللازمة بخلاف الاعراض ، وهو فرق صوري يرجع في الحقيقة الى الاصطلاح ، فان جاز أن تقوم به الصفات التي هي أعراض في غيره ولا يكون جسما محدثا ، جاز أن تقوم به الافعال التي هي حركات في غيره ولا يكون جسما محدثا وهذا الزام ٠

---

(١) انظر درء التعارض لابن تيمية ٢/٩٦ـ١٠٢ ، وشرح العقيدة الاصفهانية له ص ٣٥ـ٣٦

(٢) انظر شرح العقيدة الاصفهانية ص ٧٠

(٣) انظر رسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ٧

(٤) نفس المصدر ص ٨

الثاني : نقول لهم لا نسلم أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وقد أعترف بفساد هذا الاصل الرازي والآمدي ، وعليه بنى الاشعري وأصحابه كلامهم في مسألة امتناع قيام الحوادث به ومسألة القرآن وغيرها من المسائل .

الثالث : نقول لهم هب أنه لا يخلو عنه وعن ضده ، وأن ذلك يستلزم تعاقب الحوادث ، لكن لانسلم أن ذلك يستلزم حدوث ما قام به (١)

والذي عليه السلف والائمة جمهور أهل السنة والجماعة القول بقيام صفات الافعال الاختيارية بذاته تعالى ، وهو ما ذهب اليه الامام عثمان بن سعيد الدارمي ، والامام البخاري صاحب الصحيح ، وأبو بكر بن خزيمة الملقب بأمام الائمة ، وأبو اسماعيل الانصاري الملقب بشيخ الاسلام ، وأبو عمر بن عبد الله النمري ، ومن لايحصى عددهم الا الله تعالى ، وهو قول طوائف من أهل الكلام كالهشامية والكرامية ، وقاله طوائف من أصحاب أحمد كالخلال وغيره وهو مقتضى ما ذكروه عن السلف والائمة من الصحابة والتابعين(٢)

فقد ذهب علماء السلف الى أن كل ما وصف به تعالى من أفعاله الاختيارية فهو قائم به لان ذلك ما تقتضيه اللغة وكذلك العقل :

- فاللغة ليس فيها أن من أوجد شيئا في غيره كان متصفا بذلك الشيء ، فلا يقال لمن أوجد حركة في جسم من الاجسام أنه متحرك بهذه الحركة بل الجسم الذي قامت به الحركة هو المتحرك ، لانه لا يشتق لمحل اسم من صفة لم تقم به .

- كما أن العقل يقتضي أن الصفة اذا قامت بمحل عاد حكمها الى ذلك المحل ولا يتأتى أن يكون حكم هذه الصفة عائدا على غير ذلك المحل فالحياة والعلم والقدرة اذا قامت بمحل كان ذلك المحل حيا عالما قادرا .

ولا يكون الحي حيا بحياة تقوم بغيره ، ولا العالم عالما بعلم يقوم بغيره ،ولا القادر قادرا بقدرة تقوم بغيره .

وكذلك الامر في الافعال ، فلا يكون باتفاق العقلاء متحركا بحركة تقوم بغيره ، بل المتحرك هو من قامت به الحركة ، وطرد هذا انه لا يعقل

---

(١) انظر شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ص ٧٠-٧١

(٢) انظر منهاج السنة لابن تيمية ١١٨/١ ، وشرح العقيدة الاصفهانية له ص ٦٨ ورسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ٤ ، ومجموع الفتاوى له ٢١٨/٦

فاعل الا من يقوم به الفعل (١)

وفي الحقيقة أن الذين قالوا بعدم جواز قيام الحوادث بذاته تعالى وبناء عليه قالوا بنفي صفات الرب وافعاله الاختيارية ليس معهم دليل على هذا النفي لا من الكتاب ولا من السنة ، بل أدلة القرآن والسنة هي مع أهل الاثبات ، وكذلك الادلة العقلية واليك بيان ذلك :

× استدل علماء السلف من القرآن بآيات كثيرة جدا نكتفي بذكر بعضها : - منها :-

قوله تعالى : ((انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)) (٢)

وقوله تعالى : ((ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين))(٣)

وقوله تعالى : ((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون))(٤)

وقوله تعالى : ((خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش)) (٥)

وقوله تعالى : ((هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك)) (٦)

وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثير جدا

× وكذلك ما ورد في الاحاديث الصحيحة منها :-

قوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين : عن زيد بن خالد الجهني أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل ، ثم قال : ((أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا

---

(١) انظر منهاج السنة لابن تيمية ٢٢٣/١

(٢) يس الاية ٢٨

(٣) القصص الاية ٦٥

(٤) التوبة الاية ١٠٥

(٥) الاعراف الاية ٥٤

(٦) الانعام الاية ١٥٨

ونوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب))(١)

وهذا الحديث فيه دلالة واضحة على قيام الكلام به تعالى وانه يتكلم متى شاء وكيف شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته .

وفي الصحاح ايضا من حديث الشفاعة الطويل ، يقول كل من الرسل اذا أتى اليهم الناس في الموقف العظيم يطلبون من كل رسول أن يشفع الى الله تعالى فيقول كل منهم : ((ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله))(٢)

اذا فقد قال كل منهم ان ربي قد غضب اليوم ، وهو بيان أن الغضب يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن في ذلك اليوم لا قبله ولا بعده ، وهذا الحديث فيه دلالة واضحة على جواز قيام الحوادث بذاته تعالى وبالتالي اثبات صفات افعاله الاختيارية ، والاحاديث في ذلك كثيرة جدا (٣)

وأما الادلة العقلية التي استدل بها علماء السلف فهي من جانبهم دون جانب النفاة ، وذلك انهم قالوا أن قدرته على ما يقوم به من الكلام والفعل صفة كمال ، ومن المعلوم أن من قدر على أن يفعل ويتكلم أكمل ممن لا يقدر على ذلك كما أن قدرته على ابداع الاشياء صفة كمال ، والقادر على الخلق أكمل ممن لا يقدر عليه ، وقالوا : الحي لا يخلو عن هذا والحياة هي المصححة لسائر الصفات فاذا قدر حي لا يقدر على أن يفعل بنفسه ويتكلم

---

(١) الحديث في صحيح البخاري كتاب الاذان باب يستقبل الامام الناس اذا سلم ٢٠٥/١ ، وفي صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ٨٣/١-٨٤ ، ومالك في الموطأ كتاب الاستسقاء باب الاستمطار بالنجوم ١٩٢/١

(٢) هو قطعة من حديث الشفاعة الطويل المروى عن عدد من الصحابة من وجوه عدة بألفاظ متقاربة ،اخرجه البخاري في كتاب التفسير باب ذرية من حملنا مع نوح ٢٢٥/٥ ، ومسلم في الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١٨٥/١ والترمذي في كتاب صفة القيامة باب ما جاء في الشفاعة ٥٣٧/٤ .

(٣) انظر شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ص ٦٩ ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٧٦ ، ورسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ٢٣-٢٤

بنفسه كان عاجزا بمنزلة المريض والاخرس (١)

وهذا هو الراجح والذي عليه السلف والائمة والذي اختاره ابن تيمية - رحمه الله - وهو جواز قيام الحوادث بذاته تعالى واثبات صفاته وافعاله الاختيارية ، وهذا هو الرأي الصحيح الموافق لدلالة النقل والعقل واتضح لنا أن الامام الباقلاني لم يكن مع السلف في هذا حيث قال بنفي قيام الافعال الاختيارية بذاته تعالى .

- ٣ - الاحوال عند الامام الباقلاني :-

الحال هي : أن تكون دلالة الفعل على أن فاعله عالم قادر، دلالة على حال فارق بها من ليس بعالم ولا قادر (٢)

وعرفها صاحب المواقف بأنها :(الواسطة بين الموجود والمعدوم)(٣)

فاذا قام العلم بمحل ، واتصف المحل بكونه عالما ، فكونه عالما غير العلم القائم به وليس بحال زائد عليه (٤) وأكثر الصفاتية على هذا فانهم ينفون الاحوال(٥)

وأول من قال بالاحوال أبو هاشم الجبائي من المعتزلة (٦) فانه أثبت واسطة سماها بالحال ، وحدها بأنها صفة لموجود لا يوصف بالوجود ولا بالعدم (٧)

فهو يرى : (أن العلم اذا قام بمحل اقتضى له كونه عالما فكونه عالما حال زائد على العلم والذات) (٨)

وقد وافق أبو هاشم على القول بالاحوال جماعة من الكرامية والمعتزلة وبعض الاشاعرة .

---

(١) انظر شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ص ٦٩-٧٠

(٢) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٠٠

(٣) المواقف للايجي ص ٥٧

(٤) انظر الشامل في أصول الدين للجويني ص ٦٢٩

(٥) انظر درء التعارض لابن تيمية ٣٦/٥

(٦) انظر الشامل للجويني ص ٦٢٩

(٧) انظر محصل افكار المتقدمين للرازي ص ٨٥-٨٦

(٨) الشامل في أصول الدين للجويني ص ٦٢٩

(وقد أراد أبو هاشم أن يتخلص من الصفات ، فابتدع نظرية الاحوال)(١) فقال : (هو عالم لذاته ، بمعنى أنه ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتا موجودا ، وانما تعلم الصفة على الذات لا بانفرادها ، فاثبت أحوالا هي صفات لا موجودة ولا معدومة ، ولا معلومة ولا مجهولة ، أي هي على حيالها لا تعرف كذلك بل مع الذات)(٢)

فالاحوال عنده وجوه واعتبارات عقلية لذات واحدة بها تعرف الذات وتتميز عن غيرها من الذوات ، ذلك لان العقل البشري يدرك فرقا ضروريا بين معرفة الشيء لذاته مطلقا ، وبين معرفته على حال خاصة ، فليس من يعرف ذات الله تعالى يقدر أن يعرف كونه عالما أو قادرا (٣)

وزعم الجبائي : (أن له في كل معلوم حالا مخصوص ، وفي كل مقدور حالا مخصوص)(٤)

وعلى هذا فأحوال الباري عز وجل في معلوماته ومقدوراته لا نهاية لها ، لان معلوماته ومقدوراته لا نهاية لها (٥)

وهذه الاحوال عنده لا تعرف على انفرادها لانها لا موجودة ولا معدومة ولا قديمة ولا محدثة ، ولا معلومة ولا مجهولة ، ولكن نستطيع أن نجدها مع الذات ونعرفها بعلاقتها بالذات فقط (٦)

(وقد تعرضت نظرية الاحوال عند أبي هاشم لانتقادات لاذعة من بعض المعتزلة ، ومن باقي الفرق الاسلامية).(٧)

وقد تكلم الامام الباقلاني على فكرة الاحوال عند أبي هاشم وأنكر قوله بأن دلالة الفعل على أن فاعله عالم قادر دلالة حال له فارق بها من ليس بعالم ولا قادر .

واستدل على انكار الاحوال بكلام طويل نجمله فيما يأتي :ـ

١ـ ان هذه الحال لا تخلو أن تكون معلومة أو غير معلومة فان كانت غير معلومة فلا سبيل الى معرفتها والدلالة عليها والعلم بأنها لزيد دون عمرو ، لان ما ليس بمعلوم لا يصح قيام دليل عليه ، ولا أن يعلم اضطرارا (٨)

---

(١) الباقلاني وآراؤه الكلامية ص٤٨٧ .
(٢) الملل والنحل للشهرستاني ٨٢/١
(٣) انظر نفس المصدر ٨٢/١ وانظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٤٨٧ .
(٤) أصول الدين للبغدادي ص ٩٢
(٥) انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٤٦
(٦) انظر نفس المصدر ص ١٤٥ـ١٤٦ .
(٧) الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٤٨٨ .
(٨) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٠٠ .

٢- وأنكر الامام الباقلاني قولهم (بأن نفس من له الحال معلومة على الحال) (١)

ورد على هذا بأنه كلام متهافت محال (لأنه اذا استحال أن تكون الحال معلومة استحال أن يعلم أن النفس على الحال وأن الحال حال لهما دون غيرها ، فوجب أن يكون العلم علما بالنفس فقط دون الحال واستحال قولهم ان العلم بالنفس على الحال)(٢)

واستدل على فساد هذا الكلام بأن العلم بأن النفس على الحال لا يخلو اما أن يكون علما بالنفس فقط دون الحال ، أو علما بالحال فقط دون النفس ، أو علما بهما جميعا ، أو علما لا بالنفس ولا بالحال .

- فان كان علما لا بالنفس ولا بالحال فذلك محال من قولنا وقولهم جميعا .

- وان كان علما بالنفس دون الحال ، فذلك محال ايضا لانه يوجب أن يكون العلم بالنفس من حيث أنها نفس ، علما بالحال وذلك محال .

- وان كان العلم بأن النفس على الحال علما بالحال فقط فقد ثبت أن الحال معلومة .

وان كان العلم بذلك علما بالنفس والحال ، فقد وجب أن يكونا معلومين جميعا ، وأن تكون الحال معلومة ، كما أن النفس معلومة وهذا يبطل قولهم أن الحال غير معلومة .(٣)

٣- ثم تناول بعد ذلك الباقلاني الرد على الشق الثاني من النظرية وهو أن تكون الحال معلومة ، فان كانت الحال معلومة (وجب أن تكون اما موجودة أو معدومة ، فان كانت معدومة استحال أن توجب حكما أو تتعلق بزيد دون عمرو وبالقديم دون المحدث ، وان كانت موجودة وجب أن تكون شيئا وصفة متعلقة بالعالم وهذا قولنا الذي نذهب اليه)(٤)

ثم بين الباقلاني أن الاختلاف بينهم وبين المعتزلة في العبارة وفي تسمية هذا الشيء علما أو حالا وليس هذا بخلاف في المعنى فوجب اذا صحة ما نذهب اليه في اثبات الصفات (٥)

---

(١) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٠٠

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٠

(٣) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٠٠-٢٠١

(٤) نفس المصدر ص ٢٠١

(٥) انظر نفس المصدر ص ٢٠١

وفي الحقيقة انني لم أجد فيما بين يدي من مصنفات للامام الباقلاني كلاما على اثبات الاحوال ، وكل ما وجدته هو هذا الذي تقدم وهو نقد لنظرية الاحوال عند أبي هاشم والرد عليه .

لكن أكثر علماء الكلام يذكرون أن القائلين بالاحوال أبو هاشم الجبائي من المعتزلة والقاضي الباقلاني ، وأن امام الحرمين كان من القائلين بها ثم رجع عن ذلك ، ومعظم المتكلمين يؤكدون أن الباقلاني كان يقول بالاحوال

وممن قال ذلك الشهرستاني حيث قال : (على أن القاضي الباقلاني من أصحاب الاشعري قد ردد قوله في اثبات الحال ونفيها وتقرر رأيه على الاثبات ومع ذلك أثبت الصفات معاني قائمة به لا أحوالا وقال الحال الذي اثبته أبو هاشم هو الذي نسميه صفة خصوصا اذا اثبت حالة اوجبت تلك الصفات)(١)

وقال في موضع آخر : (وأثبتها - أي الاحوال - القاضي أبو بكر الباقلاني - رحمه الله _ بعد ترديد القول فيها)(٢)

وقال صاحب المواقف : (وقد أثبته - أي الحال - امام الحرمين أولا ، والقاضي منا - يقصدالباقلاني - وأبو هاشم من المعتزلة)(٣)

وغير هؤلاء من المتكلمين يذكروا أن قول الباقلاني هو اثبات الاحوال(٤)

وقد رأيت كلاما لشيخ الاسلام ابن تيمية ينص فيه على أن الباقلاني كان يقول باثبات الاحوال حيث قال : (ومن أثبت الاحوال زائدة على الصفات كالقاضي أبي بكر - أي الباقلاني - وأبي يعلى ، وأبي المعالي في أول قوليه فهؤلاء يقولون : ثبوت الصفات يستلزم ثبوت الاحوال ، واثبات الملزوم يقتضي ثبوت اللازم ، مع أن الصواب أن الاحوال كالكليات ، لها وجود في الاذهان لا في الاعيان)(٥)

وقد وجدت عند بعض من قال من العلماء أن الباقلاني يثبت الاحوال أنه كان مترددا بين رفضها وقبولها كما يقول امام الحرمين : (ولم أر له - أي الباقلاني - فيما عثرت عليه من مصنفاته قطعا بأحد المذهبين ولكنه ملك الطريقين فينفي الحال مرة ويثبتها اخرى ، ويجري قواعد الاصول على

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ٩٥/١

(٢) نهاية الاقدام للشهرستاني ص ١٣١

(٣) المواقف للايجي ص ٥٧

(٤) انظر غاية المرام للامدي ص٢٧ ، ومحصل افكار المتقدمين للرازي ص٨٥ـ٨٦ وانظر في علم الكلام د/ أحمد محمود صبحي ٨١/٢ـ٨٢

(٥) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣٥/٥

الطريقين ليستبين للناظر استمرار الاصول على المذهبين جميعا)(١)

ولا استطيع ازاء هذه الاقوال من العلماء والنقولات الا أن أقول لعل الامام الباقلاني أثبت الاحوال في بعض كتبه الكثيرة التي لم تصل الينا ولو أنه رجع عن رأيه هذا لنقل العلماء عنه ذلك كما نقلوا عن امام الحرمين أنه كان يقول بها ثم رجع عن ذلك .

وكتاب التمهيد الذي هاجم فيه الباقلاني فكرة الاحوال عند أبي هاشم يعتبر من كتبه التي ألفها في بداية اشتهاره بين العلماء ، فقد ألفه بعد اتصاله بعضد الدولة في أول حياته ، وليس من كتبه المتأخرة حتى نعتبرهذا رأيه الاخير .

وهؤلاء العلماء الذين نسبوا الى الباقلاني القول بالاحوال من الراجح انهم اطلعوا على كتبه الكثيرة التي ألفها بعد التمهيد والتي لم تصل الينا ، ولعلهم وجدوا فيها ما جعلهم يؤكدون بأنه من مثبتي الاحوال .

وعلى أي حال فان الباقلاني سواء كان من مثبتي الاحوال أم من نفاتها فان الذي تجدر الاشارة اليه ، هو أن الاحوال عند الباقلاني تختلف عن فكرة الاحوال عند أبي هاشم وتخالف القاعدة التي سار عليها)(٢) وهدفه منها .

وفي بيان ذلك يقول الشهرستاني : (اعلم أن المتكلمين اختلفوا في الاحوال نفيا واثباتا بعد أن أحدث أبو هاشم الجبائي رأيه فيها وما كانت المسألة مذكورة قبله أصلا ، فأثبتها أبو هاشم ونفاه أبوه الجبائي وأثبتها القاضي أبو بكر الباقلاني - رحمه الله - بعد ترديد القول فيها على قاعدة غير ما ذهب اليه - أبو هاشم - ونفاها صاحب مذهبه الشيخ أبو الحسن الاشعري وأصحابه وكان امام الحرمين من المثبتين في الاول والنافين في الآخر)(٣)

فالاحوال عند أبي هاشم - كما مر معنا - لا معلومة ولا مجهولة ولا معدومة ولا موجودة ، والذي ألجأه الى هذا القول هو أن المعدوم عنده شيء فلو قال أن الاحوال موجودة أو معدومة ، للزم أن تكون أشياء .

(فلم يصف الاحوال بكونها معلومة ..... حتى لا يلزمهم من أطلق الحكم بكونها شيء)(٤)

---

(١) الشامل في أصول الدين للجويني ص ٦٢٩ ، كما ذكر ذلك ايضا الآمدي في الابكار ١/١٤٤

(٢) الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٤٩٢

(٣) نهاية الاقدام للشهرستاني ص ١٣١.

(٤) الشامل للجويني ص ٦٤٢

وكذلك لم يقل بأنها (مجهولة لأن الجهل ضرب من الاعتقاد وما لا يصح أن يعلم لا يصح أن يجهل)(١)

وأبو هاشم لما ذهب الى القول بالاحوال على هذه الاوصاف التي وصفها بها ، من أجل أن يتخلص من القول بصفات ثبوتية لله تعالى ·

بخلاف الامام الباقلاني فان نظرته الى الاحوال تختلف عن نظرة أبي هاشم ، فالامام الباقلاني لم ينكر الصفات الثبوتية الزائدة على الذات ولم يصف الاحوال بهذه المتناقضات التي قال بها أبو هاشم بل يرى أنها معلومة وليست مجهولة · (٢)

وكذلك فعند أبي هاشم أن الاحوال المعللة - وهي كل حكم يثبت للذات بسبب معنى قام بالذات ككون العالم عالما والقادر قادرا ونحوه - لا تكون الا للصفات التي من شرطها الحياة كالعلم والقدرة ونحوه ، وأما ما لا يشترط فيه الحياة من الصفات فلا وذلك كالسواد والبياض ونحوه (٣)

ودليله في هذا الفرق (أن ما من شرطه الحياة كالعلم ونحوه انما يتوصل الى معرفته من معرفة كون ما قام به عالما ، ولا كذلك السواد والبياض فانه مشاهد مرئي ، فلا يقتصر في الاستدلال عليه بكون ما قام به أسود أو أبيض) (٤) ولهذا لم يجعل هذا علة ههنا ·

أما الامام الباقلاني فقد نظر الى الاحوال نظرة أوسع فعنده أن (كل صفة لموجود لا تتصف بالوجود فهي حال ، سواء كان المعنى الموجب مما يشترط في ثبوته الحياة أو لم يشترط ككون الحي حيا وعالما وقادرا وكون المتحرك متحركا والساكن ساكنا والاسود والابيض الى غير ذلك) (٥)

يظهر لنا مما سبق أن الباقلاني يريد أن يبين أنه اذا قيل فلان حي أو عالم ، أو قادر ، أو أن الجسم متحرك أو ساكن نجد في الخارج أمرين:

الاول : وهو الذات الموصوفة بهذه الصفات وهي أمر موجود في الخارج ·

الثاني : هي الصفات كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والحركة والسكون ، وهي كذلك أمور موجودة في الخارج ، ولكن توجد وراء هذه الصفات

---

(١) الشامل للجويني ص ٦٤٢ (٢) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٤٩٢-٤٩٣

(٣) انظر غاية المرام للامدي ص ٢٩

(٤) نفس المصدر ص ٢٩

(٥) نهاية الاقدام للشهرستاني ص ١٣٢

الوجودية ، صفات أخرى هي التي تسمى أحوالا ككونه حيا ، وكونه عالما ،وكونه قادرا . (١)

وعلى هذا فان الامام الباقلاني قد أثبت الواسطة بين الموجود والمعدوم ، وقد رد شيخ الاسلام ابن تيمية على من قال بهذا القول حيث قال : (ونفس العلم والقدرة هو نفس كونه عالما قادرا على قول الجمهور الذين ينفون أن تكون الاحوال زائدة في الخارج على الصفات ، ومن أثبت الاحوال زائدة على الصفات ..... فهؤلاء يقولون ثبوت الصفات يستلزم ثبوت الاحوال واثبات الملزوم يقتضي ثبوت اللازم ، مع أن الصواب أن الاحوال كالكليات لها وجود في الاذهان لا في الاعيان) (٢)

ثم بين ابن تيمية أن النزاع يحصل بين مثبتي الصفات والذين ينفون الاحوال ، وبين من يثبت الصفات والاحوال حيث قال : (أن النزاع في كون الرب تعالى عالما لذاته أو بالعلم ، أو قادرا لذاته أو بالقدرة ، كثير منه نزاع لفظي ، بل عامة المتنازعين فيه اذا حرر عليهم الكلام لم يتلخص بينهم نزاع ، وانما يحصل النزاع بين مثبتة الاحوال ونفاتها ، فان أهل الاثبات متفقون على أن علمه وقدرته من لوازم ذاته ، وأنه لا يمكن وجوده غير عالم ولا قادر ، وينكرون وجود ذات مجردة من العلم والقدرة واذا قالوا : هي زائدة على الذات فلا يعنون أنها زائدة على الذات العالمة القادرة بل هي زائدة على ذات مجردة عن العلم والقدرة ، الا من يقول منهم ان له صفة هي العلم أوجبت كونه عالما فهؤلاء مثبتو الحال ، وأكثر الصفاتية هم من نفاة الحال) (٣)

بعد هذا ننتقل الى عرض رأي الامام الباقلاني في الصفات العقلية الثبوتية .

---

(١) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٤٩٤ .

(٢) درء التعارض لابن تيمية ٥/ ٣٥

(٣) نفس المصدر ٥/٣٥-٣٦

المبحث الثالث

رأي الامام الباقلاني في الصفات العقلية الثبوتية الذاتية والفعلية

رأي الامام الباقلانـــي في الصفات العقلية الثبوتية الذاتية والفعلية :ـ

وهذا المبحث ينقسم الى قسمين :ـ

القســـم الاول :

عرض رأي الباقلاني في صفات الذات العقلية :

وسميت عقلية لدلالة العقل عليها مع ورود السمع بها .

قلنا أن الامام الباقلاني يثبت لله صفات قديمة أزلية قائمة بذاته تعالـــى وانها زائدة على الذات ، ردا على المعتزلة القائلين بأنها عين الذات ، وقلنا بأنه عرف هذه الصفات الذاتية بأنها التي لم يزل الباري عز وجـــل ولا يزال موصوفا بها ، وقد مثل لها بسبع صفات عقلية وهـــي :ـ

الحياة ، العلم ، القدرة ، الارادة ، الكلام ، السمع ، البصر ، واستـــدل علـى اثبات هذه الصفات بالادلة النقلية بالاضافة الـى الادلة العقلية .

١ ـ صفة الحياة : أثبت الامام الباقلاني لله تعالى صفة الحيـاة واستدل على ذلك بآيات كثيرة من القرآن الكريم منها :

قوله تعالى : ((الله لا اله الا هو الحي القيوم)) (١)

وقوله تعالى : ((وتوكل على الحي الذي لا يموت)) (٢)

واستدل على اثباتها لله تعالى بأدلة عقلية منها :

قوله : (فان الفعل يستحيل وجوده من الموات الذي لا حياة لـــه والله تعالى فاعل الاشياء ومنشؤها فوجب أن يكون حيا) (٣)

وهذا الدليل العقلي يبين به الباقلاني أن اتصاف الباري بالحياة يدل عليه فعله سبحانه وتعالى للاشياء ، وبما أنه قد ثبت فعله تعالـــى للاشياء ، فيجب أن يكون حيا ، لأن الفعل لا يصدر الا عن الحي ،

وصاغ هذا الدليل العقلي صياغة أخرى بأنه ان قيل فما الدليـــل على أن صانع الاشياء حي ؟ قيل له : الدليل على ذلك انه فاعل عالم قادر والفاعل العالم القادر لا يكون الا حيا (٤)

ومذهب الامام الباقلاني هذا في اثبات صفة الحياة يتفق مع مذهـــب

---

(١) البقرة الاية ٢٥٥

(٢) الفرقان الاية ٥٨

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٣٥

(٤) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦

السلف الذين أثبتوا صفة الحياة صفة ذاتية حقيقية أزلية لائقة بكماله وجلاله (١)

والحياة من صفات الكمال لله عز وجل ، لأنّ كل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أولى به ، وكل نقص يـنـزه عنه المخلوق ، فالخالق أولى أن ينزه عنه (٢)

يقول شارح الطحاوية : (فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال فلا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف الحياة ، فاذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم اثباتها اثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة)(٣)

وهذه الصفة اتفق على اثباتها لله عز وجل جميع الفرق (٤)

٢ـ صفة العلم : وقد أثبت الامام الباقلاني صفة العلم لله عز وجل ، والعلم صفة لله ذاتية أزلية بها يدرك جميع المعلومات على ما هي به فلا يخفى عليه منها شيء (٥)

وقد أورد الامام الباقلاني أدلة كثيرة نقلية وعقلية لاثبات هذه الصفة وقال في اثباتها : (ويجب أن يعلم أنه تعالى عالم بجميع المعلومات)(٦)

واستدل على اثباتها بآيات كثيرة من القرآن الكريم منها :

قوله تعالى : ((لكن الله يشهد بما انزل اليك أنزله بعلمه))(٧)

وقوله تعالى : ((يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم)) (٨)

وقوله تعالى : ((يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور))(٩)

---

(١) انظر منهج ودراسات لآيات الاسماء والصفات للشنقيطي ص ١١، وشرح العقائد النسفية ص ٤٠ ، ولوامع الانوار البهية للسفاريني ١٣١/١

(٢) انظر شرح العقيدة الاصفهانية ص ٨٦

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز اللحنفي ص ٧٢

(٤) انظر المواقف للايجي ص ٢٩٠ ، وشرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٦٠ ـ ١٦٧ .

(٥) انظر شرح العقيدة الواسطية د/ خليل هراس ص ٤٤ ، ولوامع الانوار للسفاريني ١٤٥/١

(٦) الانصاف للباقلاني ص ٣٥

(٧) النساء الاية ١٦٦

(٨) طه الاية ١١٠ ، والبقرة الاية ٢٥٥

(٩) غافر الاية ١٩

وقوله تعالى : ((ويعلم ما في السموات وما في الارض))(١)

وقوله تعالى : ((فاعلموا انما أنزل بعلم الله))(٢)

وقوله تعالى : ((وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه))(٣)

الى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى : (٤)

واستدل على ذلك بأدلة عقلية منها :

ان مما يدل على انه عالم : (صدور الافعال الحكيمة المتقنة الواقعة على أحسن ترتيب ونظام واحكام واتقان ، وذلك لا يحصل الا من عالم بها ومن جوز صدور خط معلوم منظوم مرتب من غير عالم بالخط ، كان من المعقول خارجا ، وفي عمل الجهل والجا) (٥)

وصاغ هذا الدليل بأسلوب آخر واستدل به على اثبات علم الله عز وجل بقوله : (يدل على ذلك وجود الافعال المحكمات منه لأن الافعال المحكمات لا تقع منا على ترتيب ونظام - كالصياغة والنجارة والكتابة والنساجة - الا من عالم ، وأفعال الله تعالى ، أدق وأحكم فكانت أولى بأن تدل على أنه عالم) (٦)

وهناك دليل آخر يستدل به في هذا المقام وهو أن من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما .

وهذا له طريقان :-

- الاول - : ان الخالق أكمل من المخلوق ، والعلم صفة كمال في المخلوق ، فاذا لم يكن الخالق عالما ، لزم أن يكون في المخلوقات من هو أكمل منه وهو محال .

- والثاني - : ان كل علم في المخلوقات فهو منه تبارك وتعالى ومن الممتنع أن يكون مبدع الكمال عاريا منه بل هو أحق به فهو أحق بكل كمال وأولى بالتنزه عن كل نقص (٧)

---

(١) آل عمران الاية ٢٩ (٢) هود الاية ١٤

(٣) فاطر الايتان ١١-١٢

(٤) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٥-٣٦

(٥) الانصاف للباقلاني ص ٣٦

(٦) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦

(٧) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٠٠ ، وشرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ص ٢٤-٢٥ ، ولوامع الانوار للسفاريني ١٤٩/١

٣- صفة القدرة :- وايضاً استدل على اثباتها بالادلة النقليـــة بالاضافة الى أدلة العقول بقوله : (ويجب أن يعلم أنه تعالى قادر علـــى جميع المقدورات) (١)

ومن الادلة التي ساقها قوله تعالى : ((وهو على كل شيء قدير))(٢)

وأما دليله العقلي فهو انا نعلم قطعا استحالة صدور الافعال المحكمات مـن عاجز لا قدرة له ، ولما ثبت أنه فاعل الاشياء ومبدعها ثبت أنه قادر (٣)

ومما جاء في اثبات هذه الصفة قوله صلى الله عليه وسلم فـــي حديث الاستخارة : ((اللهم اني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب))(٤)

فالله تعالى قادر يصح منه ايجاد العالم وتركه فليس شيء منهما لا زما لذاته ، فهو ان شاء فعل ، وان لم يشأ لم يفعل فهو مختار والمختـار انما يفعل بالقدرة ، اذ القادر هو ان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعـــل فاما من يلزمه المفعول بدون إرادته فهذا ليس بقادر (٥)

وهذا الذي عليه السلف من أنه قادر بمعنى أنه يفعل متى شـــاء فان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل .

٤- صفة الارادة : وكما فعل بالصفات السالفة الذكر فعل بهـــذه الصفة فقد أثبت الامام الباقلاني صفة الارادة لله تعالـــى .

فقال : (ويجب أن يعلم : ان الله مريد على الحقيقة لجميـــع الحوادث والمرادات)(٦)

واستدل على اثباتها من القرآن الكريم :

بقوله تعالى : ((فعال لما يريد)) (٧)

وقوله تعالى : ((يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العســـر

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٣٥

(٢) المائدة الاية ١٢٠

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٥

(٤) جزء من حديث الاستخارة أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب ما جاء فـــي التطوع مثنى مثنى ٥١/٢ ، وفي سنن أبي داود كتاب الصلاة باب في الاستخارة ١٨٧/٢ ، والترمذي في كتاب الوتر باب ما جاء في صلاة الاستخارة ٣٤٥/٢

(٥) انظر شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ص ٢٥

(٦) الانصاف للباقلاني ص ٣٦

(٧) البروج الاية ١٦

ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون))(١)

وقوله تعالى : ((والله يريد الآخرة)) (٢)

وقوله تعالى : ((يريد الله أن يخفف عنكم))(٣) (٤)

واستدل من العقل بأن ترتيب الافعال واختصاصها بوقت دون وقت ، ومكان دون مكان ، وزمان دون زمان دليل على ارادته سبحانه وتعالى (٥)

وصاغ هذا الدليل بأسلوب آخر فقال : (فان قيل : فما الدليل على أنه مريد ؟ قيل له : وجود الافعال منه وتقدم بعضها على بعض في الوجود وتأخر بعضها عن بعض في الوجود ، فلولا انه قصد الى ايجاد ما وجد منها لما وجد ولا تقدم من ذلك ما تقدم ولا تأخر منه ما تأخر ، مع صحة تقدمه بدلا من تأخره وتأخره بدلا من تقدمه)(٦)

ومن الادلة ايضا على اثبات صفة الارادة لله تعالى :

أن الحي اذا لم يكن مريدا لشيء أصلا ولا موصوفا بالارادة ، وجب أن يكون موصوفا بضدها كالسهو والاكراه وما في معناهما ، كما انه اذا لم يكن موصوفا بالعلم كان موصوفا بضد ذلك من الغفلة والجهل ونحوهما .

فيستحيل أن يكون الله تعالى لم يزل موصوفا بضد الارادة لان هذا يوجب أن لا يريد شيأ على وجه من الوجوه ، لأن الله تعالى اذا كان لم يزل متصفا بضد الارادة ، وجب أن لا يكون قديما ، ومحال عدم القديم وحدوثه فاذا استحال عدمه ، وجب أن لا يريد الباري شيأ على وجه من الوجوه وذلك فاسد واذا فسد هذا صح أن الباري لم يزل مريدا (٧)

وقد اتفق أهل السنة على القول بأن الله سبحانه وتعالى مريد فيثبتون الارادة لله تعالى ، صفة قديمة ، فهو مريد بارادة .

واطلاق مريد على ذات الله تعالى معناه حق ، لأنه لا يعقل أن يكون

---

(١) البقرة الاية ١٨٥

(٢) الانفال الاية ٦٧

(٣) النساء الاية ٢٨

(٤) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٦

(٥) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٦

(٦) التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٧

(٧) انظر اللمع للاشعري ص ٣٧_٣٨

المتصف بارادة قائمة به ليس مريدا (١)

هـ ٦- السمع والبصر : وقد أثبت هاتين الصفتين الامام الباقلاني واستدل على اثباتهما لله تعالى من القرآن الكريم ، وبأدلة العقول

فقال : (ويجب أن يعلم أنه سميع لجميع المسموعات بصير لجميع المبصرات) (٢) والدليل على ذلك :

قوله تعالى :((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))(٣)

وقوله تعالى : ((أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون)) (٤)

وقوله تعالى : ((قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير)) (٥)

وقوله تعالى : ((الم يعلم بأن الله يرى)) (٦) (٧)

الى غير ذلك من الايات :

واستدل بالعقل بأن الله تعالى لو لم يوصف بالسمع والبصر لوجب أن يوصف بضد ذلك من الصم والعمى والله يتعالى عن ذلك علوا كبيرا (٨)

وصفة السمع والبصر من صفات الذات الثبوتية الملازمة للذات أزلا وأبدا .

والسميع البصير اسمان من أسمائه تعالى ، فالله تعالى له سمع يسمع به وبصر يبصر به على ما يليق بجلاله وعظمته .

ومعنى السميع أي المدرك لجميع الاصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى .

---

(١) انظر اللمع للاشعري ص ٤٧ ، وغاية المرام للامدي ص ٥٢ ، وشرح العقيدة الاصفهانية ص ٥ ، وشفاء العليل لابن القيم ص ٤٤٨

(٢) الانصاف للباقلاني ص ٣٧

(٣) الشورى . الاية ١١

(٤) الزخرف الاية ٨٠

(٥) المجادلة الاية ١

(٦) العلق الاية ١٤

(٧) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٧

(٨) انظر الانصاف للباقلاني ص ٣٧ ، وانظر هذا الدليل في شرح الاصفهانية لابن تيمية ص ٧٤

ومعنى البصير أي المدرك لجميع المرئيات من الاشخاص والالوان مهما لطفت أو بعدت فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والاستار ، وهذا دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذي يليق (١)

ومما يستدل به السلف من جهة العقل على اثبات هاتين الصفتين ان السمع والبصر من صفات الكمال فان الحي السميع البصير أكمل من حي ليس بسميع ولا بصير ، كما أن الموجود الحي أكمل من موجود ليس بحي ، وهذا معلوم بضرورة العقل ، واذا كانت صفة كمال فلو لم يتصف الله عز وجل بهما لكان ناقصا والله منزه عن كل نقص (وكل كمال محض لا نقص فيه فهو جائز عليه ، وما كان جائزا عليه من صفات الكمال ، فهو ثابت له ، فانه لو لم يتصف به لكان ثبوته له موقوفا على غير نفسه فيكون مفتقرا الى غيره في ثبوت الكمال له وهذا ممتنع اذ لم يتوقف كمال الا على نفسه فيلزم من ثبوت نفسه ثبوت الكمال لها ، وكل ما ينزه عنه فانه يستلزم نقصا يجب تنزيهه عنه ، وأيضا فلو لم يتصف بهذا الكمال لكان السميع والبصير من مخلوقاته أكمل منه ، ومن المعلوم في بداهة العقول أن المخلوق لا يكون أكمل من الخالق) (٢) واذا ثبت هذا ثبت أن الله متصف بصفات الكمال التي منها صفتي السمع والبصر .

ولا يجوز أن يراد بسمع الله وبصره كما قالت المعتزلة ومن وافقهم مجرد العلم بما يسمع ويرى ، لأن الله فرق بين العلم وبين السمع والبصر ، وفرق بين السمع والبصر ، وهو لا يفرق بين علم وعلم لتنوع المعلومات ، قال تعالى : ((واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم)) (٣)

وقال تعالى : ((وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم))(٤) فذكر سمعه لاقوالهم وعلمه ليتناول باطن أحوالهم (٥)

---

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ص ٤٩-٥٠

(٢) شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ص ٨٥ ، وانظر رسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية ضمن جامع الرسائل المجموعة الثانية ص ١٧

(٣) الاعراف الاية ٢٠٠

(٤) البقرة الاية ٢٢٧

(٥) انظر العقيدة الاسلامية بين السلفية والمعتزلة د/ أحمد خفاجي ١/٣٠٠

مما تقدم تبين لنا أدلة الباقلاني النقلية والعقلية على اثبات صفتي السمع والبصر لله عز وجل .

٧- صفة الكلام : فقد أثبت الامام الباقلاني صفة الكلام لله تعالى فقال : (ويجب أن يعلم : أن الله متكلم ، وأن كلامه غير مخلوق ولا محدث) (١) واستدل على ذلك بالمنقول والمعقول .

فمن أدلته على ذلك من الكتاب العزيز :

قوله تعالى : ((منهم من كلم الله)) (٢)

وقوله تعالى : ((وكلم الله موسى تكليما)) (٣)

وقوله تعالى : ((وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم)) (٤)

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((فضل كلام الله على كلام الخلق كفضل الخالق على المخلوق)) (٥) الى غير ذلك من الايات والاحاديث الكثيرة

واستدل على اثباتها من العقل بقوله : (ولانه لو لم يكن متكلما لوجب أن يوصف بضد الكلام من الخرس والسكوت والعي ، والله يتعالى عن ذلك) (٦)

ولقد أولى الامام الباقلاني هذه الصفة عناية خاصة ، نظرا لأهميتها وكثرة الكلام فيها وتشعبه ، ونظرا لتعلقها في مسألة خلق القرآن التي تعتبر من أهم المسائل التي اشتد فيها النزاع بين المعتزلة من جهة وبين الاشاعرة والسلف من جهة أخرى ، لذا فانني أرى أن أفرد هذه الصفة في مبحث مستقل بعد هذا المبحث المتعلق بالصفات العقلية الثبوتية ان شاء الله .

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ٣٧

(٢) البقرة الاية ٢٥٣

(٣) النساء الاية ١٦٤

(٤) الانعام الاية ١١٥

(٥) اخرجه الدارمي في سننه باب فضل كلام الله على سائر الكلام ٤٤١/٢ ، من حديث شهر بن حوشب بنحوه وهو حديث ضعيف ، وأخرجه أبو يعلى في مسنده ، والبيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة بنحوه كما في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٣٤) وفي ضعيف الجامع الصغير له رقم (٣٩٧٤) ٩٢/٢

(٦) الانصاف للباقلاني ص ٣٧

فان هذه الصفات السبعة التي أثبتها الامام الباقلاني ودلل على ثبوتها بالنقل والعقل موافق فيها لعلماء السلف وخاصة في هذا المنهج الذي نهجه في اثبات هذه الصفات ، لأن السلف كما يستدلون بالنصوص فانهم لا يهملون العقل ، من هنا يظهر أن منهج الباقلاني في اثبات هذه الصفات هو منهج السلف الذي يجمع بين النقل والعقل ، وهو مع اثباته لهذه الصفات يؤكد على اثباتها له تعالى على وجه يليق بجلاله وعظمته لا يشبه أحد من خلقه ولا يشبهه أحد منهم - وهذا ما يراه علماء السلف - وفي بيان ذلك يقول : (والدليل قوله تعالى : ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))(١) وقوله تعالى : ((قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد))(٢)

فكما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق فكذلك علمه لا يشبه علم الخلق ولا يوصف بصفة علم الخلق ، وكذلك قدرته وارادته لا تشبه قدرة الخلق و لا ارادتهم ، ولا يوصف بشيء من صفاته بصفات الخلق ، فاعلم ذلك وتحققه توفق للصواب بمشيئة الله تعالى) (٣)

فقد استدل نقلا وعقلا بأن صفات الله تعالى لا تشبه صفات المخلوق ونزه الباري تعالى عن مشابهة المخلوقات ، فصفاته سبحانه وتعالى تليق بجلاله وعظمته .

ونرى أن الامام الباقلاني يتفق مع الاشاعرة في اثبات هذه الصفات الا انه يختلف عنهم في طريقة الاثبات ، فقد سلك - كما مر معنا - في الاستدلال أن جمع بين النقل والعقل ، على خلاف الاشاعرة الذين يكتفون بالاستدلال العقلي (٤) وبهذا فان الامام الباقلاني يتفق مع السلف في طريقه الذي سلكه في الاستدلال على هذه الصفات .

<u>القسم الثاني</u> :-

عرض رأي الامام الباقلاني في صفات الفعل العقلية :

---

(١) الشورى الاية ١١

(٢) سورة الاخلاص وآياتها أربع

(٣) الانصاف للباقلاني ص ٣٨

(٤) انظر محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٣٣-٢٥٢ ، والمعالم في أصول الدين له ص ٥٥-٥٩ ، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ٥٣-٨٣

سبق بيان تقسيم الامام الباقلاني للصفات الى صفات ذات وصفات فعل .

وسبق بيان تعريف الامام الباقلاني للصفات الفعلية بأنها كل صفة كان موجودا قبل فعله لها . (١)

ومثل للعقلية من هذه الصفات الفعلية بالخلق ، والرزق ، والعدل والتفضل ، والانعام ، والثواب،والعقاب ، .....الخ (٢)

وقد استدل الامام الباقلاني - رحمه الله - بالقرآن على اثبات الصفات الفعلية العقلية عامة بقوله تعالى : ((الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)) (٣)

وبقوله تعالى : ((الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون)) (٤) (٥)

واستدل باجماع المسلمين فقال : (وقد أجمعت الامة على اطلاق القول " لا رازق الا الله " كما أجمعوا على انه لا خالق الا الله) (٦)

وهذه الآيات صريحة في اثبات صفة الخلق والرزق ويقاس هذا على باقي صفات الفعل العقلية .

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٢-٢٦٣ ، والانصاف له ص ٢٦

(٢) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٦٢-٢٦٣

(٣) الرعد الاية ٢٦

(٤) الروم الاية ٤٠

(٥) انظر الانصاف للباقلاني ص ٥٠

(٦) نفس المصدر ص ٥٠

المبحث الرابع

رأي الامام الباقلاني في مسألة كلام الله تعالى

رأي الامـام البـاقلانـي في مسألـة كلام الله تعالـى :-

تمهيد :- لقد شغلت مشكلة كلام الله تعالى علماء المسلمين زمنا طويلا وقد اشتد الصراع فيها بين المعتزلة والسلف ، وبلغ أقصاه عندما أمتحن العلماء والمحدثون في عهد الخليفة المأمون والمعتصم ، فحملوا الناس على القول بخلق القرآن ، وامتحنوهم في هذا ، وقد عذب في هذا خلق كثير كان منهم الامام أحمد بن حنبل - رحمه الله - الذي رفض أن يعترف بخلق القرآن .

لذا فقد كان حديث الباقلاني على هذه الصفة موضع اهتمام ، فقد اهتم ببيان هذه الصفة اهتماما كبيرا وخصص لها أجزاء كبيرة في كتبه للحديث عنها والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن .

وقد اختلف الناس في هذه المسألة الى فرق وطوائف كثيرة منها :-

١- الفلاسفة والصابئة :- الذين قالوا ان كلام الله انما هو ما يفيض على النفوس اما من العقل الفعال ، واما من غيره ، وهؤلاء يقولون انما كلم الله موسى من سماء عقله ، أي بكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج (١)

٢- المعتزلة والخوارج :- وقالوا ان الله لم يقم به صفة من الصفات لا حياة ولا قدرة ولا كلام ولا ارادة ولا رحمة ولا غير ذلك ، بل خلق كلاما في غيره فذلك المخلوق هو كلامه (٢)

٣- الكلابية والاشعرية :- وقد ذهبوا الى أن الله تعالى متكلم بكلام قائم بذاته أزلا وأبدا ، لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، وهؤلاء موافقون للمعتزلة في أصل قولهم لكن قالوا : الرب تقوم به الصفات ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية ، وأول من أشتهر عنه هذا القول عبد الله بن سعيد بن كلاب ، ثم افترق موافقوه ، فمنهم من قال ذلك الكلام عبارة عن معنى واحد هو الامر بكل مأمور ، والنهي عن كل محظور ، والخبر والاستخبار ، ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وان عبر عنه بالعبرية

---

(١) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٧٢/٣ ، ومجموع الفتاوى له ٤٢/١٢ ، ومنهاج السنة النبوية ٢٢١/١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٣٦

(٢) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٧٧/٣ ، ومجموع الفتاوى له ٤٨/١٢ ، ومنهاج السنة النبوية ٢٢١/١ ، وشرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٥٢٨ ، والمحيط بالتكليف له ص ٣٠٦-٣٠٩ ، ونهاية الاقدام للشهرستاني ص ٢٨٨ ،وشرح الطحاوية ص ١٣٦

كان توراة ، وقالوا معنى القرآن والتوراة والانجيل واحد ، ومعنى آيـة الكرسي هو معنى آية الدين (١)

٤- وأما السلف :- (فقالوا : لم يزل الله متكلما اذا شاء ، وأن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة ، والكمال انما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالامور المباينة له ، ولا يكون الموصوف متكلما عالما قادرا الا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة ..... فلم يـزل متكلما اذا شاء ولا يزال كذلك ، وهو يتكلم اذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي ، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة لأن الله تكلم بها) (٢)

وأنه تعالى يتكلم بحرف وصوت كما جاء بذلك القرآن والآثار.

هذا ملخص الآراء في قضية كلام الله تعالى ، ويبقى علينا أن نعرف رأي الامام الباقلاني في هذه القضية .

ان الامام الباقلاني لم يخرج عن رأي الاشاعرة ، بل وافقهم في كل ما ذهبوا اليه ، من اثبات الكلام النفسي لله تعالى ، وأنه قديم أزلـي وأنه ليس بحرف ولا صوت ، وأن هذا القرآن عبارة عن كلام الله القديم ، ويتلخص عندنا من هذا خمسة مسائل وهي :-

١- حقيقة الكلام الالهي عند الباقلاني .

٢- رأي الباقلاني في مسألة الحرف والصوت

٣- رأي الباقلاني في قدم الكلام الالهي

٤- مذهب الباقلاني في القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو والكتابة والمكتوب .

٥- رد الامام الباقلاني على المعتزلة في مسألة خلق القرآن

---

(١) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٧٧/٣،ومجموع الفتاوى له ٤٩/١٢،ومنهاج السنة ٢٢١/١ وأصول الدين للبغدادي ص١٠٦،والعقيدة النظامية للجويني ص ٢٧-٢٨،والارشاد له ص ١٠٤-١٠٥،والملل والنحل للشهرستاني ٩٦/١-٩٧،وشرح العقيدة الطحاوية ص١٣٦

(٢) رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٧٩/٣-٣٨٠،وانظر مجموع الفتاوى له ١٧٣/١٢،ومنهاج السنة ٢٢١/١

ونبحث كل هذه الامور لنعرف رأي الباقلاني فيها وأدلته عليها لنتبين ما يوافق مذهب السلف فيها وما يخالفه .

١- حقيقة الكلام الالهي عند الباقلاني :-

يرى الامام الباقلاني - وهو رأي الاشاعرة عموما - أن حقيقة الكلام هو الكلام النفسي ، وأما الحروف والاصوات فما هي الا دلالة على الكلام النفسي أي الدليل غير المدلول .

وفي بيان مذهبه هذا يقول : (ويجب أن يعلم أن الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس ، لكن جعل عليه امارات تدل عليه) (١)

واستدل على ذلك بالكتاب والسنة والاثر وقول أهل اللغة ، فاستدل من الكتاب بقوله تعالى : ((وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم)) (٢)

ووجه استدلاله بهذه الاية أن الله تعالى أخبر أنه أرسل كل رسول الى قومه بلسانهم ، فأرسل موسى الى بني اسرائيل بلسان عبراني فأفهم كلام الله القديم القائم بالنفس بالعبرانية ، وبعث عيسى عليه السلام بلسان سرياني فأفهم قومه كلام الله القديم بلسانهم ، وكذلك بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بلسان العرب فأفهم كلام الله القديم القائم بالنفس بلسانهم ، ومعلوم أن لغة العرب غير العبرانية والسريانية ، لكن الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير (٣)

ثم قال : (وقد يدل على الكلام القائم بالنفس الخطوط المصطلح عليها بين كل أهل خط ، فيقوم الخط بالدلالة مقام النطق باللسان ، وقد بين تعالى ذلك فقال : ((هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون)) (٤) فقام الخط مكان النطق لما كان يدل على الكلام دلالة النطق ..... فصح أن الكلام الحقيقي هو المعنى القائم بالنفس دون غيره ...... وكذلك قد يدل على الكلام الحقيقي القائم بالنفس الرموز والاشارات وقد بين ذلك تعالى بقوله في قصة زكريا عليه السلام : ((آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا)) (٥) يعني أن لا تفهم الكلام القائم

---

(١) الانصاف للباقلاني ص ١٠٦

(٢) ابراهيم الاية ٤

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ١٠٦-١٠٧

(٤) الجاثية الاية ٢٩

(٥) آل عمران الاية ٤٢

بنفسك باللسان ، وانما افهمه بالرمز والاشارة ، ففعل كما أمره الله تعالى فأخبر عنه فقال : ((فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)) (١) فأفهم أمره الذي هو الامر بالتسبيح القائم في نفسه بالاشارة دون نطق اللسان ..... فحصل من هذه الجملة أن حقيقة الكلام على الاطلاق في حق الخالق والمخلوق انما هو المعنى القائم بالنفس ، لكن جعل لنا دلالة عليه تارة بالصوت والحروف نطقا ، وتارة بجمع الحروف بعضها الى بعض كتابة دون الصوت ووجوده ، وتارة اشارة ورمزا دون الحرف والصوت ووجودهما) (٢)

واستدل من الكتاب ايضا على أن الكلام هو القائم بالنفس أي الكلام النفسي بقوله تعالى : ((اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون))(٣)

ووجه استدلاله بالاية أن الله تعالى ما كذب المنافقين في الفاظهم وانما كذبهم فيما تكنه ضمائرهم وسرائرهم فدل على أنه حقيقة الكلام والقول

وكذلك قوله تعالى : ((ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم)) (٤) فالقول بالنفس قائم وان لم ينطق به اللسان والقول هو الكلام .

وكذلك قوله تعالى :((يعلم ما في أنفسكم فاحذروه)) (٥)

وقوله تعالى : ((الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان)) (٦)

ووجه استدلاله بهذه الاية : أن الله تعالى أسقط حكم الكفر عن المكره على كلمة الكفر ، وجعل الحكم لصدق الكلام القائم بالنفس (٧)

ثم قال الباقلاني بعد استدلاله بهذه الايات : (فدل بهذه الايات ...... أن حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنفس ..... دون الحروف والاصوات التي هي امارات ودلالات على الكلام الحقيقي) (٨)

---

(١) مريم الاية ١١

(٢) الانصاف للباقلاني ص ١٠٧ـ١٠٨

(٣) المنافقون الاية ١

(٤) المجادلة الاية ٨

(٥) البقرة الاية ٢٣٥

(٦) النحل الاية ١٠٦

(٧) انظر الانصاف للباقلاني ص ١٠٩، ولمع الادلة للجويني ص ١٠٤

(٨) الانصاف للباقلاني ص ١٠٩

أما من السنة فقد استدل الباقلاني بقوله صلى الله عليه وسلم ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان في قلبه)) (١)

فأخبر أن الكلام الحقيقي هو الذي في القلب دون نطق اللسان (٢)

واستدل من الاثر بقول عمر رضي الله عنه : ((زورت في نفسي كلاما فأتى أبو بكر فزاد عليه)) (٣)

فسمي عمر ما في نفسه كلاما ، والعرب تقول كان في نفسي كلام وكان في نفسي قول ، وكان في نفسي حديث .

واستدل على اثبات الكلام النفسي بقول الاخطل (٤) :

لا تعجبنك من أثير خطبة xxxx حتى يكون من الكلام اصيلا

ان الكلام لفي الفؤاد وانما xxxx جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فأخبر أن الكلام في النفس يكون وان عبر عنه باللسان (٥)

وبناء على قول الباقلاني بأن كلام الله تعالى هو الكلام النفسي القائم بالنفس فقد نفى أن يتكلم الله بحرف وصوت ، وسيأتي بيان ذلك مفصلا .

واذا كان القرآن كلام الله تعالى ، وهو عند الباقلاني الكلام النفسي القائم بذاته تعالى ، فكيف نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

فقد أجاب الامام الباقلاني على كيفية نزول القرآن الكريم بأن كلام الله تعالى منزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم نزول اعلام وافهام لا نزول حركة وانتقال ، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ((وانه لتنزيل رب

---

(١) اخرجه أبو داود في كتاب الادب باب في الغيبة ١٩٤/٥،وصححه الالباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٧٨٦١) ٣٠٨/٦،من حديث أبي برزة الاسلمي

(٢) الانصاف للباقلاني ص ١٠٩

(٣) قطعة من حديث السقيفة الطويل أخرجه بتمامه الامام أحمد في المسند ٣٩١/١-٣٩٤،واسناده صحيح كما قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند ،وأخرجه البخاري في كتاب الحدود باب رجم الحبلى من الزنى اذا أحصنت ٢٧/٨

(٤)هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارق بن عمرو،من بني تغلب،أبو مالك،ولد سنة ٦٤٠م ،وتوفي سنة ٧٨٠م ،وهو شاعر مصقول الالفاظ،نشأ على النصرانية في اطراف الحيرة في العراق وكان من شعراء الدولة الاموية

انظر الاعلام للزركلي ١٢٣/٥

(٥) انظر الانصاف للباقلاني ص ١١٠،والتمهيد له تحقيق مكارثي ص ٢٥١

العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)) (١)

وفي بيان كيفية نزول القرآن يقول الباقلاني : (فعندنا أربعة أشياء مُنَزِّلٌ ، ومنزَلٌ ، ومنزَلٌ عليه ، ومُنَزَلٌ به .

- فالمنزل : هو الله تعالى لقوله : ((انا نحن نزلنا الذكر))(٢)
وقوله تعالى : ((وأنزلنا اليك الذكر)) (٣)

والمنزل : على الوجه الذي بيناه من كونه نزول اعلام وافهام لا نزول حركة وانتقال كلام الله تعالى القديم الازلي لقوله تعالى : ((وانه لتنزيل رب العالمين)) (٤)

- والمنزل عليه : قلب النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ((على قلبك لتكون من المنذرين)) (٥)

- والمنزول به : هو اللغة العربية التي تلا بها جبريل ونحن نتلو بها الى يوم القيامة لقوله تعالى : ((بلسان عربي مبين))(٦)

- والنازل على الحقيقة : المنتقل من قطر الى قطر قول جبريل)(٧)

واستدل على هذا بقوله تعالى : ((فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين)) (٨)

وقوله تعالى : ((فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ، والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس ، انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ان هو الا ذكر للعالمين

---

(١) الشعراء الايات من ١٩٢-١٩٥
(٢) الحجر الاية ٩
(٣) النحل الاية ٤٤
(٤) الشعراء الاية ١٩٢
(٥) الشعراء الاية ١٩٤
(٦) الشعراء الاية ١٩٥
(٧) الانصاف للباقلاني ص ٩٧
(٨) الحاقة الايات ٣٨-٤٣

لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين))(١)

قال الباقلاني : (وهذا اخبار من الله تعالى بأن النظم العربي الذي هو قراءة كلام الله تعالى ، قول جبريل لا قول شاعر ولا قول كاهن)(٢)

والحاصل من كلام الباقلاني أن الله تعالى علم جبريل عليه السلام القرآن بدليل قوله تعالى : ((الرحمن علم القرآن)) (٣) وجبريل علم نبينا صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى : ((علمه شديد القوى)) (٤)

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقرأ مع جبريل حال قراءته فزعا من أن يذهب عنه حفظه ، حتى نهاه الله عن ذلك بقوله : ((ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي اليك وحيه ، وقل ربي زدني علما)) (٥) وبقوله :((لا تحرك به لسانك لتعجل به)) (٦)

وبين الامام الباقلاني أن معنى هذا أي لا تعجل بقراءتك يا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يفرغ جبريل عليه السلام ثم طمأن قلبه صلى الله عليه وسلم بأنه يحفظه اياه ويثبت حفظه في قلبه فقال : ((ان علينا جمعه وقرآنه)) (٧)

يعني جمعه في صدرك وحفظه ، ثم وعده أن لسانه يقرؤه قراءة لا يجعل معها نسيان فقال : ((سنقرئك فلا تنسى)) (٨) يعني قراءة لا نسيان معها .

والباقلاني يريد أن يبين أن الصفة القديمة كالعلم والكلام ونحو ذلك من صفات الذات لا يجوز أن تفارق الموصوف لأن الصفة اذا فارقت الموصوف اتصف بضدها ، والله تعالى منزه عن ذلك .

وعلى هذا فان جبيريل عليه السلام علم كلام الله وفهمه ، وعلمه الله النظم العربي الذي هو قراءته ، وعلم هو القراءة لنبينا صلى الله عليه وسلم وعلم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، ولم يزل ينقل الخلف عن السلف ذلك الى أن وصل الينا (٩)

---

(١) التكوير الايات ١٥_٢٩

(٢) الانصاف للباقلاني ص ٩٧

(٣) الرحمن الاية ١

(٤) النجم الاية ٦

(٥) طه الاية ١١٤

(٦) القيامة الاية ١٦

(٧) القيامة الاية ١٧

(٨) الاعلى الاية ٦

(٩) انظر الانصاف للباقلاني ص ٩٧_٩٨

يفهم من كل ما تقدم من كلام الباقلاني أنه يرى أن كلام الله تعالى حقيقة هو الكلام النفسي القائم بذاته تعالى ، وأن نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم نزول اعلام وافهام بواسطة جبريل عليه السلام لا نزول حركة وانتقال ، فكلامه النفسي على حد رأي الباقلاني يستحيل عليه الانتقال ، وأما كلامه اللفظي الذي هو النظم العربي الذي علمه الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام فلا يستحيل عليه الانتقال ،والحركة لأنه قول جبريل عليه السلام وليس قول الله تعالى وان كان كلامه النفسي . (١)

وعلى هذا فالامام الباقلاني في قوله بأن كلام الله تعالى هو الكلام النفسي يوافق الاشاعرة ويخالف السلف ، ويمكن أن نورد الردود على مذهبه هذا فيما يلي :-

أولا : القرآن عند الباقلاني عبارة عن كلام الله تعالى وليس كلام الله حقيقة ، لأن الكلام عنده قائم بالنفس ان عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وان عبر عنه بالعربية كان قرآنا فهو عبارة عن كلام الله تعالى ، وليس كلام الله حقيقة ، وتسميته قرآنا أو كلاما مجاز من قبيل تسمية الدال بأسم المدلول ، لأن كلام الله تعالى عنده شيء واحد قائم بذاته تعالى لا يتعدد ولا يتبعض وهو الكلام النفسي .

فقد قال : (وكلام الله تعالى غير متبعض ولا متغاير) (٢)

وقال : (الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير) (٣)

فقوله بأن كلام الله تعالى قديم قائم بالنفس هو الذي ألجأه الى القول بأن الكتب المنزلة عبارة عن كلام الله ،وأن القرآن شيء واحد لا يتعدد ولا يتبعض .

ولا شك أن الباقلاني بهذا يوافق الاشاعرة أيضا (٤) في قولهم بوحدة الكلام الالهي ، وقولهم هذا مخالف لما عليه سلف الامة ، وايضا واضح البطلان ، فان لازمه أن معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين ، ومعنى سورة الاخلاص هو معنى ((تبت يدا أبي لهب وتب)) (٥)

---

(١) انظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص ٥٣٤
(٢) الانصاف للباقلاني ص ٢٧ ، وانظر ص ٦٠
(٣) نفس المصدر ص ١٠٧
(٤) انظر شرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص ٧٢
(٥) المسد الاية ١

وأما قول الباقلاني بأن هذا القرآن عبارة عن كلام الله تعالى فهو يصرح بأن القرآن العربي عبارة عن كلام الله ودال عليه ، وليس هو كلام الله على الحقيقة ، لأن كلامه تعالى غير بائن منه ، وهذا القرآن بائن منه ، وأصل القول بالعبارة أن ابن كلاب هو أول من قال أن معنى القرآن كلام الله ، وحروفه ليست كلام الله ، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة وقال هو حكاية عن كلام الله ، وجاء الاشعري من بعده وقال انه عبارة عن كلام الله تعالى لأن الكلام ليس من جنس العبارة فأنكر السلف عليهم عدة أمور :-

أحدها : قولهم أن المعنى كلام الله وأن القرآن العربي ليس كلام الله بل عبارة عنه .

الثاني : قولهم أن ذلك المعنى هو الامر والنهي والخبر وهو شيء واحد وهو معنى التوراة والانجيل والقرآن ، وأكثر العقلاء على أن هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل .

الثالث : أن ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله (١)

فمن قال ليس في المصحف كلام الله تعالى فقد أخطأ ، بل القرآن في المصحف وهو الذي أجمعت الامة عليه وهو الذي يعتقده المسلمين وقد اتفقوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو كلام الله حيث تلي وكتب وهو قرآن واحد وكلام واحد وان تنوعت الصور التي يتلى فيها ويكتب من أصوات العباد ومدادهم ، فان الكلام كلام من قاله مبتدئا لا كلام من بلغه مؤديا (٢)

والحق أن قول الباقلاني وغيره من الاشاعرة أن القرآن عبارة عن كلام الله تعالى وليس كلامه حقيقة قول فاسد معلوم البطلان وفي هذا يقول شارح الطحاوية : (وكلما تأمل الانسان هذا القول تبين له فساده وعلم أنه مخالف لكلام السلف ، والحق أن التوراة والانجيل والقرآن من كلام الله حقيقة وكلام الله تعالى لا يتناهى ، فانه لم يزل يتكلم بما شاء اذا شاء كيف شاء ولا يزال كذلك ، قال تعالى : ((قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا)) (٣)

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/٢٧٢-٢٧٤

(٢) انظر نفس المصدر ١٢/٢٤٠-٢٤١

(٣) الكهف الاية ١٠٩

وقال تعالى : ((ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله أن الله عزيز حكيم)) (١)

ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه ، ولو كان ما يقرؤه القارئ ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث قراءة القرآن ، بل كلام الله محفوظ في الصدور مقروء بالالسنة ، مكتوب في المصاحف) (٢)

فلا يجوز أن يقال ليس في المصحف كلام الله ولا ما قرأ القارئ كلام الله ، والله تعالى يقول : ((وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)) (٣)

وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وانما يسمعه من مبلغه عن الله وفي هذه الاية دلالة على فساد قول من قال ان المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله ، فان الله تعالى قال : ((حتى يسمع كلام الله)) ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله (٤)

والحق أن ما قاله الباقلاني من أن كلام الله معنى واحد قائم بالنفس لا يتعدد ولا يتبعض وأن ما في القرآن عبارة عن كلام الله تعالى كلام غير منطقي ومخالف لما عليه السلف فان الاصل في القرآن الحقيقة ، فمن قال : ان المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله ، أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله فقد تأول تأويلا مخالفا لما في الكتاب والسنة (٥)

ومن قال ان كلام الله تعالى معنى واحد قائم بنفسه تعالى ، وان المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ عبارة عن كلام الله تعالى وهو مخلوق ، فقد قال بخلق القرآن في المعنى وهو لا يشعر .

وبعد هذا يتبين لنا أن ما في القرآن الكريم كلام الله حقيقة وانه أنواع ، فمنه الامر والنهي ، ومنه الخبر والاستخبار ، ومنه النداء وهذا أمر بين واضح في كلام الله تعالى ، وهذا هو المنسجم مع الوحي ومع كلام الله تعالى وأوامره ونواهيه .

---

(١) لقمان الاية ٢٧

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٩

(٣) التوبة الاية ٦

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٢

(٥) انظر نفس المصدر ص ١٥٢

ثانيا : يقال للباقلاني وللاشاعرة عامة ولمن أثبت الكلام النفسي لله عز وجل دون الحرف والصوت ، أنه لا يقال لمن قام به الكلام النفسي ولم يتكلم به أن هذا كلام حقيقي ، ولا يلزم أن يكون الاخرس متكلما، ويلزم أن يكون الذي في المصحف ليس هو القرآن ولا كلام الله ، بل عبارة عن كلام الله (١)

ويجاب على ما استدل به الباقلاني من آيات قرآنية مثل قوله تعالى : ((ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير)) (٢)

وغيرها من الايات فليس فيما استدل به من الايات على اثبات أن الكلام الحقيقي هو الكلام النفسي حجة ، لأنّ الكلام اذا أطلق يراد به اللفظ والمعنى جميعا وهو قول السلف (٣) وليس المعنى وحده .

فاذا قيد الكلام بالنفس كما في الاية ولم يطلق فان دلالة المقيد على خلاف دلالة المطلق ، فدلالة المطلق تشمل اللفظ والمعنى جميعا على أنه يحتمل أنهم قالوا بألسنتهم قولا خفيا (٤)

وهذا ينطبق على باقي أدلته التى استدل بها لاثبات الكلام النفسي واليك الاجابة على أدلة الباقلاني النقلية واللغوية .

وأما ما احتج به بقوله تعالى : ((اذا جاءك المنافقون ... الاية))
فيقال له أقررت بأنه تعالى لم يكذب المنافقين في ألفاظهم ، وقد سماه قولا فقال : ((قالوا نشهد .... الاية)) ولما كانت الالفاظ المجردة غير كافية لاثبات ايمانهم وصدقهم فيه ، وانما يجب أن يقارنها ايمان القلب ، من أجل ذلك كذبهم في دعواهم ، فالذي كذبهم الله تعالى فيه هو الدعوى المجردة وعدم صحة ذلك منهم ، ولم يكذبهم في صحة كون ما نطقوا به قولا أو كلاما بل أقر ذلك وثبته ، وليس الخلاف بيننا في صدق القول أو كذبه ، وانما في ماهيته وحقيقته .

ويجاب هذا ايضا فيما استدل به بقوله صلى الله عليه وسلم :((يا معشر من آمن بلسانه ..... الحديث))

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص ١٥٤_١٥٥

(٢) المجادلة الاية ٨

(٣) انظر شرح الطحاوية ص ١٥٥

(٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/١٥

وأما ما احتج به بقوله تعالى : ((يعلم ما في أنفسكم ....الاية))
فليس هذا وارد في محل النزاع ، لأنَّ الخلاف انما هو في مسمى القول والكلام لا بقيام المعاني في القلب .

ويجاب بهذا على ما احتج به من قوله تعالى : ((الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان .... الاية)) فان الله تعالى لم يسم ما في القلب كلام وانما سماه ايمانا لأنَّ القلب موضعه ومحله في الاصل .

وتسمية ما في القلب كلاما راجع الى أصل الباقلاني في أن الايمان التصديق القلبي فقط - كما مر معنا - وهو عند السلف تصديق وقول وعمل حقيقة في هذا جميعا ، فرفع الله الحرج عن المكره رفعا مؤقتا للضرورة لا على أن الايمان هو التصديق فقط ، لأنَّه لو كان كذلك لما كان فرق بين حال الاكراه وعدمه ، ففيم الرخصة اذا ؟ وعلى تسليم كون ايمان المكره كلاما فانه مقيد بذكر القلب .

وأما ما استدل به من قول العرب "كان في نفسي كلاما " ونحو ذلك فاننا لا نخالف في صحته ، لكن ليس على مراد الاشاعرة وانما على مراد السلف من كون لفظ " الكلام " اذا جاء مقيدا ، كان التقييد قرينة دالة على اخراجه من الاطلاق ، فلما قيده العرب بالنفس أخرجوه من مطلق الكلام وصار مقيدا بما في النفس .

وأما قول عمر يوم السقيفة فيجاب عنه بأن معناه أنه قدر في نفسه كلاما وهيأه لم يتكلم به بعد ، فلا يعدكلاما حتى يتكلم به .

وأما ما استدل به من شعر الاخطل :

(فاستدلال فاسد ، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقالوا : هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول و العمليه ، فكيف وهذا البيت قد قيل انه مصنوع منسوب الى الاخطل ، وليس هو في ديوانه)(١)

فقد أنكر العلماء أنه من شعره وفتشوا دواوينه فلم يجدوه (٢)

وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله باسناد صحيح ولم يتلقه أهل اللغة بالقبول .

وعلى تقدير صحة نسبته اليه ، فانه لم يكن يرد المعنى الذي أراده المتكلمون من الاشاعرة ومنهم الباقلاني وهو اثبات حقيقة الكلام النفسي ولكنه قصد أن الانسان اذا أراد الكلام فانه يهيء الكلام في نفسه قبل أن يتكلم به ، فيزنه بعقله ثم يعبر عنه بلسانه .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٦،وانظر الايمان لابن تيمية ص ١٣٢

(٢) انظر العلو للذهبي ص ١٩٤

وعلى فرض أنه أراد هذا المعنى الذي قاله الباقلاني فانه نصراني مثلث ، وقد غلط النصارى قديما وضلوا في معنى الكلام وزعموا أن عيسى نفس كلمة الله ، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت ، أي شيء من الاله وشيء من الانسان أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب ؟ وأيضا فان معناه غير صحيح ، لأن لازمه أن الاخرس يسمى متكلما ، لقيام الكلام بقلبه ، وان لم ينطق به .

وقول الاشاعرة هذا ومنهم الباقلاني فيه شبه قوي من قول النصارى القائلين باتحاد اللاهوت بالناسوت ، لأنهم يقولون كلام الله هو المعنى القائم بذات الله ، وأما النظم المسموع فمخلوق ، فافهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت ، وهذا الاتفاق بين هؤلاء وبين النصارى مما يقضي بالعجب (١) وفي هذا يقول الامام ابن القيم - رحمه الله - في نونيته :-

(ودليلهم في ذاك بيت قاله xxx فيما يقال الاخطل النصراني

يا قوم قد غلط النصارى قبل في xxx معنى الكلام وما اهتدوا لبياني

ولاجل ذا جعلوا المسيح الهه xxx اذ قيل كلمة خالق رحمن

ولاجل ذا جعلوه ناسوتا ولا xxx هوتا قديما بعد متحدان

ونظير هذا من يقول كلامه xxx معنى قديم غير ذي حدثان

والشطر مخلوق وتلك حروفه xxx ناسوته لكن هما غيران

فانظر الى ذي الاتفاق فانه xxx عجب وطالع سنة الرحمن)(٢)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (كان مما يشنع به على هؤلاء انهم احتجوا في أصل دينهم ومعرفة حقيقة الكلام - كلام الله ، وكلام جميع الخلق - بقول شاعر نصراني يقال له الاخطل ..... وقد قال طائفة : ان هذا ليس من شعره ، وبتقدير أن يكون من شعره فالحقائق العقلية ، أو مسمى لفظ "الكلام" الذي يتكلم به جميع بني آدم لا يرجع فيه الى قول ألف شاعر فاضل دع أن يكون شاعرا نصرانيا اسمه الاخطل ، والنصارى قد عرف انهم يتكلمون في كلمة الله بما هو باطل) (٣)

---

(١) انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٣٢-١٣٤، وشرح الطحاوية ص ١٥٦-١٥٧ وشرح القصيدة النونية للهراس ص ١٠٧

(٢) القصيدة النونية الكافية الشافية لابن القيم ص ٣٤

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩٦/٦-٢٩٧

ويرد على الباقلاني ومن وافقه في القول بالكلام النفسي بقوله صلى الله عليه وسلم : ((ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس))(١)

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((ان الله يحدث من أمره ما يشاء وان مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة)) (٢)

(واتفق العلماء على أن المصلي اذا تكلم في الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته ، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة ، وانما يبطلها التكلم بذلك ، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام) (٣)

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ان الله تجاوز لامتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به))(٤)

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عفا عن حديث النفس الا أن تتكلم به ، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام ، وبين أنه لا يؤاخذ بما في نفسه حتى يتكلم به ، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء ، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة ، لأن الشارع خاطبنا بلغة العرب .

وأيضا فلفظ القول والكلام وما يصرف منهما ، انما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب اذا كان لفظا ومعنى (٥)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ٣٨١/١-٣٨٢ وأبو داود في كتاب الصلاة باب تشميت العاطس ٥٧١/١

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب رد السلام ٥٦٨/١ ، والنسائي في كتاب السهو باب الكلام في الصلاة ١٩/٣ ، وصححه الالباني في صحيح الجامع الصغير برقم (١٨٨٨) ١٤٧/٢ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق باب الطلاق في الاغلاق ١٩٦/٦ ، ومسلم في كتاب الايمان باب تجاوز الله عن حديث النفس ١١٦/١ ، وأبو داود في كتاب الطلاق باب في الوسوسة في الطلاق ٦٥٧/٢ ، والنسائي في كتاب الطلاق باب من طلق في نفسه ١٥٦/٦ ، وابن ماجة في كتاب الطلاق باب من طلق في نفسه ٦٥٨/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨

فقول الباقلاني في اثبات الكلام النفسي غير صحيح ، لان الكلام اذا أطلق يراد به اللفظ والمعنى جميعا ، وأما حديث النفس فلا يسمى كلاما الا اذا قيد ، وما ذهب اليه الباقلاني والاشاعرة لا يعضده دليل صحيح ولا يتصوره عقل سليم .

واذا قيل فما المذهب الصحيح في حقيقة كلام الله تعالى ؟ نقول يعتقد السلف أن القرآن كلام الله تعالى،منه بدأ وتكلم الله تعالى به بحروفه ومعانيه ، فأسمعه جبريل عليه السلام ، ونزل به جبريل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم وهو هذا اللسان العربي المبين النازل بلغة قريش واستدلوا على ذلك بما ورد من آيات كثيرة في كتاب الله تعالى منها :-

قوله تعالى : ((الم ، تنزيل الكتب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون أفتراه بل هو الحق من ربك)) (١)

وقوله تعالى : ((تنزيل ممن خلق الارض والسموات العلى)) (٢)

وقوله تعالى : ((وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم))(٣)

وغير ذلك من الايات .

فحقيقة كلام الله تعالى عند السلف هو (ما يسمع منه أو من المبلغ عنه ، فاذا سمعه السامع علمه وحفظه ، فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ ، فاذا قاله السامع فهو مقروء له متلو ، فان كتبه ، فهو مكتوب له مرسوم وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها) (٤)

فمذهب السلف أن القرآن كلام الله حقيقة غير مخلوق منه أبدا أي هو المتكلم به ابتداء لم يخلقه في غيره كما قالت المعتزلة والجهمية واليه يعود أي أنه يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا تبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف منه حرف كما جاء في الآثار :

((ان القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في

---

(١) السجدة الايات ١-٢

(٢) طه الاية ٤

(٣) النمل الاية ٦

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٢

القلوب منه آية)) (١) (٢)

وقد أثبت شيخ الاسلام ابن تيمية اتفاق السلف والائمة على هذا في أكثر من موضع من كلامه (٣)

وفي بيان عقيدة السلف في كلام الله تعالى يقول الامام عثمان بن سعيد الدارمي - رحمه الله - : (فالله المتكلم أولا وآخرا ، لم يزل له الكلام اذ لا متكلم غيره ، فيقول : ((لمن الملك اليوم))(٤) أنا الملك ، أين ملوك الارض ؟ فلا ينكر كلام الله عز وجل الا من يريد ابطال ما أنزل الله عز وجل ، وكيف يعجز عن الكلام من علم العباد الكلام وأنطق الانام ؟ قال الله تعالى في كتابه : ((وكلم الله موسى تكليما)) (٥)
فهذا لا يحتمل تأويلا غير نفس الكلام وقال لموسى : ((اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي))(٦) ...... وقال لقوم موسى حين اتخذوا العجل : ((أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا)) (٧)
وقال : ((عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين)) (٨) .... ففي كل ما ذكرنا تحقيق كلام

---

(١) أخرجه بنحوه ابن ماجة في كتاب الفتن والملاحم باب ذهاب القرآن والعلم ١٣٤٤/٢-١٣٤٥ ، والحاكم في المستدرك ٤٧٣/٤ ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وابن حبان في صحيحه انظر موارد الظمآن باب قبض روح المؤمن ورفع القرآن ص ٤٧١-٤٧٢، وذكره الالباني في السلسلة الصحيحة برقم (٨٧) ١٢٧/١، والحديث من طريق حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعا .

(٢) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٤٠٣/٣-٤٠٤ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٥٢٩/١٢-٥٣٠،وشرح الطحاوية ص ١٥٢-١٥٣،ولوامع الانوار البهية ١/ ١٣٣ ،وقطف الثمر لصديق خان ص ٧٣ .

(٣) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٢٨/٦، ١٦٤/١٢

(٤) غافر الاية ١٦

(٥) النساء الاية ١٦٤

(٦) الاعراف الاية ١٤٤

(٧) طه الاية ٨٩

(٨) الاعراف الاية ١٤٧

الله وتثبيته نصا بلا تأويل ، ففيما عاب الله به العجل في عجزه عن القول والكلام ، بيان أن الله عز وجل غير عاجز عنه ، وأنه متكلم وقائل ، لأنه لم يكن يعيب العجل بشيء هو موجود فيه) (١)

فالسلف يرون أن الله تعالى يتكلم على الحقيقة وأن القرآن الكريم كلام الله على الحقيقة ، وأنه عز وجل يتكلم بحرف وصوت ، وأن كلامه لا يشبه كلام الخلق .

ثالثا : أما قول الباقلاني أن المنزول به هو اللغة العربية أي النظم العربي وليس كلام الله حقيقة لأن كلام الله عنده قائم بذاته تعالى لا ينتقل كما تقدم عنه .

ويرى أيضا - كما مر معنا - أن النازل على الحقيقة المنتقل من قطر الى قطر هو قول جبريل عليه السلام ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ((انه لقول رسول كريم)) (٢)

وعلى كلامه هذا فان النازل على الحقيقة ليس هو قول الله تعالى بل هو قول جبريل ، لأن الكلام عنده حقيقة في الكلام النفسي ، وهذا يستحيل عليه الانتقال ، أما اللفظ فهو قول جبريل ، فلا يستحيل عليه الانتقال ويبين الباقلاني أنه انتقل من الله تعالى الى جبريل عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم بالاعلام والافهام ، وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أن قول الكلابية وبعض الاشاعرة في نزول القرآن ،وأن انزاله عندهم بمعنى الاعلام به وافهامه للملك أو نزول الملك بما فهمه (٣) فيقولون علمه الله النظم العربي وأفهمه اياه وعلم جبريل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم النظم العربي الذي هو قراءته .

وأما ما استدل به وهو قوله تعالى : ((انه لقول رسول كريم)) (٤) فلم يوفق في بيان معنى وتفسير هاتين الايتين حيث جعل الرسول في الايتين هو جبريل وأن القرآن قوله ، ويريد بهذا أن الرسول وهو جبريل أحدث الكلام .

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص٨٢-٨٤،وانظر درء التعارض لابن تيمية ٢/٦٠-٦٢

(٢) الحاقة الاية ٤٠ ، والتكوير الاية ١٩

(٣) رسالة التبيان في نزول القرآن لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٢١٥/١

(٤) الحاقة الاية ٤٠ ، والتكوير الاية ١٩

والصحيح أن هذه الاية وردت في القرآن الكريم في سياقين :ـ

في قوله تعالى : ((انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين))(١)

وفي قوله تعالى : ((انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين)) (٢)

والمراد بالرسول في السياق الاول هو محمد عليه الصلاة والسلام لان سياق الايات يدل على أن المراد تنزيه كون هذا القول وهو القرآن أن يكون قول شاعر أو كاهن ، والذي وصفه الكفار بالشعر والكهانة هو محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ((بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر)) (٣)

فأبطل الله تعالى وصفهم اياه بذلك باثبات أنه قول رسول كريم تمنعه أخلاقه وأصالته من التقول والافتراء ، وهذا قول جمهور المفسرين (٤)

والمراد بالرسول في السياق الثاني جبريل عليه السلام والدليل على ذلك وصفه بقوله : ((ذي قوة عند ذي العرش مكين)) وهو جبريل عليه السلام ، وقد اتفق المفسرون على ذلك ايضا .

فلو كان أضافه الى الرسول لكونه أحدث حروفه وأنشأه لتناقض الخبران ، لأنه اذا كان أحد الرسولين أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها وقد أضافه الله تعالى الى رسول من الملائكة تارة ورسول من البشر تارة أخرى .

وقد أضافه الله تعالى الى كل منهما بقول رسول لان ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره وأنه رسول فيه لم يحدث منه شيئا ، فلو أحدث منه شيئا لم يكن رسولا فيما أحدثه ، بل كان منشأ له من تلقاء نفسه .

وأيضا فانه قال : ((لقول رسول كريم)) ولم يقل لقول ملك أو نبي ، والرسول يقتضي مرسلا له ، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله لا أنه أحدث منه شيئا من تلقاء نفسه ، وهذا يدل على انه أضافه الى الرسول لأنه بلغه وأداه ، لا انه أنشأ منه شيئا .

---

(١) الحاقة الايات ٤٠ـ٤٣

(٢) التكوير الايات ١٩ـ٢١

(٣) الانبياء الاية ٥

(٤) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٥٤/٨

وأيضا فان الاية تدل على أن الرسول كريم أمين لا يزيد في الكلام ولا ينقص منه ويبلغه كما أمر بتبليغه ، وهو أمين على ما أرسل به ، ولو كان الرسول قد أنشأه لما كان أمينا على رسالته .

وأيضا فان الله توعد بسقر لمن زعم أنه قول البشر كما قال: ((انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر)) (١)

ولا فرق بين أن يدعى أنه قول بشر أو جني أو ملك ، فمن جعله قولا لاحد من هؤلاء فقد كفر .

وأيضا فان الله تعالى قد جعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول انه قول البشر فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله لا انه قول له من جهة نفسه ، لأنه كلام الله تعالى الذي أرسله ،ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ويقول : ((ألا رجل يحملني الى قومه لابلغ كلام ربي فان قريش قد منعوني أن أبلغ كلام ربي)) (٢)

والكلام كلام من قاله مبتدئا لا كلام من قاله مبلغا مؤديا (٣)

وفي قوله تعالى : ((قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين)) (٤) فيه بطلان لقول الباقلاني وغيره ممن يجعل القرآن عبارة عن النظم العربي وأنه قول جبريل .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في هذه الاية : (ان هذه الاية تبطل قول من يقول ان القرآن العربي ليس منزلا من الله بل مخلوق اما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما كما يقول الكلابية والاشعرية الذين يقولون : القرآن العربي ليس هو كلام الله وانما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ، ثم اما أن يكون خلق في بعض الاجسام

---

(١) المدثر الايات ١٨-٢٦

(٢) ذكره بمعناه في عدة مواضع ابن حبان في الثقات في باب ذكر عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل ١/٨٠ فما بعدها .

(٣) انظر هذه الردود في مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/١٣٥-١٣٧،٢٦٥،٥٥٤-٥٥٦ ورسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣/٤٣٨-٤٣٩ ، وقاعدة نافعة في صفة الكلام لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٢/٦٥-٦٦ ، وشرح الطحاوية ص ١٤٤-١٤٥

(٤) النحل الاية ١٠٢

الهواء أو غيره أو الهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي والهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربي أو يكون جبريل أخذه من اللوح المحفوظ أو غيره)(١)

وبهذا يبطل قول من يقول انه القي لجبريل معاني وأن جبريل عبر عنها بالكلام العربي ٠

من كل ما تقدم يتبين لنا أن قول الباقلاني أن القرآن النازل على الحقيقة هو قول جبريل قول لا أساس له من الصحة لأن القرآن كلام الله تعالى على الحقيقة سمعه جبريل من الله تعالى وبلغه كما سمعه ٠

وفي الحقيقة أن قولهم هذا وهو اعتقادهم أن القرآن العربي مخلوق هو عين قول المعتزلة والجهمية بخلق القرآن وان كان يفارقه من وجهين:

أحدهما :- أن المعتزلة يقولون أن المخلوق كلام الله والاشاعرة يقولون انه ليس كلام الله ، لكن يسمى كلام الله مجازا ، ويجعلون القرآن العربي كلاما لغير الله وهذا شر من قول المعتزلة ، وهو حقيقة قول الجهمية ٠

الثاني : أن هؤلاء الاشاعرة يقولون : لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته تعالى ، والمعتزلة يقولون لا يقوم بذاته كلام ، ومن هذا الوجه فالاشاعرة خير من المعتزلة ، لكن جمهور الناس يقولون أن هؤلاء الاشاعرة لا يثبتون عند التحقيق كلاما له حقيقة غير مخلوق ، بل يقولون ان كلامه معنى واحد ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وان عبر عنه بالعبرية كان توراة ٠٠٠٠٠ ٠٠٠ وجمهور العقلاء على فساد هذا بالضرورة (٢)

وقد ذهب علماء السلف الى أن النزول جاء في القرآن الكريم على أنواع منها : نزول مقيد بأنه من الله تعالى وهذا لم يرد الا في نزول القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ((حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)) (٣)

وقوله تعالى:((قل نزله روح القدس من ربك بالحق)) (٤)

---

(١) رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٤٢٨/٣-٤٢٩

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢١/١٢-١٢٢، ورسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٤٢٩/٣ ، وقاعدة نافعة في صفة الكلام لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٥٣/٢-٥٤

(٣) غافر الايتان ١-٢

(٤) النحل الاية ١٠٢

وقوله تعالى : ((والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)) (١)

وهناك نزول مقيد بالسماء والمراد به العلو مثل انزال المطر. قال تعالى : ((أنزل من السماء ماء)) (٢) ويتناول نزول الملائكة وغيره .

وهناك نزول مطلق ليس مقيد لا بأنه من الله تعالى ولا من السماء فلا يختص بنوع من الانزال ، بل ربما يتناول الانزال من رؤوس الجبال كقوله تعالى : ((وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد)) (٣) والانزال من ظهور الحيوان كانزال الفحل الماء وغير ذلك .

وأما النزول المقيد بأنه من الله تعالى فلم يرد الا في نزول القرآن (٤) فالذي عليه السلف والائمة أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بألفاظه ومعانيه ، نزل به جبريل عليه السلام بعدما سمعه من الله تعالى وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل ، وسمعه الصحابة رضي الله عنهم من النبي صلى الله عليه وسلم .

بدليل قول الله تعالى : ((قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله)) (٥) وقوله تعالى : ((نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)) (٦)

وقال تعالى : ((واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ، قل نزله روح القدس من ربك بالحق)) (٧)

---

(١) الانعام الاية ١١٤

(٢) الحج الاية ٦٣

(٣) الحديد الاية ٢٥

(٤) انظر رسالة التبيان في نزول القرآن لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١/٢١٥-٢١٧ ، وقاعدة في صفة الكلام لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٢/٥١ ، ومجموع الفتاوى له ١٢/١١٨ ، وشرح الطحاوية ص ١٥٣-١٥٤

(٦) البقرة الاية ٩٧

(٦) الشعراء الايات ١٩٣-١٩٥

(٧) النحل الايتان ١٠١-١٠٢

فأخبر سبحانه أنه نزّله روح القدس - وهو الروح الامين جبريل عليه السلام - من الله بالحق على قلب النبي صلى الله عليه وسلم على الحقيقة ، وليس لجبريل عليه السلام ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم الا التبليغ والاداء (١)

---

(١) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٥٠/٣ ، ٤٥٢ ، وقاعدة نافعة في صفة الكلام له ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٥١/٢ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩٨/١٢-٢٩٩ ، وشرح الطحاوية ص ١٥٣

٢- رأي الامام الباقلاني في مسألة الحرف والصوت :-

ينكر الامام الباقلاني أن يكون كلام الله تعالى بحرف وصوت ويرى أن كلام الله تعالى لا يتصف بالحروف والاصوات ولا شيء من صفات الخلق ، وانه تعالى لا يفتقر في كلامه الى مخارج ، وأدوات بل يتقدس عن جميع ذلك (١)

وفي الحقيقة ان حجته في هذا ، ان اثبات الحرف والصوت يقتضي تشبيه الله تعالى بخلقه في أن يكون متصف بالمخارج لهذه الحروفوا لاصوات فيكون كلامه يشبه كلام خلقه ، لأن الحرف والصوت من صفات كلام الخلق .

من أجل هذا فقد بذل الامام الباقلاني جهده في ابطال كلام من يقول بأن الله يتكلم بحرف وصوت (٢)

واستدل على نفي الحرف والصوت عن كلام الله تعالى بأدلة كثيرة نذكر منها :-

أنه قد ثبت أن من شرط الصفة قيامها بالموصوف ، ومن المعلوم أن حد القديم ما لا أول لوجوده ، ولا آخر لدوامه ، وأن القديم لا يدخله العد والحصر ، ومن المعلوم أن هذه الحروف والاشكال لم تحدث قبل حركة الكاتب ، وانما يحدثها الله مع حركة الكاتب شيئا فشيئا ، وهي مختلفة الصور ، ويدخلها العد والحصر ، وتعدم بعد وجودها وما كان كذلك فهو صفة المخلوق المحدث لا صفة الخالق .

وأيضا فان الحروف في الكلمة يقع بعضها سابقا لبعض فالكاتب " بسم " يكتب الباء قبل السين ، والسين قبل الميم ، وكذلك الاصو ت يتقدم بعضها عن بعض ، ويتأخر بعضها عن بعض ، وما تقدم بعضه على بعض ، وتأخر بعضه عن بعض فهو صفة المخلوق لا صفة الخالق (٣)

وأيضا : (فان الحروف تحتاج الى مخارج ، فحرف الشفة غير حرف اللسان ، وحرف الحلق غيرهما ، فلو كان تعالى يحتاج في كلامه الى الحرف لاحتاج الى المخارج وهو منزه عن جميع ذلك سبحانه وتعالى) (٤)

والامام الباقلاني بهذا الرأي موافق لجمهور الاشاعرة (٥) القائلين بنفي الحرف والصوت عن كلام الله تعالى ، لأن الكلام عندهم نفسي ، والكلام

---

(١) انظر الانصاف للباقلاني ص ٩٩ (٢) انظر نفس المصدر ص ١١٨-١٢٠، ص١٢٨-١٣٦

(٣) انظر نفس المصدر ص ٩٩-١٠٠ (٤) الانصاف للباقلاني ص ١٠٣

(٥) انظر المواقف للايجي ص٢٩٣-٢٩٤، ولمع الادلة للجويني ص ١٠٥ ، وقواعد العقائد للغزالي ص١٨٢-١٨٣، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص ٧١

المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم يرون أنه حادث مخلوق لأنه ليس كلام الله تعالى حقيقة ، بل هو عبارة عن كلام الله تعالى كما مر معنا .

وفي الحقيقة أن الامام الباقلاني ومن وافقه من الاشاعرة وغيرهم في انكارهم أن الله يتكلم بحرف وصوت ليس معهم دليل بل جل اعتمادهم على شبهة أن اثبات الحرف والصوت في كلام الباري تعالى يقتضي تشبيه الله بخلقه في اتصاف كلامه بالمخارج والادوات ، فيكون كلامه يشبه كلام خلقه والله منزه عن ذلك .

وقد بين ابن تيمية - رحمه الله - أن أصل الخطأ في هذه المسألة عدم التفريق بين الخالق وصفاته ، والمخلوق وصفاته ، فان السلف متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ، ومتفقون على أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم حروفه ومعانيه ، والقرآن مكتوب في المصاحف ، ومحفوظ بالقلوب ، ومتلو بالالسنة وهو كله كلام الله تعالى (١)

وقول الامام الباقلاني بأن كلامه تعالى لو كان بحرف وصوت لاقتضى اتصاف الله بالمخارج والجوارح والادوات قول باطل ، لأنّ هؤلاء الاشاعرة ما فهموا من كلام الله تعالى الا ما فهموه من كلام الخلق ، فقالوا : ان قلنا بالحروف فان ذلك يؤدي الى القول بالجوارح واللهوات (٢) واذا قلنا باثبات الصوت أدى ذلك الى القول بالحلق والحنجرة (٣)

وقد رد عليهم الجويني والد امام الحرمين (٤) بقوله : (والتحقيق هو أن الله تعالى قد تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فانه قادر والقادر لا يحتاج الى جوارح ولا الى لهوات ، وكذلك له صوت كما يليق به

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٢/٥٨٥-٥٨٦

(٢) اللهوات جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم

(٣) انظر مسألة في اثبات الحرف والصوت للجويني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١/١٨٤

(٤) هو عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيسويه الشيخ أبو محمد الجويني،شيخ الشافعية ،وهو والد امام الحرمين،تفقه بنيسابور على أبي الطيب الصعلوكي وتصدر للفتوى والتدريس والتصنيف بنيسابوروتوفي في ذي القعدة سنة ٤٣١هـ من مصنفاته كتاب المختصر وهو مختصر المزني،والتبصرة والتذكرةفي الفقه وغيرذلك انظرالبداية والنهاية ١٢/٥٩،والعبر للذهبي٢/٢٧٤،وشذرات الذهب ٣/٢٦١

يسمع ، ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس الى الحلق والحنجرة ، فكلام الله تعالى كما يليق به وصوته كما يليق به ، ولا ننفي الحرف والصوت عن كلامه سبحانه لافتقارهما منا الى الجوارح واللهوات فانهما من جناب الحق تعالى لايفتقران الى ذلك وهذا ينشرح الصدر له ، ويستريح الانسان به من التعسف والتكلف)(١)

وقد بين الامام ابن حجر - رحمه الله - أن حاصل احتجاج من ينفي الحرف والصوت الرجوع الى القياس على أصوات المخلوقين لانها التي عهد أنها ذات مخارج ، ورد عليهم بقوله : (ولا يخفى ما فيه اذ الصوت قد يكون من غير مخارج .... لكن نمنع القياس المذكور ، وصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوق ، واذا ثبت ذكر الصوت بهذه الاحاديث الصحيحة وجب الايمان به)(٢)

وهذا صحيح فان احتياج الحرف والصوت في حق المخلوق الى الجوارح والادوات لايوجب ذلك في كلام ربنا تعالى عن ذلك ، على أن هناك بعض المخلوقات لم تحتج في كلامها الى مخارج كالايدي والارجل والجلود التى تتكلم يوم القيامة والحجر الذي سلم على النبي صلى الله عليه وسلم (٣) والحصى الذي سبح في كفه (٤) والذراع المسمومة التي كلمته (٥) (٦)

وقد بين الامام البخاري اثبات الصوت لله عز وجل ونفي مشابهته لاصوات المخلوقين واستدل على ذلك بأحاديث كثيرة فقال : (ويذكر عن النبي

---

(١) مسألة في اثبات الحرف والصوت للجويني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١٨٤/١

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٤٥٨/١٣

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه ١٧٨٢/٤،والترمذي في المناقب باب في آيات اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وقال حديث حسن ٥٥٣/٥،والدارمي في المقدمة ١٢/١ من حديث واثلة بن الاسقع .

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ٥٤٣/٢،والطبراني في الاوسط والبزار انظر مجمع الزوائد ١٧٩/٥،٢٩٨/٨-٢٩٩،وقال الالباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم حديث صحيح ٥٤٣/٢،والحديث من رواية أنس وأبي ذر رضي الله عنهما

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الديات باب فيمن سقى رجل سما ٦٤٧/٤،والدارمي في المقدمة ٣٣/١،من حديث جابر وفيه انقطاع بين الزهري وجابر لان الزهري لم يسمع من جابر ،انظر تفصيل ذلك في فتح الباري ٤٩٧/٧

(٦) انظر لوامع الانوار للسفاريني١٣٩/١-١٤٠،وقطف الثمر لصديق خان ص ٨٠-٨١

صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض الصوت ، ويكره ان يكون رفيع الصوت ، وأن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعدكما يسمعه من قرب ، وليس هذا لغير الله عز وجل ، وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق لأنّ صوت الله عز وجل يسمع من بعد كما يسمع من قرب)(١)

كما قد رد الامام أحمد - رحمه الله - على هذه الشبهة ردا شافيا حيث قال : (وأما قولهم : ان الكلام لا يكون الا من جوف وفم وشفتين ولسان أليس الله قال للسموات والارض : ((ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين)) (٢) ...... وقال : ((وسخرنا مع داود الجبال يسبحن)) (٣) أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين ؟ والجوارح اذا شهدت على الكافر فقالوا : ((لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلشيء))(٤) أتراها أنها نطقت بجوف وفم ولسان ؟ ...... ولكن الله أنطقها كيف شاء وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير أن يقول بجوف ولا فم ولا شفتين ولا لسان)(٥)

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أن كلام الله تعالى اذا كان بحرف وصوت لا يقتضي تشبيهه بكلام المخلوق لأنّ صفات الله تعالى لا تماثل صفات المخلوق ، فالصوت الذي ينادي به عباده يوم القيامة ، والصوت الذي سمعه منه موسى عليه السلام ليس كأصوات شيء من المخلوقات فان الله تعالى لا يماثل المخلوقين في شيء من الصفات (٦)

والسؤال بأن كلام الله هل هو بحرف وصوت أم لا ؟

علماء السلف على أن اطلاق الجواب في هذه المسألة نفيا واثباتا خطأ ، وهي من البدع الحادثة بعد المائة الثالثة ، فان ابن كلاب والاشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة في اثبات الصفات ، والرد عليهم بأن القرآن ليس بمخلوق ، ورأوا أن ذلك لا يتم الا اذا كان القرآن قديما ولا يمكن أن

---

(١) خلق أفعال العباد للبخاري ضمن عقائد السلف ص ١٩٢، وانظر مختصر الصواعق لابن القيم ٤١٨/٢

(٢) فصلت الاية ١١

(٣) الانبياء الاية ٧٩

(٤) فصلت الاية ٢١

(٥) الرد على الجهمية للامام أحمد بن حنبل تحقيق د/عميرة ص ١٣١

(٦) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٨٨/٣

يكون قديما الا أن يكون معنى قائما بنفس الله ، وزادوا أن الله لا يتكلم بصوت ، ولاحرف ، ومن أجل هذا فقد جهم الامام أحمد وغيره من أنكر ذلك .

(قال عبد الله بن أحمد قلت لابي : ان أقواما يقولون ان الله لا يتكلم بصوت فقال : هؤلاء جهمية انما يدورون على التعطيل وذكر حديث ابن مسعود : ((اذا تكلم الله بالوحي سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان)) (١) فقال أبي : بلى تكلم الله تبارك وتعالى بصوت)(٢)

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أنه لما أظهر الاشاعرة كالقاضي الباقلاني وغيره في أواخر المائة الرابعة أن الكلام ليس بحرف ولا صوت وقد تبعهم على ذلك بعض الفقهاء من أصحاب المذاهب الاربعة ، رأى أهل الحديث وجمهور أهل السنة ما في ذلك من البدعة فأظهروا خلاف ذلك وأطلق من أطلق منهم أن كلام الله حرف وصوت (٣)

وعلى هذا فالذي عليه أئمة السلف وأهل الحديث أن الله يتكلم بحرف وصوت ، مع أن كلامه لا يشبه كلام خلقه ، ولا صوته يشبه أصواتهم ، فان القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه ، ليس شيئا منها كلاما لغيره ،وليس القرآن اسما لمجرد المعنى ولا لمجرد الحرف بل لمجموعهما ، وأن الله يتكلم بصوت على ما جاءت به الآثار ، وليس صوته كأصوات العباد ، وأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فكلامه تعالى لا يشبه كلام المخلوق ولا معانيه تشبه معاني المخلوق ، ولا حروفه تشبه حروف المخلوق ولا صوت الرب يشبه صوت المخلوق (٤)

وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية هذا عن السلف فقال : (وقد نص أئمة الاسلام أحمد ومن قبله من الائمة على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت ليس منه شيء كلاما لغيره ، لا جبريل ولا غيره ، وأن العباد يقرؤنه بأصواتهم وأفعالهم فالصوت المسموع من العبد صوت القاريء ، والكلام كلام الباري)(٥)

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ٢٨١/١ ،والبخاري بمعناه في خلق أفعال العباد بسند صحيح ص١٩٣ ،ضمن عقائد السلف

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٧٩/١٢-٥٨٠ ،ودرء التعارض له ٣٩/٢ ،ورسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٥٥/٣ ومختصر الصواعق المرسلة ٤٣٤/٢-٤٣٥

(٣) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٨١/١٢

(٤) انظر نفس المصدر ٢٤٤/١٢ (٥) نفس المصدر ٥٨٤/١٢-٥٨٥

وهو قول الامام البخاري ـرحمه الله ـ فقد ترجم له باب في صحيحه في قوله : ((حتى اذا فزع عن قلوبهم)) أقام فيه الحجة على أن الله يتكلم بصوت (١)

وكذلك في كتابه خلق أفعال العباد، وغيره من أئمة الحديث ، وهو قول بعض أئمة الصوفية كالحارث المحاسبي وغيره ، وكذلك الفقهاء من المالكية ، والشافعية ، والحنفية ، والحنبلية قد اتفقوا على أن القرآن جميعه كلام الله تعالى حروفه ومعانيه ، وأن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الاحاديث الصحاح (٢)

وهو قول امام الائمة محمد بن خزيمة ، وأبو نصر السجزي (٣) وشيخ الاسلام الانصاري ، وأبو عمر الطلمنكي (٤) ، كلهم يصرحون بأن الله يتكلم بصوت (٥)

وأدلة السلف على اثبات الحرف والصوت في كلام الله تعالى كثيرة فمن الادلة على اثبات الحرف أن الله تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه ، قال تعالى : ((الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين))(٦)

---

(١) صحيح البخاري ١٩٤/٨

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤٣/١٢، ٥٨٠

(٣) هو الامام الحافظ عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوايلي البكري،أبو نصر السجزي نسبة الى قرية من قرى سجستان يقال لها وايل،سمع الكثير وصنف وخرّج وأقام بالحرم،له كتاب الابانة في الاصول،وله مصنفات في الفروع أيضا توفي سنة ٤٦٩هـ

انظر البداية والنهاية ١٢٥/١٢،وتذكرة الحفاظ للذهبي ١١١٨/٣ـ١١١٩

(٤) هو أحمد بن محمد بن أبي عبد الله المعافري،القرطبي الاندلسي الفقيه المالكي الاصولي،المحدث،وكنيته أبو عمر الطلمنكي،نسبة الى طلمنكة بلدة من ثغر الاندلس،مات بها سنة ٤٢٩هـ ،ألف كتبا كثيرة منها الدليل الى معرفة الجليل،والبيان في أعراب القرآن،وفضائل مالك وغير ذلك

انظر شجرة النور الزكية ص ١١٣،والفتح المبين ٢٣٢/١ـ٢٣٣،وأصول الفقه تاريخه ورجاله د/ شعبان اسماعيل ص ١٥٤ـ١٥٥

(٥) انظر مختصر الصواعق المرسلة ٤٣٥/٢ فما بعدها .

(٦) البقرة الايتان ١ـ٢

وقال : ((المـــر)) (١) و((المـــص)) (٢) و ((كهيعص))(٣)
وقال : ((ق ، والقرآن المجيد)) (٤)

ولا يخطر ببال أحد أن هذه ليست حروف ، وليس لها تسمية الا هذه فمن لم يقل ان هذه الاحرف كلام الله عز وجل ، فقد خرق من الدين ، وخـــرج عن جملة المسلمين ، ومن أنكر أن تكون حروفا فقد كابر المعقول وأتـــــى بالبهتـــان (٥)

وأما أدلتهم من السنة فمنها :-

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : ((من قرأ حرفا من كتاب الله ، فله به حسنة ، والحسنة بعشـــر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف،ولام حرف،وميم حرف)) (٦)

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : ((كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم مفسرة حرفا حرفا)) (٧)

أما أدلتهم على اثبات الصوت لله عز وجل فقد قامت عليه الادلـة القاطعة من الكتاب والسنة ، فقد أخبر الله تعالى عن نفسه بالنداء فـــي أكثر من عشرة مواضع نذكر منها :-

قوله تعالى : ((فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقـــا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكمـــا الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين))(٨)

---

(١) الرعد الاية ١

(٢) الاعراف الاية ١

(٣) مريم الاية ١ (٤) ق الايتان ١-٢

(٥) انظر مسألة في اثبات الحرف والصوت للجويني ضمن مجموعة الرسائـــل المنيرية ١٨٤/١،وقطف الثمر لصديق خان ص ٧٧

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الاجر ١٦١/٥،وقال حديث حسن صحيح ويروي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن مسعود ايضا .

(٧) أخرجه أبو داود بنحوه في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة ١٥٤/٢،والترمذ ي في فضائل القرآن باب ماجاء في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ١٦٧/٥،من حديث ام سلمة وقال حديث حسن صحيح ،والنسائي في كتاب الصلاة باب تزيين القرآن بالصوت ١٨١/٢

(٨) الاعراف الاية ٢٢

وقال تعالى : ((ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون)) (١)

وقال تعالى : ((ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين))(٢)

وذكر الله تعالى نداءه لموسى عليه السلام في أكثر من موضع من القرآن الكريم فقال تعالى : ((فلما آتاها نودي يا موسى ، اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى)) (٣)

وقال تعالى : ((هل اتاك حديث موسى اذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى)) (٤)

وقال تعالى : ((وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا))(٥)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (والنداء في لغة العرب : هو صوت رفيع لا يطلق النداء على ما ليس بصوت ، لا حقيقة ولا مجازا) (٦)

وقال في موضع آخر : (والنداء باتفاق أهل اللغة لا يكون الاصوتا مسموعا ، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم ، وأهل الكتاب يقولون ان موسى ناداه ربه نداء سمعه باذنه وناداه بصوت سمعه موسى ، والصوت لا يكون الا كلاما ، والكلام لا يكون الا حروفا منظومة) (٧)

وأما أدلتهم من السنة فمنها ما رواه عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من النار يطلبه بمظلمة))(٨)

---

(١) القصص الاية ٦٢

(٢) القصص الاية ٦٥

(٣) طه الايتان ١١-١٢

(٤) النازعات الايتان ١٥-١٦

(٥) مريم الاية ٥٢

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٣١/٦

(٧) رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٧١/٣

(٨) أخرجه البخاري تعليقا بصيغة المبني للمجهول في كتاب التوحيد باب رقم ٣٢ ١٩٤/٨ ،من حديث عبد الله بن أنيس،وفي خلق أفعال العباد ص١٩٢ ،موصولا عن أبي موسى رضي الله عنه ،وابن أبي عاصم في السنة ٢٢٥/١ ،وقال الشيخ الالباني حديث صحيح

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك فينادي بصوت ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا الى النار))(١)

وعن ابن مسعود : ((اذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئا فاذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق من ربكم ونادوا ماذا قال ربكم قالوا الحق)) (٢)

وغير هذه الاحاديث كثير جدا ، فقد روي في اثبات الحرف والصوت أحاديث تزيد على أربعين حديثا بعضها صحاح وبعضها حسان احتج بها الامام ضياء الدين المقدسي (٣) وأخرجها الامام أحمد واحتج بها ، وأخرجها الحافظ ابن حجر واحتج بها كما احتج بها البخاري وغيره من أئمة الحديث على أن الله جل وعلى يتكلم بحرف وصوت وصرحوا بذلك وقالوا انه يتكلم بحرف وصوت لا يشبهان صوت المخلوق ولا حرفه (٤)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :(واستفاضت الاثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه سبحانه ينادي بصوت ، نادى موسى بصوت ، وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال : ان الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ، ولا انه أنكر أن يتكلم الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب رقم ١٩٥/٨،٣٢،وفي خلق أفعال العباد ضمن عقائد السلف ص ١٩٣

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود موقوفا في كتاب التوحيد باب رقم ١٩٤/٨،٣٢ ، ووصله مرفوعا أبو داود في كتاب السنة باب في القرآن ١٠٦/٥ قال الشيخ الالباني في السلسلة الصحيحة ٢٨٣/٣،اسناده صحيح على شرط الشيخين

(٣) أبو عبد الله :محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السعدي ضياء الدين المقدسي الصالحي الحنبلي محدث عصره ، ولد في دمشق سنة ٥٦٩ هـ وتوفي فيها سنة ٦٤٣هـ بنى مدرسة في دمشق بسفح جبل قاسيون تسمى دار الحديث الضيائية ،من مصنفاته مناقب أصحاب الحديث،وفضائل القرآن وغير ذلك انظر الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٣٦/٢-٢٤٠، وشذرات الذهب ٢٢٤/٥ والاعلام للزركلي ٢٥٥/٦

(٤) انظر لوامع الانوار للسفاريني ١٤٣/١

بصوت أو حرف) (١)

فهذا هو مذهب علماء السلف وهو الصواب الموافق لما جاء في الكتاب والسنة ، والموافق ايضا لصريح العقول وهو الذي تطمئن اليه القلوب ويكفينا في ترجيح هذا انهم استدلوا عليه بكلام الله تعالى وبما جاء به الوحي الالهي .

---

(١) رسالة في تحقيق مسألة كلام [illegible] لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣/٣٥٥

٣- رأي الامام الباقلاني في قدم الكلام الالهي :-

يرى الامام الباقلاني -رحمه الله - أن كلام الله تعالى قديم وأنه صفة من صفات ذاته قديم بقدمه موجود بوجوده موصوف به فيما لم يزل وفيما لا يزال (١)

وقال في بيان ذلك : (وان كلامه قديم ليس بمخلوق ولا مجعو لولا محدث بل كلامه قديم صفة من صفات ذاته كعلمه وقدرته وارادته ونحو ذلك من صفات الذات) (٢)

واستدل على اثبات قدم كلام الله تعالى بأدلة كثيرة سمعية وعقلية :

أولا : الادلة السمعية : استدل الامام الباقلاني على اثبات قدم كلام الله تعالى من الكتاب والسنة والاجماع ، نذكر منها ما يلي :-

١- من القرآن : استدل بقوله تعالى : ((انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)) (٣)

ووجه استدلاله بالاية أنه لو كان كلامه مخلوق وليس قديم لاحتاج في خلقه الى قول يقول به " كن" واحتاج هذا القول الى قول ثالث،والثالث الى رابع ويلزم التسلسل وهو محال ، فثبت بذلك أن القول الذي تكون به الاشياء المخلوقة غير مخلوق وهو كلامه القديم (٤)

٢- واستدل بقوله تعالى : ((الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين)) (٥)

ووجه استدلاله بهذه الاية أن الله سبحانه وتعالى قد فصل بين الخلق والامر فدل ذلك على أن الامر غير مخلوق لان كلامه تعالى غير مخلوق وهو قديم قائم بذاته (٦)

٣- واستدل من السنة بقوله صلى الله عليه وسلم : ((فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر

---

(١) انظر الانصاف للباقلاني ص ٧١

(٢) نفس المصدر ص ٧١

(٣) النحل الاية ٤٠

(٤) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٣٧،والانصاف له ص ٧١

(٥) الاعراف الاية ٥١

(٦) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٤٠،والانصاف له ص ٧١

خلقـــــه)) (١)

ووجه الاستدلال بهذا الحديث أن فضل الله تعالى على خلقه لمـــا كان بقدمه وبقائه لانه غير مخلوق وهم مخلوقون ، فكذلك كلامه غير مخــلوق وكلامهم مخلوق (٢)

٤- واستدل باجماع الصحابة رضي الله عنهم وهو أن عليا رضي الله عنه لما أنكر عليه التحكيم وكفره الخوارج ، قال بحضرة الصحابة واللـــه ما حكمت مخلوقا وانما حكمت القرآن ، ولم ينكر ذلك منكر فدل على انـــه اجماع (٣)

ثانيا : الادلة العقلية : استدل الامام الباقلاني على اثبات قدم كلام الله تعالى من العقل بأنه لو كان القرآن مخلوقا ، لكان لا يخلو امـا أن يكون جسما قائما بنفسه أو عرضا محمولا .

وأبطل أن يكون جسما لانه يستحيل أن يكون جسما ، لان الجسم ليــس له تعلقا كتعلق الصفات ، ولان الاجسام كلها من جنس واحد ، فلو كان بعضهـا كلاما لخالق أو مخلوق لوجب أن تكون جميعا كلاما ، وفي فساد ذلك دليل على أن الكلام لا يجوز أن يكون جسما .

وأبطل أيضا الامام الباقلاني أن يكون عرضا ، لانه لو كان عرضــا مفعولا لم يخل من أن يكون الباري تعالى خلقه في نفسه ، أو في غيره أوفي غير شـــيء.

ويبطل الامام الباقلاني هذه الاقسام الثلاث :

- لانه لا يجوز أن يخلقه الله في غيره ، لانه لو خلقه في غيـــره لكان هذا الغير الها ، وهذا محال باطل .

- ولا يجوز أن يكون خلقه في غير شيء ، لانه يؤدي الى وجود كلام من غير متكلم وهذا محال أيضا

- ولا يجوز أن يكون خلقه في نفسه لأنّ ذاته لا تقوم بها الحوادث لانه ليس محلا للحوادث .

---

(١) أخرجه الدارمي بنحوه في سننه باب فضل كلام الله على سائر الكلام ٢/٤٤١ من حديث أبي سعيد الخدري،وأبو يعلى في مسنده ،والبيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه ،وذكره الالباني في السلسلة الضعيفة تحت رقم (١٣٣٤) ،وفي ضعيف الجامع الصغير له برقم (٣٩٧٤) ٢/٩٢

(٢) انظر الانصاف للباقلاني ص ٧١

(٣) انظر نفس المصدر ص ٧٢

واذا بطلت هذه الاقسام الثلاث لم يبق الا انه غير مخلوق واستحال أن يكون الله خالقا له اذ لو خلقه لم يخل من ذلك بل هو صفة من صفات ذاته قديم بقدمه موجود بوجوده موصوف فيما لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز أن يباينه ولا أن يحل في مخلوق (١)

هذه هي الادلة التي ساقها الامام الباقلاني من النقل والعقل على اثبات قدم كلام الله تعالى وأنه ليس مخلوق .

وكلام الباقلاني في أن القرآن ليس مخلوقا كلام موافق فيه جمهور أهل السنة ، أما قوله بقدم الكلام مطلقا فهذا ما يتوجه اليه النقد فيه

فقد بين ابن تيمية هذه الحجة العقلية التي ذكرها الباقلاني وذكر أنها عمدة من يقول بقدم الكلام كالاشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأبي الحسن الزاغوني وأمثالهما . (٢)

والامام الباقلاني بقوله هذا موافق لجمهور الاشاعرة والماتريديه (٣) ومخالف لما عليه السلف في هذه المسألة ، وهذا مما نتج عن أصلهم الفاسد في أن كلام الله تعالى معنى أزليا واحدا مما وافقوا فيه الجهمية .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (وهؤلاء وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم أنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته ، وأنه لا تقوم به الامور الاختيارية ، وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والارض ولا يأتي يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه ولا تغضبه المعاصي ولا ترضيه الطاعات) (٤)

لأنّ الله عندهم لا يوصف بالاتيان والمجيء ولا بالرضا والغضب الى غير ذلك من الصفات الاختيارية .

والذي يعتقده السلف أن الله تعالى يتصف بالصفات الاختيارية كالكلام ،والرضى ، والغضب ، والحب ، والبغض ، والرحمة ، والانتقام ، والاتيان والمجيء والنزول ، وغير ذلك من صفاته التي تقوم بمشيئته واختياره .

ومعنى ذلك أنه لا يزال متكلما اذا شاء ، ولا يزال رحيما اذا شاء

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٣٧-٢٣٨،والانصاف له ص ٧٢

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩١/٦

(٣) انظر مشكل الحديث لابن فورك ص ١٣٣-١٣٤،٢٠٤،٢٣٢،٢٣٥،وشرح العقائد النسفية للتفتازاني ص٤٥،وشرح أم البراهين للسنوسي ص ٣٠

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٩٤/١٢

فالصفة ثابتة له تعالى في الازل ، وهي متعلقة بمشيئته واختياره .

فكلام الله تعالى قديم النوع وأما آحاده فهي حادثة أي تحدث متى شاء الله ، فيتكلم سبحانه متى شاء وكيف شاء واذا شاء (١)

فاذا أراد من قال بقدم الكلام جنس الكلام فصحيح ، واذا أراد آحاده فليست قديمة ، لانه لم يقل أحد من السلف أن نفس الكلام المعين قديم بل قالوا : لم يزل متكلما اذا شاء لأن صفة الكلام عندهم صفة ذات وفعل (٢) فالاشاعرة يقولون الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل ، والمعتزلة يقولون صفة فعل لا صفة ذات ، والسلف على أنه صفة فعل وصفة ذاتا معا (٣)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في بيان عقيدة السلف في ذلك :(وقد قال الامام أحمد - رضي الله عنه - وغيره من الائمة : لم يزل الله متكلما اذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء) (٤)

يستفاد من هذا النقل عن الامام أحمد أمرين :-

الاول : اثبات صفة الكلام لله تعالى في الازل وأنها ليست محدثة ولا مخلوقة .

الثاني : أن كلامه تعالى متعلق بمشيئته واختياره ، فهو يتكلم اذا شاء .

وأيضا فان الله تعالى له صفات الكمال ، وكل كمال لا نقص فيه فالله تعالى متصف به ، والكلام صفة كمال ، فان من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم والذي يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته وقدرته (٥)

أما ما ذهب اليه الباقلاني في دليله العقلي على قدم كلام الله تعالى واستحالة خلق الله تعالى للكلام في نفسه لاستحالة قيام الحوادث بذاته تعالى - على حد زعمهم - فهذا غير صحيح ، لأن السلف وان لم يقولوا بأن الله خلق الكلام في نفسه ولا في غيره ولا في غير شيء ، الا انهم يقولون بأنه يتكلم متى شاء وكيف شاء ، ويجوزون قيام الحوادث بذاته تعالى بمعنى أنه سبحانه يفعل متى شاء وكيف شاء لاجل اثبات أفعاله الاختيارية

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩٢/٦ ، وشرح الطحاوية ص ١٤٥-١٤٦

(٢) انظر لوامع الانوار للسفاريني ١٣٤/١

(٣) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٤٣٧/٣

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٨٨/١٢

(٥) انظر نفس المصدر ٢٩٤/٦-٢٩٥

بأنه يفعل بمشيئته واختياره ، وهذا لا يلزم منه حدوث النوع ، فنوع الكلام قديم ، وآحاده المتجددة حادثة وقد تقدم الكلام على هذا تفصيلا في مسألة قدم الصفات عند الباقلاني (١)

والله تعالى أعلم ٠

---

(١) انظر من ص ٢٤٧ ـ ص ٢٥٢ من هذا الفصل

٤- مذهب الباقلاني في القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو والكتابة والمكتوب :-

ذهب الامام الباقلاني الى أن القراءة غير المقروء ، والتلاوة غير المتلو ، والكتابة غير المكتوب ، وفرق بين الامرين بأن القراءة صفة القاريء والمقروء كلام الله تعالى (١)

واستدل على مذهبه هذا بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة والمعقول نذكر بعض هذه الادلة :-

١- استدل من القرآن بقوله تعالى : ((وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث)) (٢)

ووجه استدلاله بالاية الكريمة أن الله تعالى أخبر أن القرآن منه منزل موحى ، والرسول يقرؤه ، فالموحى المنزل المقروء هو كلام الله تعالى القديم ، والقراءة فعل الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي صفته (٣)

٢- واستدل بقوله تعالى : ((انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن))(٤)

فقد أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبادة والتلاوة فيكون هناك آمر وهو الله تعالى ، ومأمور وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ومأمور به وهو العبادة والتلاوة ، فالمعبود غير العبادة التي هي فعل الرسول ، وكذلك التلاوة غير المتلو ، لأنّ التلاوة فعل الرسول صلى الله عليه وسلم والمتلو كلام الله تعالى القديم ، فيتلخص من هذا أن هناك تالٍ وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وتلاوته : وهي صفة له ، ومتلو وهو كلام الله القديم الذي هو صفة له (٥)

٣- واستدل الامام الباقلاني على مذهبه هذا من السنة بأحاديث نذكر منها :-

قوله صلى الله عليه وسلم : ((من أراد أن يقرأ القرآن غضا

---

(١) انظر الانصاف للباقلاني ص ٨١

(٢) الاسراء الاية ١٠٦

(٣) انظر الانصاف للباقلاني ص ٨١

(٤) النحل الاية ٩١

(٥) انظر الانصاف للباقلاني ص ٨١-٨٢

فليقرأ على قراءة ابن أم عبد)) (١) يعني ابن مسعود

ووجه الدلالة من هذا الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم أضاف القراءة الى ابن مسعود والمقروء صفة لله تعالى ، ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم انما وصف بالغضاضة والطراوة قراءة ابن مسعود دون كلام الله تعالى المتلو المقروء ، لأن صفة القراءة تكون غضة رطبة من قاريء دون قاريء ، وذلك راجع الى صفات المحدثين الذين يتفاضلون في قرائتهم وأصواتهم أما القرآن المقروء المتلو ، فلا يختلف في ذاته بأي قراءة قريء وبأي تلاوة تلي ، وبأي صوت سمع (٢)

٤- وأما ما استدل به من جهة العقل قوله : (يعلم أن القراءة تارة تكون طيبة مستلذة ، وتارة فجة تنفر منها الطباع ، وتارة رفيعة عالية ، وتارة منخفضة خفيفة ، وتارة يلحقها اللحن والخطأ ، وتارة تصح وتقوم ، وما جازت عليه الاشياء فلا يجوز أن يكون الا صفة الخلق دون صفة الحق ، وكذلك أيضا الكتابة تارة تكون مرتبة جيدة حسنة يمدح كاتبها وتارة وحشية يذم كاتبها ، والانسان انما يمدح ويذم على فعله ، فصح أن الكتابة صفة الكاتب ، والمكتوب بها كلام الله تعالى) (٣)

واستدل ايضا من العقل بأن الكتابة يلحقها المحو والغرق والحرق وكلام الله القديم لا يتصور عليه شيء من ذلك (٤)

وأيضا فان قراءة القاريء قد تكون طاعة وقربة اذا قرأها على طهارة دون رياء أو سمعة ، وقد تكون معصية اذا قرأها وهو جنب مرائي وما يكون طاعة ومعصية فهو صفة الخلق لا صفة الحق ، والمقروء في الحالتين شيء واحد هو كلام الله تعالى القديم (٥)

والحقيقة أن القول بأن القراءة هي المقروء أو انها غير المقروء - كما يقول الباقلاني - كلام مجمل يحتاج الى استفسار وتوضيح للمقصود.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٦/١، ٣٨، ٤٤٥ ، وابن ماجه في المقدمة ٤٩/١ والحاكم في المستدرك ٣١٨/٣ ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وانظر فضائل الصحابة للامام أحمد ٨٣٨/٢-٨٣٩

(٢) انظر الانصاف للباقلاني ص ٨٢-٨٤ ، ٨٨-٨٩

(٣) نفس المصدر ص ٩٢

(٤) انظر الانصاف للباقلاني ص ٩٢

(٥) انظر نفس المصدر ص ٩٣

لأن التلاوة والقراءة مصدران ، ولكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو ، فالتلاوة مثلا قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى ، وقد يراد بها نفس حركات العباد وما يحدث عنها من أصواتهم وشكل المداد ، وقد يراد بها مجموعهما .

فاذا اريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو واذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو ، واذا اريد بها المجموع فهي متناوله للفعل والكلام فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره .

وبسبب هذا الاجمال منع السلف ومنهم الامام أحمد وغيره ، من اطلاق النفي أو الاثبات ، الذي يقتضي جعل صفات الله تعالى مخلوقة ، أوجعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق ، ولهذا قال الامام أحمد : نقول : القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف أي حيث تلي وكتب وقريء ، مما هو في نفس الامر كلام الله فهو كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وما كان من صفات العباد وأفعالهم التي يقرؤن ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق .

وبسبب هذا الاجمال فقد وقع النزاع بين طوائف من أهل السنة والجماعة .

* فمنهم من قال : ان القراءة هي المقروء والتلاوة هي المتلو ومن هؤلاء أبي حاتم الرازي (١) ومحمد بن داود المصيصي (٢) وطوائف غيرهم فهؤلاء الذين قالوا ان التلاوة هي المتلو قصدوا أن التلاوة هي القول والكلام المتلو ، وكذلك القراءة هي الكلام المقروء .

* ومنهم من قال : ان القراءة غير المقروء والتلاوة غير المتلو

---

(١) هو محمد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي أبو حاتم الرازي ، حافظ للحديث،من أقران البخاري ، ولد في الري سنة ١٩٥هـ ،واليها نسبته ، رحل كثيرا وتوفي ببغداد سنة ٢٧٧هـ ، له تفسير للقرآن ، وطبقات التابعين وغير ذلك

انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢٨٤/١-٢٨٦، وتهذيب التهذيب ٣١/٩ والاعلام للزركلى ٢٧/٦

(٢) هو محمد بن داود بن صبيح أبو جعفر المصيصي ، أحد رواة الحديث عن الامام أحمد بن حنبل ، وحدث عنه النسائي وأبي داود وغيرهم

انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢٩٦/١-٢٩٧،وتهذيب التهذيب ١٥٤/٩

وممن قال ذلك الامام البخاري ، ومحمد بن نصر المروزي (١) وغيرهما من أهل العلم ، وهؤلاء الذين قالوا ذلك أرادوا أن أفعال العباد ليست هي كلام الله ولا أصوات العباد هي صوت الله ، وهذا هو الذي قصده الامام البخاري وهو مقصود صحيح .

وكما قلنا فان السبب في هذا أن لفظ التلاوة والقراءة لفظ مجمل مشترك ، يراد به المصدر ويراد به المفعول .

- فمن قال من أهل السنة بأن اللفظ ليس هو الملفوظ ، والقول ليس هو المقول ، والقراءة ليست هي المقروء وأراد باللفظ والقول والقراءة المصدر كان معنى كلامه أن الحركة ليست هي الكلام المسموع وهذا صحيح .

- ومن قال من أهل السنة بأن اللفظ هو الملفوظ والقول هو المقول ، والقراءة هي المقروء ، وأراد باللفظ والقول والقراءة نفس المقول المقروء ، وأراد باللفظ والقول والقراءة مسمى المصدر صار حقيقة مراده أن اللفظ والقول والقراءة هي الكلام المقول الملفوظ المقروء وهذا صحيح (٢)

والذي قصده الباقلاني بقوله ان القراءة غير المقروء ، والتلاوة غير المتلو هو ما ذهب اليه بعض أهل السنة ويقصد بذلك أن أفعال العباد وأصواتهم ليست هي كلام الله تعالى وهذا مقصود صحيح ، ويتبين ذلك من أدلة الامام الباقلاني التي ساقها لاثبات ذلك .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي ، امام فقيه محدث،وكان من أعلم الناس في اختلاف الصحابة فمن بعدهم ،ولد ببغداد سنة ٢٠٢هـ ونشأ بنيسابور واستوطن سمرقند وتوفي بها سنة ٢٩٤هـ ،من مصنفاته القسامة في الفقه ،والمسند وغير ذلك

انظر تذكرة الحفاظ ٦٥٠/٢ـ٦٥١ ،وتهذيب التهذيب ٤٨٩/٩ ،والاعلام للزركلي ١٢٥/٧

(٢) انظر رسالة في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣٥٧/٣ ،٣٩٥ـ٣٩٦ ،٤٦٨ـ٤٧٠ ،٥١٠ـ٥١١ ، ودرء التعارض له ٢٦٠/١ـ٢٦٦ ، ومجموع الفتاوى له ١٧٠/١٢ ،٣٠٦ـ٣٠٧ ،٥٦٢ ، ومختصر الصواعق المرسلة ٤٢٠/٢ـ٤٢١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٠ـ١٥٢

٥ - موقف الامام الباقلاني من المعتزلة في مسألة خلق القرآن :-

اشتهر عن الجهمية والمعتزلة قولهم بأن القرآن مخلوق محدث ويقرر هذا القاضي عبد الجبار المعتزلي (١) بقوله : (وأما مذهبنا في ذلك فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه ، وهو مخلوق محدث)(٢)

ومعنى هذا أن الله تعالى لم يكن متكلما ، وحينما أراد الكلام خلقه في محل وأسمعه من أراد كما قالوا عن موسى عليه الصلاة والسلام أن سماعه لكلام الله تعالى انما كان من الشجرة التي خلق الله فيها كلامه ولهم على مذهبهم هذا شبهات استندوا اليها وزعموا أنها تدل على ما ذهبوا اليه ، ومن هذه الشبهات بعض الايات التي حرموا من فهمها ، وقد ذكر القاضي عبد الجبار بعد قوله السابق بعض هذه الايات التي استدل بها ، منها قوله تعالى : ((وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)) (٣)

وقوله تعالى :((وكان أمر الله مفعولا)) (٤)

وقوله تعالى : ((وكان أمر الله قدرا مقدورا)) (٥)

وقوله تعالى : ((انا جعلناه قرآنا عربيا)) (٦) الى غير ذلك من الايات التي استدلوا بها وادعوا أنها تدل على ما ذهبوا اليه .

وقد كان لهذا الرأي الذي نشره الجهمية ومن تبعهم من المعتزلة الاثر الكبير في زعزعة واثارة الفتن والمحن في حقبة من الزمن .

وقد تصدى لهؤلاء المعتزلة علماء السلف في الرد على شبهاتهم وكشف زيفها ، وممن تنبه لذلك الامام الباقلاني ، فقد بين - كما مر معنا - أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، واستدل على ذلك بالادلة النقلية

---

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الاسد أبادي أبو الحسين قاضي أصولي،كان شيخ المعتزلة في عصره ،ويلقبونه بقاضي القضاة ،ولا يطلقون هذا اللقب على غيره ،ولي القضاء بالري ومات بها سنة٤١٥هـ ،من تصانيفه المحيط بالتكليف،وشرح الاصول الخمسة ،ومتشابه القرآن ،وغير ذلك انظر لسان الميزان٣/٣٨٦،والعبر للذهبي٢/٢٢٩،والاعلام للزركلي ٣/٢٧٣

(٢) شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٥٢٨

(٣) الانبياء الاية ٢

(٤) الاحزاب الاية ٣٧

(٥) الاحزاب الاية ٣٨

(٦) الزخرف الاية ٣

والعقليـــــــة .

ولم يكتف الامام الباقلاني بهذا بل اتخذ اسلوبا آخر وهو نقـــض شبهات المعتزلة وبيان تهافت أدلتهم التي اعتمدوا عليها ، وسنذكر بعـــض هذه الشبهات التي اعتمد عليها المعتزلة ونقض الباقلاني لها .

-١- تمسك المعتزلة بقوله تعالى : ((ما يأتيهم من ذكر مـــن ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون)) (١) قالت المعتزلة : الاية تشير الى أن القرآن محدث ، والحدث هو الخلق ، فيكون القرآن مخلوقا .

لكن الامام الباقلاني بين أن الاية حجة عليهم لا لهم وأنه ليـــس لهم دليل فيها ، وذلك من عدة أوجه :-

الاول : ان الاية حجة عليكم ، لانها تدل على أن من الذكر ما ليس بمحدث ، لأنه لم يقل ما يأتيهم من ذكر الا كان محدثا ، فثبت أن من الذكر ما هو قديم ليس بمحدث ، لاجل نعته للذكر بالحدوث ، ولو كان لا ذكر الا محدث لما كان لقوله تعالى : ((ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)) معنى .

فوجب أن يكون نعت الذكر بالحدوث دلالة على أن منه ما ليس بمحدث وهـــو القرآن للاجماع على أن كل ما عداه من الذ كر محدث .

الثاني :ان المراد بالذكر في الاية وعظ النبي صلى الله عليـــه وسلم لاصحابه وتخويفه لهم ، لأنّ وعظ الرسول يسمى ذكرا بدليل قوله تعالى : ((فذكر انما أنت مذكر)) (٢) ويقال فلان في مجلس الذكر أي الوعظ وهـــذا المعنى أولى مما ذهبت اليه المعتزلة ، لأنّ قريشا لم تكن تلعب عندسماعــه بل كانت تفحم .

الثالث : ويحتمل أن يكون المراد من الاية : ما يأتيهم من نبـــي بعد نبي الا أستمعوا قوله وهم يلعبون ويعرضون عن سماعه ، لأنّ الله تعالـــى قد سمى الرسول ذكرا فقال تعالى : ((ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات الله))(٣)(٤)

وأجاب بعض العلماء بأن المحدث ليس المخلوق بل الذكر الذي حدث عندهم ، ولم يكن قبل ذلك ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (المحدث في الاية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ، ولكنه الذي انزل جديدا فان الله كان

---

(١) الانبياء الاية ٢

(٢) الغاشية الاية ٢١

(٣) الطلاق الاية ١١

(٤) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٤٨ ،والانصاف له ص ٧٤-٧٥

ينزل القرآن شيئا بعد شيء ، فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة الى المنزل آخرا ، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب) (١)

-٢- كما استدل المعتزلة بقوله تعالى : ((وكان أمر الله مفعولا)) (٢) . ((وكان أمر الله قدرا مقدورا)) (٣) قالوا : ان الامر هو القرآن ، والاية تدل على أنه مفعول مقدور ، وكل ما هو مفعول مقدور فهو محدث مخلوق .

ولكن الامام الباقلاني يختلف معهم في تفسير الامر في الاية ويرى أن الاية لا تدل على ما يزعمون ، لأنه يرى أن الامر في الاية ليس هو القرآن بل المراد عقابه وانتقامه من الكافرين ونصره للمؤمنين ، وما حكم به وقدره من أفعاله وهذا بمنزلة قوله تعالى : ((حتى اذا جاء أمرنا)) (٤) يعني ما أمرنا به من زيادة الماء واغراق الكافرين من قوم نوح عليه السلام ولم يعن بذلك (قولنا) وكذلك قوله تعالى : ((وما أمر فرعون برشيد)) (٥) يعني شأنه وأفعاله ولم يرد قوله لان الامر الذي هو القول يجمع على أوامر أما الامر من الشأن والفعل فيجمع على أمور (٦)

-٣- واستدلوا بقوله تعالى : ((انا جعلناه قرآنا عربيا)) (٧) فقالوا ان الجعل بمعنى الخلق ، والمجعول مخلوق بدليل قوله تعالى :((وجعلنا من الماء كل شيء حي)) (٨) أي خلقنا .

أجابهم الامام الباقلاني عن هذا من ثلاثة أوجه :-

الاول : ان معنى ذلك : انا سميناه قرآنا عربيا ، لأن الجعل يكون بمعنى التسمية بدليل قوله تعالى : ((الذين جعلوا القرآن عضين))(٩)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٢٢/١٢

(٢) الاحزاب الاية ٣٧

(٣) الاحزاب الاية ٣٨

(٤) هود الاية ٤٠

(٥) هود الاية ٩٧

(٦) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص ٢٤٩،والانصاف له ص ٧٥

(٧) الزخرف الاية ٣

(٨) الانبياء الاتة ٣٠

(٩) الحجر الاية ٩١

يعني سموه ، فبعضهم سماه شعرا ، وبعضهم سماه سحرا ، وبعضهم سماه كهانة الى غير ذلك ، ولم يرد أنهم خلقوه.

وكذلك قوله تعالى : ((وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا)) (١) أي سموهم وحكموا عليهم بذلك لا انهم خلقوهم وهناك آيات كثيرة تدل على أن الجعل بمعنى التسمية .

الثاني : أن يكون أراد انا جعلنا قرائته وتلاوته بلسان العرب وأفهمنا أحكامه باللسان العربي وتكون الفائدة في ذلك الفرق بينه وبين غيره من الكتب السماوية .

الثالث : ان الجعل اذا عدي الى مفعول واحد كان ظاهره الخلق واذا عدي الى مفعولين كان ظاهره الحكم والتسمية في أكثر الاستعمال، فلما قال الله تعالى : ((انا جعلناه قرآنا عربيا)) متعديا الى مفعولين كان بمعنى الحكم والتسمية (٢)

-٤- واحتجوا ايضا بقوله تعالى : ((واذا بدلنا آية مكان آية))(٣) فقالوا : ما يغير ويبدل فهو مخلوق لا محالة .

وقد أجابهم الامام الباقلاني عن هذا (ان التبديل والنسخ انما يكون ويتصور في الرسم من خط أو تلاوة ، أو في حكم ، فيكون تقدير الكلام واذا بدلنا حكم آية أو تلاوة آية ، دون المتلو القديم الذي لا يتصور عليه تبديل ولا تغيير ، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى وأخبر أن كلامه القديم لا يغير ولا يبدل) (٤)

وهكذا فند الامام الباقلاني احتجاج المعتزلة بهذه الاية وأبطله .

وهذا الاسلوب الذي اتبعه الامام الباقلاني في رد استدلال المعتزلة على مذهبهم هو نفس اسلوب علماء السلف ، ويتضح لنا ذلك بمقارنة بعض ردود الامام الباقلاني على المعتزلة مع ردود غيره من علماء السلف ، ولبيان ذلك اورد بعض الامثلة ،من ذلك رد شارح الطحاوية على استدلال المعتزلة بقوله تعالى : ((انا جعلناه قرآنا عربيا)) (٥) بأن (جعل) اذا كان بمعنى خلق

---

(١) الزخرف الاية ١٩

(٢) انظر التمهيد للباقلاني تحقيق مكارثي ص٢٤٩-٢٥٠،والانصاف له ص٧٥-٧٦

(٣) النحل الاية ١٠١

(٤) الانصاف للباقلاني ص ٧٦-٧٧

(٥) الزخرف الاية ٣

يتعدى الى مفعول واحد كقوله تعالى : ((وجعل الظلمات والنور)) (١)
وقوله تعالى : ((وجعلنا من الماء كل شيء حي)) (٢) ، واذا تعدى الى مفعولين لم يكن بمعنى خلق ، قال تعالى : ((ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم))(٣)
وقال تعالى : ((الذين جعلوا القرآن عضين)) (٤) ونظائر هذا كثيرة فكذلك قوله تعالى : ((انا جعلناه قرآنا عربيا))(٥) يكون بمعنى الحكم والتسمية(٦)

ومن ذلك أيضا رد الامام ابن قتيبة استدلال المعتزلة بهذه الاية حيث قال : (وأما استشهادهم بالجعل على خلق القرآن في قوله تعالى:((انا جعلناه قرآنا عربيا)) فان الجعل يكون بمعنيين أحدهما خلق والآخر غير خلق ، فأما الموضع الذي يكون فيه خلقا فاذا رأيته متعديا الى مفعول واحد لا يجاوزه كقول الله تعالى : ((خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور)) (٧) فهذا بمعنى خلق ..... وأما الموضع الذي يكون فيه غير الخلق فاذا رأيته متعديا الى مفعولين كقوله تعالى : ((وقد جعلتم الله عليكم كفيلا))(٨) أي صيرتم ، وكقوله : ((فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها)) (٩) .... فان هم وجدوا في القرآن كله (جعل) متعدية الى القرآن وحده ليقضوا عليه بالخلق فنحن نتابعهم ، وكذلك المحدث ليس هو في موضع بمعنى مخلوق ، فان أنكروا ذلك فليقولوا في قول الله : ((لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا)) (١٠) أنه يخلق ..... وكذلك قوله : ((ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)) (١١) أي ذكر عندهم ولم يكن قبل ذلك.....)(١٢)

---

(١) الانعام الاية ١
(٢) الانبياء الاية ٣٠
(٣) البقرة الاية ٢٢٤
(٤) الحجر الاية ٩١
(٥) الزخرف الاية ٣
(٦) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٣
(٧) الانعام الاية ١
(٨) النحل الاية ٩١
(٩) البقرة الاية ٦٦
(١٠) الطلاق الاية ١
(١١) الانبياء الاية ٢
(١٢) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة ص ٢٥-٢٦

من هذا يتبين لنا أن الامام الباقلاني في نقضه لشبهات المعتزلة لم يخرج عن ردود علماء السلف فهو متفق معهم في ذلك ، وتتضح موافقته في مطالعة كتب السلف ككتاب الرد على الجهمية للامام أحمد بن حنبل وكتاب الرد على الجهمية للامام الدارمي وكتاب رد الدارمي على بشر المريسي له أيضا وغير ذلك من مصنفات السلف .

والامام الباقلاني وان وافق علماء السلف في الرد على المعتزلة في قولهم بخلق القرآن ، الا انه في تفصيل القول في القرآن وكلام الله قد خالف السلف - كما مر معنا - ووافق فيها الاشاعرة فقد رأى ان الكلام الحقيقي هو الكلام النفسي القديم ، وان هذا القرآن الذي نتلوه ونكتبه ليس هو كلام الله القديم بل هو عبارة عنه ، ودلالة عليه ، وأن القرآن الذي بين أيدينا يطلق عليه قرآنا من باب تسمية الدلالات باسم المدلولات ، لان القرآن عنده قائم بذات الله لا ينفك عنه أزلا وأبدا ، وهو عندهم من صفات الذات .

فالخلاف بين السلف والاشاعرة في حقيقة الكلام الالهي،لان الكل متفق على أن القرآن غير مخلوق ، وقد بينا مذهب السلف وأنهم يرون أن القرآن الذي بين أيدينا هو كلام الله تعالى حقيقة حروفه ومعانيه ، وهو صفة من صفاته ، وكلامه تعالى قديم النوع حادث الآحاد ، فالله تعالى تكلم به وأسمعه جبريل عليه السلام ، ونزل به جبريل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والكلام عند السلف صفة ذات ملازمة للذات المقدسة ، وهي أيضا صفة فعل لأنه يتكلم متىشاء واذا شاء ، ويتكلم بحرف وصوت كما وردت بذلك النصوص الصريحة من الكتاب والسنة .